

الفصل السادس

عمل الحلم

إن كل المحاولات التي بذلت حتى اليوم في حل مشكلات الحلم قد انصبت من غير وساطة على محتواه الظاهر كما يمثل في ذاكرتنا ؛ فمن هذا المحتوى جهدت هذه المحاولات في الوصول إلى تفسير الحلم ، أو عليه أقامت حكمها في طبيعته - حين تركت مشكلة تفسره . نحن وحدنا نواجه وضعاً مختلفاً ؛ فهناك مادة جديدة تقوم من وجهة نظرنا بين محتوى الحلم الظاهر وبين النتائج التي انتهى إليها بحثنا : تلك هي محتوى الحلم الكامن أو أفكار الحلم التي بلغناها بمنهجنا . ونحن إنما نفك معنى الحلم من محتواه الكامن لا من محتواه الظاهر . وعلى ذلك تواجهنا مهمة جديدة لم يكن لها وجود من قبل : أن نبحث العلاقة بين محتوى الحلم الظاهر وبين أفكاره الكامنة ، وأن نتأثر العمليات التي تستحيل بها هذه الأفكار إلى ذلك المحتوى .

إن أفكار الحلم ومحتوى الحلم يمثلان أمامنا كترجمتين تؤديان في لغتين مختلفتين معنى بعينه ، أو بعبارة أصح : إن محتوى الحلم يبدو لنا كأنه نقل لأفكار الحلم في نمط مختلف من التعبير ، نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه ، وذلك بالمقارنة بينه وبين الأصل . إننا نفهم أفكار الحلم من غير وساطة فور العلم بها . وأما محتوى الحلم فيأتيها فيما يشبه الكتابة المصورة ، كتابة يجب علينا أن ننقل رسومها رسماً فرسماً إلى لغة أفكار الحلم . فمن الخلق أننا ننساق إلى الخطأ حين نقرأ هذه الرسوم بحسب دلالتها المصورة لا على حسب علاقتها الرمزية . هب أمامي لغزاً من الألغاز المصورة : منزل أرى على سطحه مركباً ، ثم حرف واحد من الحروف الأبجدية ، ثم شخص يجري متزوع الرأس ، الخ . لقد أنزلق إلى النقد معلنا أن هذه الصورة غير معقولة في كلها وفي أجزائها : فما شأن المركب بسطح المنزل ؟ وكيف لرجل أن يجري متزوع الرأس ؟ ثم إن الرجل أكبر حجماً من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور منظراً طبيعياً فليس هذا محل الحرف الأبجدي ، فالطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية . ولكن من الواضح أننا إنما نوفق

إلى الحكم على هذا اللغز حكماً صحيحاً حين ندع جانباً أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة في مجموعها وفي أجزائها ، وحاولنا بدل ذلك أن نبدل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعاً أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الأنحاء . فإن فعلنا ، فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى ، بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه . والحلم لغر مصور من هذا القبيل ، ولقد أخطأ المتقدمون علينا في مجال تفسير الحلم فنظروا إلى اللغز نظرهم إلى لوحة مصورة . وكان أن بدا لهم - من حيث هو كذلك - خالياً من المعنى ، مجرداً من القيمة .

أ

التكثيف

إن أول ما يتبين للباحث عند المقارنة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم هو أن تمت عملية تكثيف قد أجريت على نطاق واسع : فالحلم مقتضب ، هزيل ، مليء بالثغرات ، إن هو قورن بسعة أفكار الحلم وغناها . فهو إذا كتبته قد يستغرق نصف الصفحة ، فلو سطرت التحليل الذى ينشر أفكار الحلم المتضمنة فيه للمآت ضعف ذلك ست مرات أو ثمانى مرات أو اثنتى عشرة مرة . وتختلف هذه العلاقة باختلاف الأحلام . ولكنها بقدر ما تذهب إليه تجربتى - لا تغير اتجاهها أبداً . ونحن فى العادة نقدر مقدار الإدغام الذى يقع تقديراً دون الحقيقة ؛ إذ يغلب علينا أن ننظر إلى أفكار الحلم التى خرجت إلى الضوء كما لو كانت تؤلف كل المادة الممكنة ، على حين أننا إذا تابعنا التفسير فقد نتكشف لنا أفكار أخرى مستترة وراء الحلم . ولقد سنحت لى الإشارة من قبل [ص ٢٣٨] إلى كوننا لا نستطيع أن نستيقن أبداً من أن هذا الحلم أو ذاك قد فسر تفسيراً كاملاً . فاحتمال أن يكون للحلم معنى آخر غير الذى كشف احتمال يظل قائماً دائماً حتى ولو بدا الحل مقنعاً لا لخلل فيه . أو بعبارة أدق : إن من المستحيل أن نحدد

مقدار التكثيف . غير أن هناك ردا يبدو للوهلة الأولى مقبولاً في الغاية على قولنا : إن النقص العظيم في التناسب بين محتوى الحلم وأفكار الحلم دليل على أن المادة النفسية قد احتملت في أثناء تكوين الحلم عملية تكثيف واسعة النطاق . ذلك أننا نشعر في أحيان كثيرة بأننا قد حلمنا بالشيء الكثير طيلة الليل كله ونسينا معظم ما حلمنا به ؛ فالحلم الذي نذكره قد لا يكون - بحسب هذا الرأي - سوى نبذة متبقية من مجموع عمل الحلم ، ولو قد تذكرنا هذا كله لكان من الحائز أن نجد له من الشمول مثل الأفكار الحلم . وما من شك في أن هذا الرأي لا يخلو من بعض الصدق ؛ فلا جدال في أننا نستحضر الأحلام على أدق وجه إذ حاولنا أن نتذكرها فور استيقاظنا وأن ما نذكره منها يتناقص شيئاً فشيئاً حتى المساء . غير أننا نستطيع أن نبين - من ناحية أخرى - أن شعورنا هذا بكوننا قد حلمنا بأحلام تربو كثيراً على ما نذكره هو شعور قائم في أحيان كثيرة على وهم سوف أناقش مصدره فيما بعد [ص ٤٨٦ - ٤٨٧ ثم ص ٥٠٧] . أضف إلى ذلك أن فرضنا القائل بأن تمت تكثيفاً يقع في خلال عمل الحلم هو فرض لا تغير منه في شيء إمكانية نسيان الأحلام ؛ لأن هذا الفرض إنما تثبته كمية الأفكار المتصلة بكل جزء مفرد من أجزاء الحلم المحفوظة في الذاكرة . فإن كنا نسينا حقيقة شطراً كبيراً من أحلامنا ، فعنى ذلك في الراجح هو أننا قد حرمانا من الوصول إلى طائفة جديدة من أفكار الحلم . وأما أن نتوقع أن أجزاء الحلم المفقودة ربما تعلقت بهذه الأفكار عينها التي توصلنا إليها بتحليل الأجزاء المتبقية ، فذلك ما لا مبرر له على الإطلاق^(١) .

ولكن من شأن غزارة المستدعيات التي تخطر عند التحليل بخصوص كل عنصر مفرد من محتوى الحلم أن تثير في أذهان الكثيرين من القراء هذا الشك المبدئي : هل يحق لنا أن نعد كل هذه المستدعيات التي تظهر من بعد ، في خلال التحليل ، جزءاً من أفكار الحلم ؟ أى : هل يحق أن نعتقد أن هذه الخواطر كانت حاضرة بالفعل ناشطة في خلال حالة النوم وأنها قد شاركت في تكوين الحلم ؟ أليس الأرجح أن مستدعيات

(١) إن وقوع التكثيف في الأحلام ظاهرة أشار إليها مؤلفون كثيرون من قبل . فنحن نجد عند دويرل (١٨٨٥ ، ٨٥) فقرة يقول فيها : إن من الأمور المستيقنة استيقاننا مطلقاً أن هناك عملية تكثيف تصيب طوائف الأفكار في الحلم .

فكرية جديدة تنشأ في سياق التحليل دون أن يكون لها في تكوين الحلم نصيب ؟ إنني لا أستطيع أن أوافق على هذا الشك سوى موافقة مشروطة . نعم ، إن من الحق ولا شك أن بعض حلقات المستدعات تظهر في سياق التحليل للمرة الأولى ، ولكن في وسع المرء أن يقتنع في مثل هذه الحالات جميعها بأن هذه الروابط الجديدة إنما تقوم بين فكرتين كانتا موصولتين بالفعل في أفكار الحلم على نحو آخر من الأنحاء . فهذه الروابط الجديدة هي بمثابة حوادث أو مسالك مختصرة صارت ممكنة لأن تمت طرقاتاً رابطة أخرى أعمق غوراً . ولا بد لنا من أن نسلم بأن الغالبية العظمى من الأفكار التي تنكشف في أثناء التحليل كانت حاضرة بالفعل ناشطة عند تكوين الحلم ؛ لأننا كثيراً ما نتابع خيطاً من الأفكار تبدو منقطعة الصلة بتكوين الحلم ، ثم إذا نحن نعر فجأة على فكرة مُثَلَّت في الحلم ، ولا يستغنى عنها في تفسيره ، وما كنا مع ذلك لننتهي إليها بغير متابعة هذا الخيط الفكري . ويحق لي هنا أن أذكر بحلم المبحث النبائي ، هذا الحلم الذي يبدو نتيجة لعملية تكثيف مدهشة وإن لم أرو تحليله كاملاً .

ولكن إذا كان ذلك كذلك ، فعلى أي نحو نتصور الوضع النفسي في خلال فترة النوم التي تسبق الحلم ؟ هل تتراص أفكار الحلم جميعاً ، الواحدة بجانب الأخرى ، أو هي تتعاقب تترى ، أو أن عمليات نفسية متعددة تبدأ في وقت واحد من مراكز مختلفة ثم تلتقي ؟ أعتقد أننا لا نحتاج في الوقت الحاضر إلى تكوين فكرة منظورة عن الوضع النفسي القائم في خلال حالة النوم . يكفي ألا ننسى أن الأمر يتعلق بفكر لا شعوري من السهل أن يجيء سيره مختلفاً مما نلاحظه في أنفسنا عند التفكير الهادف المصحوب بالشعور .

وأياً كان الأمر فالحقيقة الثابتة تبقى : أن تكوين الحلم يقوم على عملية تكثيف . فكيف يقع هذا التكثيف ؟

إن المرء إذ يرى أن أقلية ضئيلة من أفكار الحلم هي التي تمثل وحدها في الحلم ببساطة أحد عناصرها الفكرية المشتركة - قد يتجه ظنه إلى أن هذا التكثيف يتم من طريق الحذف ، أي أن الحلم ليس ترجمة صادقة لأفكار الحلم أو إسقاطاً لها نقطة فنقطة ، بل هو نسخ ناقص ، مليء بالثغرات إلى أبعد مدى . هذا الرأي - كما سنراه عاجلاً -

بعيد غاية البعد عن مطابقة الواقع . إلا أننا سنتكئ الآن عليه اتكاء موقوتاً ثم نمضى منه
فنسأل : إذا كانت قلة قليلة من أفكار الحلم هي التي تنفذ وحدها إلى محتواه ، فما هي
الشروط التي تحدد اختيارها ؟

لا بد لكي نجيب عن هذا السؤال من أن نوجه الآن اهتمامنا إلى هذه العناصر من
محتوى الحلم التي لا بد أن تكون قد حققت تلك الشروط التي نبحت عنها . وأحسن ما
يعين بالطبع على هذا البحث حلم شاركت في تكوينه عملية تكثيف ذات شدة تفوق
المألوف . ولهدأ اختار بادئ ذي بدء حلماً ذكرته من قبل في ص ١٩١ .

حلم المبحث النباتي

محتوى الحلم : كتبت مبحثاً خاصاً بنوع (غير محدد) من النبات . الكتاب مائل أمامي وأنا أدير في
تلك اللحظة على التحديد لوحة ملونة مطوية . أرفق بالنسخة نموذج مجفف من النبات .

إن العنصر الذي يظهر على غيره في هذا الحلم هو المبحث النباتي . وقد نشأ هذا
العنصر من انطباع تخلف من اليوم الذي سبق الحلم ؛ فقد رأيت في واجهة إحدى
المكتبات بحثاً في فصيلة السيكلامين ولم يرد لهذه الفصيلة ذكر في الحلم ، بل كل ما
تبقى كان المبحث وصلته بعلم النبات . ولم يلبث «المبحث النباتي» دون أن ينكشف رباطه
بمقال عن الكوكايين كتبته مرة . ومن الكوكايين ذهبت المستدعيات - من جهة -
إلى الكتاب التذكارى وإلى أحداث معينة وقعت في معمل الجامعة ، وذهبت - من جهة
أخرى - إلى الدكتور كونيجشتاين طبيب العيون الذي كان له سهم في التعريف بالكوكايين .
وذكرنى شخص الدكتور كونيجشتاين بمحادثة قطع حبلها ، جرت بيننا في مساء الحلم
وبخواطرى المتعددة فيما يتعلق بسداد أجر الخدمات الطبية بين الزملاء . وكانت هذه
الحادثة هي الحافز الحقيقى إلى الحلم ، حافزه الحاضر الناشط ، وأما المبحث الخاص
بفصيلة السيكلامين فكان انطباعاً حاضراً ناشطاً كذلك ولكنه كان خالياً من القيمة .

وتبين لي أن « المبحث النباتي » في الحلم كان بمثابة عنصر مشترك أوسط بين خبرتي اليوم السابق ؛ فهو قد أخذ كما هو من الانطباع المجرد من القيمة ثم ربط بالانطباع ذي القيمة النفسية الكبيرة بوساطة روابط استدعائية غزيرة .

ولكن الأمر لم يقتصر على هذه الفكرة المركبة ، ففكرة « المبحث النباتي » ، بل إن كل عنصر من عناصرها ، « نباتي » و « مبحث » ، قد أدى منفصلاً إلى رزمة أفكار الحلم المختلطة من خلال روابط متعددة تزيد عمقاً بعد عمقا . فإلى « نباتي » رجعت ذكرى الأستاذ جارتزر [البستاني] وذكرى زوجته المزدهرة ، ثم ذكرى مريضتي فلورا [أزهار] وذكرى السيدة التي رويت في صدها قصة الأزهار المنسية . وأدى جارتزر بدوره إلى العمل وإلى حديثي مع كونجيتشايين ، ولقد كنا أشرنا في خلال هذا الحديث عينه إلى هاتين المريضتين [فلورا والسيدة ل.] . ومن السيدة بأزهارها تشعب الفكر إلى أزهار زوجتي المفضلة ثم إلى عنوان البحث الذي كنت ألقيت عليه في النهار نظرة عابرة . و « نباتي » قد ذكرني - عدا ذلك - بقصة وقعت في المدرسة الثانوية وبامتحان في الجامعة ، ثم جاء موضوع جديد كان الحديث مع كونجيتشايين قد تطرق إليه - وأعنى به هواياتي المفضلة - فارتبط من طريق ما سميته مازحا زهرتي المفضلة - وأعنى الخرشوف - بسلسلة الخواطر المنبعثة من الأزهار المنسية . ومن وراء « الخرشوف » كنت - من جهة - ذكرى إيطاليا^(١) ومن جهة أخرى - مشهد من طفولتي كان فاتحة ما أصبح من بعد علاقتي الحميمة بالكتب . وهكذا كان هذا العنصر « نباتي » معقد الحلم حقيقة : ففيه التقت خيوط من الفكر كانت قد دخلت في سياق تلك المحادثة دخولا مناسباً - كما يسعني توكيده . فنحن نجد أنفسنا هنا في مصنع للأفكار يصدق عليه قول الشاعر عن عمل النساج :

في دفعة القدم بموج ألف خيط
ويتفصص البكر في كر وفر
والخيوط تنساب لا تنظرها
كل ضربة تحزم ألف شكل^(٢) .

(١) [لم يرد ذكر إيطاليا في المستعيات التي أوردتها فرويد في صدد هذا الحلم ، وأغلب الظن أنه يشير هنا إلى مستعيات لم يذكرها .]

(٢) [فاوست ، الجزء الأول ، المشهد الرابع " في مكتب فاوست " سطر ١٩٢٤ وما بعده .]

وكذلك «مبحث» : فهي تلمس موضوعين : اقتصار دراساتي على جانب واحد ثم التكاليف التي تجر إليها هواياتي .

هذه النظرة الأولى تشعر المرء بأن هذين العنصرين ، «نباتي» و «مبحث» ، قد وجدا موضعاً في محتوى الحلم لأنهما كانا يملكان أوفر العلائق بمعظم أفكار الحلم ، وكانا لذلك بمثابة معقدين تجتمع فيهما أفكار حلمية غزيرة غاية الغزارة ، أى لأن لهما فيما يتصل بتفسير الحلم معاني متعددة . وفي وسعنا أيضاً أن نعبّر عن الظاهرة الأساسية التي يقوم عليها هذا التعليل تعبيراً مختلفاً فنقول : إن كل عنصر من عناصر محتوى الحلم لا يلبث أن يتبين أنه محتوم حتماً مضاعفاً ، أى أنه يمثل في أفكار الحلم أكثر من مرة .

وإنا لنعلم ما هو أكثر من ذلك إذا فحصنا سائر مقومات الحلم من حيث ورودها بين أفكاره . فاللوحة الملونة التي كنت أديرها قد أدت (أنظر تحليل الحلم في ص ١٩٧) إلى موضوع جديد هو النقد الذي وجهه الزميل إلى أعمالى ، ثم إلى موضوع آخر سبق أن ريناه ممثلاً في الحلم ، هو هواياتي المفضلة ، وهذا بالإضافة إلى ذكرى مشهر الطفولة الذي كنت أمزق فيه - ورقة فورقة - كتاباً حوى لوحات ملونة . وأما نموذج النبات المحفف فكان يرجع إلى قصة معشب المدرسة الثانوية ويؤكد هذه الذكرى توكيداً خاصاً . وهكذا يتضح لنا نوع العلاقة بين محتوى الحلم وأفكاره : فعناصر الحلم قد حتمتها أفكار الحلم مرة بعد المرة ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن أفكار الحلم المتفرقة قد تمثل في الحلم بأكثر من عنصر واحد فطريق التداعى يمتد من أحد عناصر الحلم إلى أفكار كثيرة للحلم ، ثم من فكرة واحدة من أفكار الحلم إلى أكثر من عنصر من عناصره . وهكذا لا يتم تكوين الحلم بحيث تسلم كل فكرة من أفكاره أو كل طائفة من هذه الأفكار إلى عنصر مختزل يمثلها في محتوى الحلم تمثيلاً مستقلاً على نحو ما تنتخب الدوائر الانتخابية نوابها ، بل الأصح أن تقلبنا يتناول أفكار الحلم في مجموعها بحيث لا يكتسب حق الدخول في الحلم إلا العناصر المؤيدة أكثر التأييد وأقواه على نحو مماثل نظام الانتخاب بالقائمة . وما من حلم حالته مثل هذا التحليل إلا اكتشفت فيه هذا المبدأ الثابت : أن عناصر الحلم تبنى من أفكار الحلم مأخوذة في مجموعها وأن كل

عنصر من هذه العناصر مختموم في علاقته بهذه الأفكار أكثر من حتم .

ومن المؤكد أنه لن يكون من نافلة الكلام أن تصور العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم مثال جديد يمتاز بتشابك العلائق المتبادلة بين هذين الطرفين تشابكا فذا في مهارته .
والحلم حلم مريض كنت أعالجه من مخافة الأماكن المغلقة وسيتبين للقارئ سريعا لم اخترت لهذا النتاج الحلمى الفريد فى المعينه اسم :

٢

« حلم جميل »

كان يركب مع صحبة كبيرة فى شارع س . حيث يوجد نزل متواضع (وهو ما ليس صحيحاً) . بداخل النزل مسرحية تمثل . إنه متفرج تارة ، مثل تارة أخرى . كان على الجميع بعد أن انتهت المسرحية أن يغيروا ملابسهم لكي يذهبوا إلى المدينة . نزل فريق من المجموعة فى الطابق الأرضى ونزل فريق آخر فى الطابق الأول . شب حينئذ نزاع : الأعلون غاضبون لأن الأسفلين يتباطئون بحيث يحولون بينهم وبين النزول . كان أخوه بالطابق الأعلى وكان هو بالطابق الأسفل وكان ساخطا على أخيه لأنه وفريقه يحنونهم حشا لا يطاق . (هذا الجزء غير واضح) كانت القسمة بين من يحتلون الطابق الأعلى وبين من يحتلون الطابق الأسفل أمراً مقرراً منذ اللحظة التى وصلوا فيها . يذهب بعد ذلك وحده مصعداً فى شارع س . فى اتجاه المدينة . يلاقى فى الصعود صعوبة ويلاقى عناء حتى أنه لا يكاد يبارح مكانه . يقبل عليه سيد متقدم فى السن ويعرض بملك إيطاليا . عند ما يبلغ قمة المرتقى يسلم سيره كثيراً .

وكانت صعوبة الصعود متميزة حتى أنه ظل يشك بعد اليقظة برهته فيما إذا كان الأمر حلماً أم حقيقة .

إن هذا الحلم لن يلتقى منا كلمة طيبة لو حكمنا عليه من محتواه الظاهر . وسأبدأ تفسيره على عكس القاعدة - بهذا الجزء الذى نص الحلم على أنه كان أشد أجزاءه تميزاً .

إن الصعوبة التى حلم الحالم بها وأحسها فعلا فى حلمه على الراجح - الصعود الشاق مع عسر التنفس - هى إحدى الأعراض التى كانت قد بدت بالفعل على المريض منذ سنوات وعزيت إذ ذاك - مع غيرها - إلى السل (ويرجح أنه كان محاكاة هستيرية) .

ولقد عرفتنا أحلام الاستعراض من قبل بهذا الإحساس الخاص الذى يرد فى الحلم ، إحساس الكف ، وإنا لنرى مرة أخرى أن هذا الإحساس مادة سهلة المنال فى كل وقت ، تستغل فى كل غرض تصويرى آخر . ولقد ذكرتنى تلك الفقرة من الحلم التى يبدأ فيها الصعود صعباً ثم يسهل عند نهاية المرتقى - ذكرتنى والحلم يروى حلمه بالمقدمة الذائعة المنقطعة النظير التى يستهل بها الفونس دوديه رواية « سافو » : هناك نرى شاباً فى مقتبل العمر يصعد السلم حاملاً خليلته خفيفة كالريشة أول الأمر ، ولكنه كلما صعد أثقلت ذراعيه . والمشهد كله يبنى بمصير العلاقة بينهما ، أراد دوديه بتصويره أن يحذر الشباب من الإغراق فى كلف جاد بفتيات لا يعرف لمن أصل ولا يسلم ماضيهن من بعض الظن^(١) . وكنت أعلم أن مريضى قد اشتبك فى صلة غرامية بسيدة تعمل فى المسرح وأنه قد قطع هذه الصلة أخيراً ، ومع هذا لم أكن أتوقع أن يتأيد تفسيرى . أضف إلى ذلك أن الموقف فى سافو كان عكسه فى الحلم : فى الحلم يبدأ السير صعباً ثم يسهل من بعد ، بينما يقوم كل مغزى الرمز الروائى فى كون ما كان سهلاً فى البداية قد صار فى النهاية عبثاً ثقيلًا . فلشد ما كان دهشى حين أجاب المريض أن تفسيرى يتسق غاية الاتساق ومسرحية رآها فى مساء الحلم : كان اسم المسرحية « جولة فى فيينا » وكانت تعالج سيرة فتاة بدأت حياتها فتاة محترمة ثم صارت بين بين ، وتعددت لها صلوات برجال من ذوى المكانة وبذلك « بلغت القمة » ، ولكنها عادت فى النهاية « فهبطت بأسرع مما صعدت » . وذكرته هذه المسرحية بمسرحية أخرى رآها منذ سنوات ، كان عنوانها « درجة فدرجة » وكان لها إعلان يصور سلماً متعدد الدرجات .

لنمضين فى التفسير . إن المثلثة التى اتصل بها اتصاله الأخير الحافل هذا كانت تقطن شارع س . وليس بهذا الشارع نُزِّل . بيد أنه قد قضى جزءاً من الصيف فى فيينا من أجل هذه السيدة ، ونزُل إذ ذاك فى فندق صغير قريب منها . وهو يذكر أنه قد قال لسائق العربة إذ غادر الفندق : « إننى لسعيد ؛ فقد سلمت على الأقل من الحشرات ! » (وأذكر عرضاً أن تلك كانت إحدى مخافاته) وكان جواب السائق : « وكيف ينزل

(١) إن ما كتبت فى القسم الخاص بالرمزية من هذا الكتاب عن معنى أحلام الصعود يلقى الضوء على

تصوير الكاتب . [القسم ٥ من هذا الفصل .]

المرء مثل هذا المكان ! إنه ليس فندقاً بالمعنى الصحيح ، إن هو في الحقيقة إلا نُزُل .
ولا تلبث فكرة النزول أن تذكره بهذين البيتين :

« قد حلت أخيراً في نزل

وكان المضيف أرق مضيف . »

والمضيف في قصيدة أولاند [التي استشهد منها المريض بهذين البيتين] كان شجرة

تفاح . والآن ترد على خاطره آية أخرى من الشعر :

فاوست (وهو يرقص مع الساحر الصغيرة) :

أتانى مرة حلم جميل

رأيت فيه شجرة تفاح

وعلى الشجرة أشرفت تفاحتان جميلتان

سلبتاني اللب فصعدت صوبهما .

الساحرة الجميلة :

لقد تقفت للتفاح توقاً جما

منذ أن خلته في الحنة

كم يستحفى الطرب وأنا أجد

حديقتي تؤتى هذه الأكل (١) .

إن الشك محال فيما يعنيه الشاعر بشجرة التفاح وبالتفاحتين . والصدر الناهد كان بعدُ بين السحر الذى شد حالمى إلى صاحبه .

وكان سياق التحليل ينحول لنا كل الحق في أن نفترض أن الحلم يرجع إلى انطباع من الطفولة . فإذا كان الأمر كذلك ، لزم أن الحلم يتعلق بموضع الحلم البالغ الآن ثلاثين عاماً . وما صدر الموضع في الحقيقة إلا نُزُل بالنسبة إلى الطفل . والموضع إذن - مثل سافو ودويو - تلبو توى إلى الحبيبة المهجورة منذ زمن غير بعيد .

وأخو الحلم (وهو أخوه الأكبر) يظهر كذلك في محتوى الحلم ، ويظهر في الطابق

الأعلى بينما الحالم نفسه في الطابق الأسفل . وهذا أيضاً قلب للوضع الحقيقي : فالأخ – كما أعرف – قد فقد مكانته الاجتماعية بينما ظل المريض محتفظاً بها . ولقد تجنب الحالم حين سألته أن يعيد رواية الحلم – تجنب أن يقول : إن أخاه كان في الطابق الأعلى وكان هو في « الطابق الأرضي » . وما تجنب هذا التعبير إلا لأنه كان يكون تعبيراً واضح المعنى أكثر مما ينبغي ؛ فنحن حين نقول [في فينا] عن رجل ما : إنه « في الطابق الأرضي » نعني بذلك أنه قد فقد ثروته ومكانته ، أى نعني – بعبارة أخرى – أنه قد هبط . ولأن يصور أمر ما في هذا الموضع من الحلم تصويراً مقلوباً – ذلك ماله بالضرورة معناه . ولا بد أن القلب قد تناول فوق ذلك علاقة أخرى بين أفكار الحلم ومحتواه . وإنا لنملك إشارة بينة ترينا أين نجد هذا القلب : من الحلى أنه قد ورد في نهاية الحلم حيث يجرى الصعود على نسبة معكوسة منها في سافو . وهنا يسهل علينا أن نرى أى قلب هو المقصود : ففي سافو يحمل الرجل المرأة التي تعقد بينها وبينه صلات جنسية ، فأما في أفكار الحلم فيتصل الأمر على العكس بامرأة تحمل الرجل . وإذ كانت هذه الحالة لا تتحقق إلا في الطفولة ، فالأمر يتعلق من جديد بالمرضع التي تحمل الرضيع بما وزن . وهكذا وفقت نهاية الحلم إلى أن تصور في إشارة واحدة كلا سافو والمرضع . وكما أن المؤلف لم يختار اسم سافو دون أن يلمح به إلى العادات الجنسية المثلية بين النساء ، كذلك فقرات الحلم التي تتحدث عن « الأعلين » و « الأسفلين » : فهي تلمح إلى تخيلات من نوع جنسى شغلت الحالم ولم تكن تخلو من بعض الصلة بعصابه من حيث هي شهوات مكبوتة . ولا يرينا تفسير الحلم في ذاته هل الأمور المصورة هذا التصوير تخيلات وليست ذكريات عن أحداث وقعت حقيقة ؛ فالتحليل إنما يسلمنا محتوى فكرياً بعينه ويترك لنا تقدير مدى حظه من الحقيقة . وذلك لأن الأحداث سواء أكانت حقيقية أم متخيلة تبدو هنا للوهلة الأولى متساوية القيمة – وليس هنا ، أى في الحلم ، وحسب ، بل كذلك في خلق الأبنية النفسية التي تفوق الحلم خطراً . والصحبة الكبيرة تعنى « السر » – كما نعلم من قبل [ص ٢٦٣] . وأما الأخ فإن هو إلا ممثل جميع مزاحميه اللاحقين في حب المرأة ، ممثل أدرج في مشهد الطفولة بفعل « تخيل راجع » . وأما قصة السيد الذي يُعرَّض بملك إيطاليا فتتصل مرة أخرى – من طريق خبرة حديثة العهد خالية في ذاتها من القيمة – بتكالب الأشخاص الذين لا مكانة لهم على الاندساس

بين الطبقات العليا للمجتمع . والأمر يبدو كما لو كان التحذير الموجه من دوديه إلى الشباب قد ضم إليه تحذير يناظره ، متجه إلى الطفل الرضيع (١) .

ولكى آتى بمثال ثالث يعين على دراسة التكثيف في تكوين الحلم أروى تحليلاً جزئياً لحلم آخر أدين به لسيدة متقدمة في السن أعالجها علاجاً تحليلياً نفسياً . وكانت هذه المريضة تشكو حالات من الهيلة شديدة الوطأة ، فلاغرو أن حفلت أحلامها بأفكار جنسية أثارت معرفتها دهش المريضة وتخوفها على السواء . وإذا كنت لا أستطيع أن أسوق تحليل هذا الحلم حتى نهايته ، فسوف تبدو مادته منقسمة طوائف متعددة لا يربط بينها رباط ظاهر .

٣

« حلم الخنفساوين »

محتوى الحلم : تتذكر أن لديها خنفساوين وضعتاى صندوق وأن عليها أن تطلق لها الحرية وإلا اختنقتا . تفتح الصندوق فتجد الخنفساوين في حالة من الاعياء الشديد . تطير إحدى الخنفساوين من النافذة المفتوحة ، وأما أخراهما فيسحقها مصراع النافذة بينما كانت المريضة تفلقها - على ما طلب إليها (علامات على الاشتزاز) .

التحليل : كان زوجها غائباً عن المنزل في سفر ، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربعة عشر ربيعاً تنام في السرير إلى جوارها . لقد نبهتها الصغيرة إلى أن عثة قد سقطت في كوب مائها ، ولكنها لم تفكر في إخراجها ثم إذا طلع الصباح أسفت للمخلوقة المسكينة . إنها كانت قد قرأت في المساء قصة روت كيف ألقي بعض الصبية بقطة في ماء مغلي وأعقب ذلك وصف تقلصات الحيوان : ذانك هما مناسيتا الحلم وهما مخلوان من الأهمية في ذاتيهما . إنها تفكر بعد ذلك في موضوع القسوة على الحيوان . إن ابنتها قد كانت منذ بضع سنوات - وكانوا يقضون الصيف إذ ذاك في مكان ما - شديدة القسوة على على الحيوان . فهي - أعنى الابنة - كانت تجمع الفراشات وكانت تسأل أمها بعض الزرنينج لكي تقتل به الفراشات . وكان من صنعها أن يراعى ظلت تحوم في أرجاء

(١) لقد ثبت أن الموقف المتصل بمرضع الحالم إنما كان وليد التخيل ، أثبتته تلك الواقعة الموضوعية : وهي أن مرضع الحالم كانت في هذه الحالة أم الحالم نفسه . وأذكر هنا بحكاية الشاب الذي أسف على أنه لم يستغل موقفه من مرضه استغلالاً أحسن (ص ٢٢٤) ، فلا شك في أن حلمنا هذا يصدر عن أسف من هذا القبيل .

الغرفة برهة وقد اخترق دبوس جسمها . وفي مرة أخرى ماتت يرقات كانت البنت قد احتفظت بها لكي تشهد انسلاخها . وكان من دأب هذه الطفلة أيضاً - وهي بعد أصغر سناً - أن تمزق أجنحة الخنافس والفراشات . لأنها - أعنى الابنة - ترتاع اليوم من هذه القساوة كلها ؛ لكم رقى قلبها من بعد !

إن المريضة تفكر في هذا التناقض ، وهذا التناقض يذكرها بآخر - وأعنى به التناقض بين المظهر والمخبر كما تصوره [جورج] إليوت في رواية « آدم بيد » : فتاة جميلة لكنها مغرورة ، غبية إلى آخر درجات الغباء ، وأخرى دميمة لكنها على خلق كريم ، ورجل نبيل الطبقة يستغوى الرعناء وآخر من الطبقة العاملة ولكنه النبيل حقيقة في حسه وصنيعه على السواء . لكم يغرك البصر عن البصر بالناس ! أكان الناظر إليها - هي - يحذر تلك الرغبات الحسية التي تؤرقها ؟

لأنه في السنة التي أخذت فيها ابنتها تجمع الفراشات أصيبت منطقتهم بوباء خطير من خنفس - مايو (١) . كان الأطفال يجنون لمراى الخنافس ويسحقونه من غير رحمة . لقد رأيت في ذلك الحين رجلا كان ينزع أجنحة خنفساء - مايو ثم يلتهم الجسد . إنها قد ولدت في شهر مايو ، وفي مايو كان أيضاً زوجها . ولما انقضت ثلاثة أيام من شهر العسل كتبت خطاباً إلى أهلها تتحدث فيه عن سعادتها - وكان ذلك أبعد الأمور عن الحقيقة .

لأنها في الأمسية التي جاءها الحلم في أعقابها كانت تنبش في رسائلها القديمة ، وقرأت على ذوئها بعضاً كان منه الجدى وكان منه ما يضحك . وكان بين ما قرأته خطاب مُسل جدا جدا ، كتبه إليها مدرس بيانو غازلها أيام عذرها ورسالة أخرى كتبها معجب نبيل الطبقة (٢) .

لأنها تؤنب نفسها لأن إحدى بناتها قد عثرت على كتاب لا يليق من كتب موباسان (٣) .

(١) [Maikäfer ، نوع من الخنافس ، ترجمته الصحيحة هي الجمل أو الخنافس الأوروبي . ولكننا آثرنا التزام الترجمة الحرفية في هذا الموضع تسهيلاً لتابعة المستدعيات .]

(٢) ذلك كان الباعث الحقيقي على الحلم .

(٣) ونذكر على سبيل التكلة : هذه الكتب سم للفتيات . والحالمة أيضاً قد انغمست في هذه الكتب

إن الزرنِخ الذى سألتها إياه فتاتها يذكرها بحبب الزرنِخ التى أعادت إلى اللوق دى مورا قوة الشباب فى « الناباب » (١) .

وأما « إطلاق الحرية » فيذكرها بتلك الفقرة من الناي الساحر :

« الحب لا أدرى كيف أرغمك عليه ،

وأما الحرية فلن أعطيك إياها . » (٢)

و « خنفس - مايو » يذكرها أيضاً بقول كاتخن (٣) :

« لأنت تهيم بى مثل هيام الخنفساء . » (٤)

وبين هذا كله يجيء تانهويزر [لفاجنر] : « أما وقد حركتك هذه اللذة

الحيثية . » (٥)

إنها تعيش فى هيلة وشغل دائمين من أجل زوجها الغائب . والخوف من أن يصيبه مكروه فى ترحاله يعرب عن نفسه فيما يأتها فى خلال النهار من شتى التخيلات . وقد كانت رأت منذ زمن قريب - فى خلال التحليل - فكرة من أفكارها اللاشعورية فحوهاها الشكوى من « شيخوخة » زوجها . وربما كنا نحذر على أحسن وجه فكرة الرغبة التى يخفيها هذا الحلم لو ذكرت أن الحاملة قد روعت منذ بضعة أيام إذ جاءتها وسط مشاغلها جملة وضعت فى صيغة الأمر ووجهت إلى زوجها ، وهى « اشق نفسك ! » ثم تبين أنها قد قرأت فى موضع ما - قبل ذلك بساعات - أن الشق يحدث انتصاباً شديداً . فالرغبة فى هذا الانتصاب هى التى بثقت من خلال الكف متقنعة بهذا القناع

(١) [لقب هندى دخل اللغة الفرنسية ، أطلقه ألفونس دوديه على أحد أشخاص رواية له معروفة بهذا

الإسم : Le Nabab . وقد جاء فى هذه الرواية أن اللوق دى مورا كانت له فى شيخوخته علاقة غرامية مستترة وأن طبيبه الإرنلدى الدكتور جنكيز كان يعطيه حبوباً مسماة " لآلى جنكيز " بقصد تقوية الباه ، ثم عرف

الطبيب أن معشوقة اللوق هى المرأة التى يجبها هو ، فجن جنونه ودرس السم اللوق فى هذه الحبوب .]

(٢) [من سارا سترو إلى پامينا فى ختام الفصل الأول من " الناي الساحر " لموزار .]

(٣) [فى المشهد الثانى من الفصل الرابع من مسرحية von Kleist المنوطة : [Katche von Heilbronn]

وأتجه خاطر الحاملة بعد ذلك إلى Penthesilea للشاعر عينه ، وإلى فكرة القسوة على العاشق .

(٤) [أى هياما شديداً .]

(٥) [فى الفصل الثالث حين يروى تانهويزر لثولفرام كيف ذهب إلى روما ليسأل الغفران لأنه - وهو

القارس المسمى - كان قد شاطر فينوس الآلهة الوثنية الملمات ، وكيف أجابه البابا أنه وقد شارك فى هذه اللذة

الحيثية فلن يكون له غفران . والبيت يرد هنا محرفاً عن الأصل تحريفاً خفيفاً .]

المروع . وقولها : « اشتق نفسك ! » يعدل قولها : « أحصل على أن تتصب أيا كان الثمن ! » وهنا تجد موضعها المناسب حبوب الدكتور جنكتر - حبوب الزرنيج في الناياب . ولكن مريضتي كانت تعلم أيضاً أن أشد مقويات الباه - وهي الذرايح (وتعرف عادة باسم الذباب الأسباب^(١)) - تصنع من الجمل المسحوق قلى . هذا المعنى يهدف الجزء الرئيس من محتوى الحلم .

فأما فتح النوافذ وإغلاقها فكان من أسباب الخلاف الدائمة بينها وبين زوجها ؛ فهي تحب النوم والهواء طلق ولكن زوجها يخشاه . وأما الإعياء فهو العرض الرئيس الذى تشكو منه هذه الأيام .

لقد أبرزت وأنا أسرد هذه الأحلام الثلاثة المواضيع التى يعاود فيها أحد عناصر الحلم الظهور بين أفكاره لكى أبين بذلك تعدد العلائق التى تشعب من هذا العنصر . ولكن ليس بين هذه الأحلام حلم مضينا فى تفسيره حتى النهاية ، ولذلك ربما كان من الأفيد أن نتناول حلماً أوردنا تحليله مفصلاً لكى نوضح به كيف يحتم محتوى الحلم تحتمياً مضاعفاً . ولهذا الغرض اختار حلم حقنة إرما . وسيسهل علينا أن نرى فى هذا المثال أن التكثيف يستخدم أكثر من وسيلة فى تكوين الحلم .

إن الشخص الرئيس فى محتوى الحلم هو مريضتي إرما التى تظهر فى الحلم بالملامح التى أعرفها لها فى حياة اليقظة والتى تمثل بذلك شخصها ذاته . ولكن الوضع الذى كنت أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذاً من ذكرى شخص آخر ، وأعنى به تلك السيدة التى كنت أود استبدالها بمريضتي - كما تبين من أفكار الحلم . وإرما من حيث ما يظهر عندها من غشاء دفترى يذكرنى بقاتى من أجل ابنتى الكبرى تمثل هذه الابنة ، وهذه بتوبتها تخفى وراءها - بجامع الاشتراك فى الاسم - شخص المريضة التى ماتت من جراء التسمم . ولا ينبى شخص إرما عن أن يتغير مدلوله فى مستأنف سياق الحلم (دون أن تتغير مع ذلك صورتها المرئية فى الحلم) . فهى تصوير الطفل الذى نفحصه فى قسم الأمراض العصبية بمستشفى أمراض الأطفال فحصاً تجلى فى خلاله ما بين صديقتى [أوتو وليوبولد] من التباين فى المواهب . وكان من البين أن طفلى الصغيرة قد كانت حلقة الوصل فى هذه الصيرورة . وإرما أيضاً توى بممانعتها فى أن تفتح فمها إلى مريضة

(١) [ويقال بالعربية : الذباب الهندى .]

أخرى قمت بفحصها مرة ، وتوئى كذلك - لذات العلاقة - إلى زوجى . وأنا بعد هذا كله قد ضمنت التغييرات المرضية التى اكتشفتها فى حلقتها إشارات تذهب إلى فريق بأكمله من أشخاص آخرين .

كل هؤلاء الأشخاص الذين ألتقى بهم وأنا أتابع « إرما » لا يظهرون فى الحلم بأشكالهم الجسدية ، بل يخبثون وراء شخص الحلم « إرما » التى تستحيل بذلك إلى صورة جمعية اجتمعت فيها - والحق يقال - شتى الملامح المتناقضة . أى أن إرما قد صارت تنوب عن هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين ضحى بهم من أجل التكثيف لأننى مررت إليها - لمحة فلمحة - كل ما يذكرنى بهؤلاء الأشخاص .

وهناك طريقة أخرى أستطيع بوساطتها أن أركب شخصاً جمعياً من أجل أغراض التكثيف الحلمى ، وذلك حين أمزج الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر فى صورة موحدة : على هذا النحو ركب شخص الدكتور م . فى حلم إرما ، فهو يحمل اسم الدكتور م . ويتحدث مثله ويعمل مثله ولكن خصائصه الجسدية ونوع مرضه كانت لشخص آخر هو أختى . ولم يكن الحتم مضاعفاً سوى فى لمحة واحدة فى سياهما - وأغنى بها شحوب الوجه ؛ فهذا الشحوب كان فى الحقيقة مشتركاً بينهما . ونجد مثل هذا الشخص المزيج فى حلم « الدكتور ر . هو عمى » ، غير أن صورة الحلم قد ركبت هنا بطريقة مختلفة : فأنا لم أمزج ملامح لأحدهما بلامح من الآخر مختزلاً فى أثناء ذلك الصورة المنطبعة فى الذاكرة عن كل منهما بأن أحرف سائر ملامحه ، بل قد اتبعت طريقة جالتون فى إحداث الصور العائلية ، أى أننى أسقطت صورتين كلا على الأخرى بحيث تبرز الملامح المشتركة بينهما بروزاً قوياً فى حين تبطل الملامح غير المتوائمة بعضها بعضاً ويغمض ظهورها فى الصورة . وهكذا تبرز الاحية الشقراء فى حلم عمى مثل سمة مقواة فى وجهه يتسبب إلى شخصين ، ولهذا جاء ممسوحاً . هذا كما انطوت الاحية على إشارة إلى والدى وإلى من طريق فكرة المشيب .

إن تكوين أشخاص الجمع والأشخاص المزيجة أحد الوسائل الرئيسة التى يتبعها الحلم فى التكثيف . وستسمح لى عاجلاً فرصة التحدث عن ذلك فى سياق مختلف . وكانت فكرة « الدستاريا » فى حلم حقنة إرما محتمة أيضاً حتماً مضاعفاً : أولاً من حيث التجانس فى الجرس بينها وبين « دفتريا » ، وثانياً من حيث صلتها بالمرضى الذى

أرسلته إلى الشرق والذي لم يعرف أحد وجود المستريا عنده .
ومثال آخر حرى بالاهتمام من أمثلة التكثيف في هذا الحلم هو ذكر « الروپيلين » .
فنحن لا نجد بين أفكار الحلم « پروپيلين » بل « آميل » . وقد يظن المرء أن ما وقع في
هذا الموضوع من تكوين الحلم إنما هو نقل وحسب . وذلك حق ، بيد أن هذا النقل كان
يخدم أغراض التكثيف ، كما يثبت من تلك التكملة التي أضيفها إلى تحليل الحلم :
عندما تمهلت عند كلمة « پروپيلين » برهة انتهت إلى الجناس بينها وبين كلمة
« پروپيلين » . ولكن أئنا ليست البلد الوحيد الذي يتفرد بوجود « پروپيلين » فيه ،
بل قد حوت ميونيخ نظيره ^(١) . ولقد ذهبت إلى ميونيخ قبل هذا الحلم بعام أزور هناك
صديقاً ألم به إذ ذاك مرض خطير - وهو هذا الصديق الذي لمح إليه الحلم تلميحاً لا لبس
فيه بوساطة كلمة « تريميتيلامين » التي أعقبت « پروپيلين » مباشرة .

إنني لن ألع على هذا الوضع العجيب ، وأعني به ما نجده هنا - كما في عدا ذلك
من المواضيع في تحليل الأحلام - من أن مستدعيات متفاوتة القيمة أشد التفاوت تستخدم
في إقامة الروابط بين الأفكار كما لم يكن بينها مثل هذا التفاوت ، وسأسلم نفسي لهذا
الإغراء الذي يدعوني إلى أن أصور فيما يشبه الرسم البياني تلك العملية التي استبدل بها
الپروپيلين في محتوى الحلم بالآميل الذي في أفكاره .

إننا نجد - من جانب - طائفة الأفكار المتصلة بصديقي أوتو الذي لا يفهمنى ولا
يقرنى والذي أهدى إلى شراً له نكهة الآميل ، ونجد - من جانب آخر - طائفة أخرى
ارتبطت بالأولى من طريق التضاد ، تلك هي طائفة صديقي البرليني [فيلهلم فليس] الذي
يفهمنى ويقرنى والذي أدين له بمعلومات جمة القيمة تتصل - بين ما تتصل به - بكيمياء
العمليات الجنسية .

ولقد حددت المناسبات التي بعثت على الحلم حديثاً وكانت حوافزه الحقيقية أى
أفكار من مجموعة أوتو كان ينبغي أن تجذب انتباهى بنوع خاص ، وكان الآميل بين هذه
العناصر المختارة التي كان مقدراً أن تظهر في محتوى الحلم . وأما المجموعة الحافلة الأخرى ،
مجموعة « فيلهلم » فقد بعث فيها الحياة على التحديد من أجل التضاد الذي بينها وبين مجموعة أوتو
ومنها أبرزت تلك العناصر التي تتناغم مع العناصر المستتارة من مجموعة أوتو . نعم ، فأنا

(١) [هو للاحتفالات في ميونيخ على غرار هو الاكروبول في أئنا] .

في خلال هذا الحلم بأسره أستعيد من شخص يسخطني بأخر أقالبه به وفق مشهائى ، وأنا أستدعى من الصديق كل ما يظهرنى على الخصم - نقطة فنقطة . وهكذا كان أن آثار الأميل الذى ينتمى إلى مجموعة أوتو ذكريات من مجال الكيمياء من المجموعة الثانية وكان أن نجح التريمتيلين الذى كان يلقى التأييد من جهات متعددة فى أن يصل إلى محتوى الحلم . ولقد كان من الممكن أن ترد أميل فى الحلم من غير تغيير لولا تأثير مجموعة « فيلهلم » ؛ فقبضة الذكريات التى يصدق عليها هذا الاسم قد جرى استكشافها جميعاً من أجل العثور على عنصر يضاعف تحم « أميل » ، وكانت « پروپيلين » سهلة الاستدعاء من أميل ، ثم جاءت ميونيخ بمبناها - البروپيلين - جاءت من مجموعة « فيلهلم » تلاقى پروپيلين هذه . فهاتان الدائرتان الفكرتان قد التقيتا جميعاً فى « پروپاين - پروپيلين » ، وهكذا استطاع هذا العنصر الأوسط أن ينفذ إلى محتوى الحلم كأنما كان ذلك بفعل من أفعال المساومة . فهنا قد صكت وحدة مشتركة متوسطة تقبل أكثر من حتم . وهكذا نلمس لمس اليد أن الحتم المضاعف يسهل النفاذ إلى محتوى الحلم . فمن أجل خلق مثل هذه الوحدة الوسطى نقل الانتباه دون ما تردد من الفكرة المستهدفة حقيقة إلى مستدعى آخر قريب منها .

لقد مكنتنا دراسة حلم حقنة إرما من أن ننفذ ببصرنا بعض الشيء إلى عمليات التكتيف التى تقع عند تكوين الحلم واستطعنا أن نرى بعض تفاصيل التكتيف مثل اختيار العناصر التى يتكرر ورودها فى أفكار الحلم وخلق الوحدات الجديدة (كالأشخاص الجمعية والصور المزيجية) وتكوين الحدود المتوسطة المشتركة . وأما الغاية التى يخدمها التكتيف والعوامل التى تستلزمه فأسئلة لن نثيرها إلا حين نعرض للعمليات النفسية التى تعمل فى تكوين الحلم لكى ندرسها فى جملتها [القسم ٥ من الفصل السابع] . ويكفيننا الآن أن نلاحظ أن التكتيف الحلمى خاصة ملحوظة من خصائص العلاقة بين أفكار الحلم ومحتواه . ولكن عمل التكتيف الذى يقوم به الحلم إنما يتجلى فى أوضح صورته حين يتناول الألفاظ والأسماء . فالحلم بوجه عام كثيراً ما يعالج الألفاظ كما لو كانت أشياء عيانية ، وهو إذن يجرى بينها من المزج مثل ما يجرى بين صور الأشياء العيانية . وتطالعنا الأحلام التى من هذا القبيل بأطراف المبتكرات اللغوية وأغربها (١) .

(١) [وهنا يتوقع القارئ بالطبع أن تكون الأمثلة على ذلك غير قابلة للترجمة ، كما سيرى .]

١) أرسل إلى أحد الزملاء مقالا كتبه ، وكان من رأبي أنه غالى في تقدير أهمية كشف فيزيولوجى حديث وأنه - على الأخص - قد عالج الموضوع بعبارات طنانة . فحلمت في الليلة التالية بجملة كان من الجلى أنها تشير إلى هذه المعالجة : « ياله من أسلوب نوركدال ! » لقد واجهت بادئ الأمر صعوبة في حل هذه الكلمة . صحيح أنه لم يكن ثمت شك في أنها قد ركبت بوساطة تحريف ماجن لنعين [ألمانيين] من النعوت المطلقة : كولوسال [جسم] وپيراميدال [هرى] ، بيد أنه لم يكن من السهل أن أقول ما مصدرها . وأخيراً تبين أن المسخ قد ركب من هذين الاسمين : نورا وإكدال - وهما شخصيتان في مسرحيتين معروفتين من مسرحيات إيسن^(١) ، وقد كنت قرأت في إحدى الصحف مقالا عن إيسن كتبه هذا المؤلف الذى كنت أنقد عمله الأخير .

٢) وروت لى إحدى مريضاتى حلماً قصيراً ورد فيه مركب لفظى لا معنى له : كانت فى حفل رينى مع زوجها ثم قالت : سوف ينتهى ذلك إلى Maistollmütz شامل . وكانت الحاملة تشعر فى الحلم شعوراً مبهماً بأن ذلك صنف من الحلوى يصنع من دقيق الذرة ، نوع من الولاىق . وقد قسم التحليل الكلمة إلى : Mais [ذرة] - toll [مجنون] mannstoll [مجنونة بالرجال] Olmütz [مدينة فى مورافيا] ، وكلها أجزاء تبين أنها كانت آثاراً تبتقت من حديث جرى حول المائدة بينها وبين أقاربها . وكانت كلمة Mais تتضمن - عدا الإشارة إلى المعرض اليوبيلى الذى افتتح أخيراً^(٢) - الكلمات الآتية : Meissen (شكل من الصينى المصنوع بمدينة مايسن [فى ساكس] على صورة الطائر) ، Miss [وكانت المربية الإنجليزية التى تعمل عند أقربائها قد سافرت إذ ذاك إلى أولوتس] ، mies (وهى كلمة يهودية عامية تستخدم على سبيل المزاح بمعنى « مقرف ») . وكانت تشعب من كل مقطع من هذا المخلوط اللغوى سلسلة طويلة من الخواطر والمستدعيات .

٣) شاب قرع أحد معارفه جرس بابه فى ساعة متأخرة من الليل ليترك له بطاقة زيارة فحلتم فى تلك الليلة بالحلم الآتى : ظل رجل يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل لكى

(١) ["نورا" فى "بيت النسية" و "إكدال" فى "البطة البرية" .]

(٢) [احتفالا بيوبيل الإمبراطور فرانسو جوزيف عام ١٨٩٨ .]

يصلح تليفون المنزل . وظل الرنين مستمراً بعد أن انصرف الرجل ولكنه لم يكن رنيناً موصولاً بل دقائق منفصلة .
يذهب الخادم لكي يبحث عن الرجل مرة ثانية ، فيقول له هذا الرجل : إن لمن العجيب أن يقف في أمر كهذا
أناس هم في العادة tutelrein .

إننا نرى أن المناسبة غير الهامة التي بعثت على هذا الحلم لا تفسر سوى عنصر واحد من
عناصره . وإنما اكتسبت هذه المناسبة بعض الأهمية حين وصل الحلم بينها وبين خبرة
سابقة من خبراته تخلو هي الأخرى من الخطر ولكن خيال الحلم قد خلع عليها معنى
بديلاً : ذلك أن الحلم حين كان صبياً يعيش مع والده قد قلب مرة كوباً من الماء على
الأرض وهو نصف نائم . وكان من أثر ذلك أن ابتل سلك التليفون المنزلي وأزعج رننه
المتصل نوم والده. وإذا كان الرنين المتصل يوافق البلبل فالدقائق المنفصلة قد استخدمت
في تصوير قطرات تسقط . وأما كلمة “tutelrein” فقد أمكن تحليلها على أنحاء
ثلاثة ، فأدت بذلك إلى ثلاثة موضوعات متمثلة في أفكار الحلم : “tutel” – وهو لفظ
قانوني بمعنى الوصاية ، ثم “tutel” (وربما كتب “Tuttell” –) وهو اسم يطلقه
العوام على صدر المرأة ، وأما الجزء الأخير من الكلمة ، “rein” ، فإنه إذا ركب
مع الجزء الأول من الكلمة المركبة “Zimmertelegraph” [التليفون المنزلي] كون
“Zimmerrein” [النظافة المنزلية] – وهو ما يذكر تذكر كبيراً قوياً ببلبل أرض الغرفة ثم
هو فوق ذلك لفظ جيمانس في الجرس اسم أحد أقرباء الحلم^(١) .

(١) إننا نستخدم في البيقظة هذه الطريقة في تحليل المقاطع وتركيبها (وهي كيمياء مقطعية بمعنى الكلمة) ،
وذلك في تكوين عدد كبير من النكات . وهالك مثالا على ذلك : « كيف تحصل على الفضة بأرخص طريقة ؟
تذهب في طريق اصطفت على جانبيه Silberpappeln [أي أشجار الحور ، ولكن الكلمة الألمانية قد ركبت
من لفظين الأول معناه الفضة والثاني له معنيان : الحور والخفيف] ثم تأمر بالصمت ، فينتقع الحفيف وتبقى
الفضة » . ولقد اعترض على أول قارئ قرأ كتابي ونقده [المقصود هنا هو فيلهلم فليس ، أنظر الخطاب ١١٨ في
فرويد ١٩٥٠] اعتراضاً أرجح أن القراء اللاحقين سوف يرددونه ، وهو ” أن الحلم يبدو بارع النكتة في كثير
من الأحيان ” . وهذا القول صحيح ما دام المقصود هو الحلم ، ولا يصبح نقداً إلا إذا مد إلى مفسر الحلم . وما أظن
أن « نكات » من المحمولات التي أملك كبير حق في الاتصاف بها في حياة البيقظة ، فإذا كانت أحلامى تبدو
« نكاتة » فالسرفي ذلك لا يعود إلى شخصي بل إلى الشروط السيكولوجية الخاصة التي يخضع لها تكوين الحلم – وهو
أمر يتصل أوثق اتصالاً بنظرية النكتة والمضحك . فالحلم إنما يصير نكاتاً لأن الطريق المباشر والأسهل إلى الإعراب
عن أفكاره قد سد في وجهه ، أي أنه مكره على أن يكون كذلك . وفي وسع القارئ أن يقتنع بأن أحلام مرضى
تحوى مثل ما تحويه أحلامى من النكات ، بل تزيد عليها . ومع هذا فقد دعاني هذا الاعتراض إلى المقارنة بين
طرائق النكتة وعمل الحلم ، مقارنةً بحمد القارئ حاصلها في كتاب نشرته عن النكتة وعلاقتها باللاشعور (١٩٠٥ ج) .

٤) حلمت حلاماً طويلاً بعض الشيء مشوشاً كان يدور - فيما يبدو - حول رحلة بحرية، وتراءى لى فيه أننا سنرسو أولاً فى ميناء اسمه Hearsing ثم فى آخر يليه اسمه Fliess وهذا الاسم الأخير هو اسم صديق القاطن فى مدينة ب . [برلين] ، والذي كان هدفاً لأسفارى مراراً . وأما Hearsing فركب اشتق جزء منه من أسماء الأماكن الواقعة فى ضواحي فيينا ، وهى أسماء كثيرة ما تنهى بالمقطع ing : Hietzing ، Liesing ، Mödling (والاسم القديم لهذه المدينة هو Medelitz من [اللاتينى] mea deliciae أى "meine Freud" [أى « سرورى » ، و « سرور » هو اسم فرويد فى الألمانية] . وأما الجزء الآخر فمشتق من الكلمة الإنجليزية Hearsay بمعنى شائعة ، وهو ما يشير إلى النم ويثبت علاقة الحلم بالمنبه غير الهام المتخلف من النهار ، وأعنى به قصيدة قرأتها فى مجلة "Fliegenden Blättern" [« الصحائف الطائرة »] عن قزم نمام يدعى "Sagter Hatergesagt" [« قيل وقال »] . فإذا أضفنا المقطع "ing" إلى الاسم Fliess ، خرج لنا "Vlissingen" (١) - وهو حقيقة اسم الميناء الذى يرسو فيه أخى حين يقبل من إنجلترا لزيارتنا . ولكن المرادف الإنجليزية لكلمة Vlissingen هو Flushing ، وهو ما يعنى حمرة الحجل ويذكرنى بالمرضى الذين أعابهم من « مخافة الحجل » ويذكرنى كذلك بمقال حديث - أثار بعض السخط فى نفسى - نشره بشرف عن هذا العصاب .

٥) وحلمت فى مرة أخرى حلاماً تركب من جزئين منفصاين : الجزء الأول كلمة علفت واضحة فى ذاكرتى هى كلمة "Autodidasker" ، وأما الجزء الثانى فكان يعيد - إعادة أمنية - تخيلاً قصيراً ، لا ضرر فيه ، طاف بذهنى منذ بضعة أيام . وكان مؤدى هذا التخيل أنى سأقول للأستاذ ن . فى أول فرصة أراه فيها : « إن المريض الذى كنت استشرت فى أمره أخيراً يعانى بالفعل عصبياً ، على ما خنته أنت » . ولا بد إذن لهذه الطرفة اللفظية "Autodidasker" من أن تحقق شرطين : الأول هو أن تحمل - أو أن تصور - معنى مضغوطاً ، والثانى هو أن يكون لهذا المعنى رباط مقبول يربط بينه وبين تلك النية المكررة فى الحلم بعد اليقظة ، وأعنى بها نية تقديم هاته الرضية للأستاذ ن .

لنظرن إذن فى كلمة "Autodidasker" هذه : إن من السهل أن نقسمها إلى

(١) [الحرف V ينطق فى الألمانية فاه .]

Autodidact [مؤلف] و Lasker [متعلم عصامي] - وهو اسم يرتبط في الذهن باسم Lasalle ^(١) . وتسوقى أولى هذه الكلمات إلى مناسبة الحلم - وهي مناسبة لها مغزاها في هذه المرة - : فقد كنت أعطيت زوجي عدة من المجلدات لمؤلف معروف كان صديقاً لأخي وكان - على ما علمت - من أبناء البلد الذي ولدت فيه (ي. ي. دافيد) . وفي ذات مساء حدثني زوجي عن الأثر العميق الذي تركته في نفسها قصة فاجعة قرأتها في أحد مجلدات دافيد عن رجل موهوب ساء مآله . وعرج بنا الحديث إلى المواهب التي نرى آماراتها في أطفالنا . وهنا أعربت زوجي - وهي ما تزال متأثرة بما قرأت - عن تخوفها فيما يتصل بالأطفال ، فرفهت عنها ملاحظاً أن تلك على التحقيق هي المخاطر التي يمكن أن تلاقها بالتنشئة الحسنة . ولكنني واصلت تلك الخواطر في خلال الليل ، فأخذت عن زوجي مخاوفها ونسجت حول هذه المخاوف أشياء أخرى من كل صنف . وكان لهذا المؤلف رأى في الزواج أفضى به إلى أخي ، ولقد ساق هذا الرأي خواطري في طريق جانبي يمكن أن تبلغ منه إلى التصور في الحلم : هذا الطريق قد أدى إلى برسلاو حيث تزوجت - وأقامت - سيدة كان تعقد بينها وبيننا صداقة متينة . ووجد الخوف من أن تضيع الحياة من أجل امرأة - هذا الخوف الذي كان مدار أفكارى في ذلك الحلم - مثالين في برسلاو مكثاني من أن أصور في وقت واحد كلتا الطريقتين اللتين يُنفذ بهما هذا التأثير المنحوس : لاسكر و لاسال ^(٢) . هذه الخواطر تتخلص جميعها في : « ابحث عن المرأة » ، وهذه العبارة تقودني بدورها - وقد أخذتها بمعنى مختلف - إلى أخي الذي لم يتزوج بعد ، واسمه الكساندر . إني الحظ الآن أن Alex يكاد يجانس لاسكر مقلوباً وأن هذا العامل لا بد قد شارك في التعرّيج بأفكارى جهة برسلاو .

ولكن هذا اللعب بالأسماء والمقاطع الذي كنت أسترسل فيه ههنا كان يضمّر بعد ذلك معنى آخر ؛ فهو يعرب عن رغبتى في أن أرى أخي ينعم بحياة عائلية سعيدة ، وكان ذلك من الطريق الآتية : نعلم أن زولا قد وصف نفسه ووصف حياته العائلية في بعض

(١) [ولد فرديناند لاسال مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا بمدينة برسلاو عام ١٨٢٥ ومات عام ١٨٦٤ . وولد إدوارد لاسكر (١٨٢٩ - ١٨٨٤) في ياروتشين على مقربة من برسلاو ، وكان أحد مؤسسى حزب الوطنيين الأحرار في ألمانيا . وكلاهما كان من أصل يهودى .]

(٢) مات لاسكر من شلل تدريجي ، أى من جراء عدوى نقلتها إليه امرأة (الفيلس) ، وأما لاسال

فقد مات - كما نعلم - في مبارزة من أجل امرأة .

مشاهد الرواية التي ألفها عن حياة فنان 'L'oeuvre' - وهي رواية لا بد أن محتواها قد قرب بينها وبين أفكار هذا الحلم . وهو يظهر في هذه الرواية باسم ساندوز ، وأغلب الظن أنه قد توصل إلى تعديل اسمه على هذا النحو من الطريق الآتية : إذا كتبنا اسم زولا معكوساً (وهو الشيء الذى يصنعه الأطفال عادة في ولع كبير) خرج لنا آوز . ولكن لا شك في أن ذلك كان يكون تنكراً غير كاف . وعلى ذلك رفع زولا آل - وهو المقطع الأول من آلكساندر - ووضع مكانه ساند - وهو المقطع الثالث من هذا الاسم عينه - وبذلك خرج ساندوز . وعلى نحو وجد شبيه بذلك أنشأت أيضاً كلمتى « أوتويداسكر » .

فأما التخيل الذى كان مؤداه أنى أقول للدكتورون : إن المريض الذى اشتركتنا في فحصه إنما كان يعانى عصاباً - فقد جاء في الحلم على هذا النحو : أخذت قبل أن يحين موعد أجازتى السنوية بوقت قصير في العناية بمريض حارت في أمره قدرتى على التشخيص ؛ فقد كانت حاله توحى أن ثمت مرضاً عضوياً خطيراً - قد يكون فساداً في النخاع الشوكى - ولكن لم يكن في المستطاع التثبت من ذلك . وكان القول بأن الحالة حالة عصاب مغرباً وكان ذلك كفيلاً أن ينهى كل صعوبة ، لولا أن المريض قد أنكر التاريخ الجنسى الذى لا أسلم بدونه بوجود العصاب أشد الإنكار . ولم أجد - وأنا في هذه الربكة - إلا أن أستعين بالطبيب الذى أجله رجلاً كما لا أجل رجلاً سواه (يشاركنى في ذلك الكثيرون عداى) وأذعن لرأيه طبيباً أسرع إذعان . واستمع الأستاذ إلى شكوكى وأقرنى عليها ثم ذكر رأيه : « امض في ملاحظة الرجل ، فلا بد أن الأمر عصاب . » وكنت أعلم أنه لا يشاركنى آرائى في علية الأعصاب ، فلم أفاتحه بالحجة التى تدعونى إلى رأى مخالف ، بيد أنى لم أخف عنه تشككى . ثم بعد ذلك بيضعة أيام أبلغت المريض أنى لا أعرف ماذا أصنع معه ونصحت له بالتوجه إلى طبيب آخر . ولشد ما دهشت عندئذ إذ طفق الرجل يرجو منى معذرتة لكذبه على ، قائلاً : إنه كان خجلاً من نفسه خجلاً شديداً ، ثم كاشفنى بهذا الطرف من العلية الجنسية الذى كنت أتوقعه على التحديد والذى لم أستطع بدونه القول بوجود العصاب . لقد فرج ذلك عنى ولكنه في الوقت عينه قد أذلنى ؛ فقد وجب على أن أسلم بأن فاحشى - إذ لم يضلله اعتبار التاريخ الجنسى - قد أصاب في رأيه أكثر مما أصبت . وكان أنى عقدت العزم على أن

أخبره بذلك حين أراه مرة ثانية : أن أخبره بأنه كان على صواب وأنى كنت على خطأ . وهذا على التحقيق هو ما أصنع في الحلم . ولكن ما هى هذه الرغبة التى تتحقق حين أعترف بأنى كنت على خطأ ؟ إنها الرغبة فى هذا الخطأ بالذات : لقد كنت أود لو أخطأت فى مخاوفى ، أو - بعبارة أصح - لو قد أخطأت زوجى فى هاته المخاوف التى صارت فى الحلم مخاوفى . ثم إن الموضوع الذى يدور من حوله الصواب والخطأ فى الحلم لم يكن بعيداً كل البعد عن المسائل التى كانت تشغلنى فى أفكار الحلم حقيقة ؛ فالأذى الذى تسببه امرأة أو تسببه - بعبارة أصح - الحياة الجنسية قد يكون كذلك عضواً وقد يكون وظيفياً : شلل زهرى أو عصاب ، وفى هذه المقولة الأخيرة نستطيع أن ندرج من طريق غير مباشر نوع الموت الذى لاقاه لاسال .

ولكن الأستاذ ن . لم يأخذ بنصيب فى هذا الحلم المتماusk التركيب والذى يصبح شفافاً كل الشفافية حين نعى بتفسيره من أجل تلك المماثلة ومن أجل رغبتى فى أن أكون مخطئاً ، ولا من أجل الروابط العارضة التى تربطه بمدينة برسلاو وبأسرة الصديقة التى تزوجت هناك ، بل قد جاءت مشاركته - فوق ذلك - من أجل هذه الواقعة الصغيرة التى اختتم بها تشاورنا : فهو بعد أن أدلى برأيه الذى ذكرته وفرغ بذلك من مهمته الطبية تحول باهتمامه إلى الأمور الشخصية فسألنى : « ما عدد أطفالك الآن ؟ » - « ستة » - وهنا أتى بجملة تم عن الإعجاب والقلق ثم قال : « بنات أم صبية » ؟ - « ثلاثة وثلاث ، وهم فخرى وغناى » - « حسناً ، ولكن خذ حذرك ! إن الأمور تجرى على ما يرام فيما يتعلق بالبنات ، وأما الصبية فتجلب تربيتهم المتعاب فيما بعد » ، فاحتججت بأن أبنائى قد ظلوا حتى اليوم طبيعين على أحسن وجه . ومن الواضح أن هذا التشخيص الثانى فيما يتصل بمستقبل أبنائى لم يرقى إلا بقدر ما راقى سابقه عن المريض الذى لا يشكو إلا عصاباً . فهذان الانطباعات قد ارتبطا من طريق التلازم ، أى لأننى خبرتهما الواحد عقب الآخر ، وأنا حين أتناول قصة العصاب فأدرجها فى حلمى أحلها محل حديثنا عن التربية - هذا الحديث الذى كان لاشك مرتبطاً أوثق الارتباط بأفكار الحلم من حيث يقرب كل هذا القرب من المخاوف التى أعربت عنها زوجى أخيراً . وهكذا نرى أنه حتى خوفى من أن يكون ن . محقاً فيما تحدث به من صعوبة تنشئة الصبيان قد وجد منفذاً إلى محتوى الحلم ، من حيث كان يستتر وراء الصورة التى صورت رغبتى فى أن أكون

مخطئاً في مجازة أمثال هذه المخاوف . وذات التخيل قد أفاد - كما هو - في تصوير كلا الاحتمالين المتقابلين .

(٦) نقلا عن مارسينوفسكى [١٩١١] : « خبرت اليوم وأنا بين الحلم واليقظة مثالا بديعاً غاية الإبداع على التكتيف الحلمى : فقد استوقفتنى وسط أشتات حلمية لا أكاد أذكرها كلمة رأيته وقد كتب نصفها وطبع النصف الآخر . كانت الكلمة : 'erzefilisch' [كلمة لا معنى لها] ، وهى قد جاءت فى جملة انزلت فى ذاكرتى الشعورية مفصولة من كل سياق ومعزولة عزلا تاماً . هذه الجملة هى : « إن ذلك يؤثر فى المشاعر الجنسية تأثيراً 'erzefilisch' . لقد عرفت للوهلة الأولى أن هذه الكلمة لا بد أن تكون فى الحقيقة : 'erzieherisch' [تربوى] ولهذا ظلت أتشكك برهه فيما إذا لم يكن الأجدد أن تكون الكلمة غير المفهومة 'erzifilisch' [بحيث يكون المقطعان الأولان متفقين نطقاً والمقطعين الأولين من الكلمة الدالة على « تربوى » ، وهى الكلمة التى خمن الحالم أن الكلمة المخترعة قد أخذت منها] . وفى هذه الأثناء خطرت لى كلمة 'Syphilis' ، وأخذت أعصر ذهنى - وقد بدأت فى تفسير الحلم وأنا مازلت نصف نائم - سائلاً كيف نسى لهذه الكلمة أن تعرض فى الحلم ، إذ ليست هناك أى علاقة تربط بينى وبين هذا المرض لا من وجهة شخصية ولا من وجهة مهنية . وعندئذ خطرت لى كلمة 'erzehlerisch' [كلمة أخرى لا معنى لها] ففسرت السر فى وجود حرف e الثانى [فى الكلمة المخترعة فى الحلم] ، وذلك بأن ذكرتنى بأن المربية 'Erzieherin' كانت قد سألتنى فى المساء أن أحدثها برأى فى مشكلة البغاء ، فأعطيته كتاب هس (عن البغاء) قاصداً من ذلك إلى التأثير فى حياتها الانفعالية - ولم تكن قد نمت نمواً سوياً تماماً - تأثيراً 'erzieherisch' [تربوياً] ، ثم حدثها بعد ذلك حديثاً طويلاً فى هذه المشكلة . وعندئذ اتضح أن كلمة 'Syphilis' لا يجب أخذها بمعناها الحرفى ، بل هى تنوب عن « سم » - فيما يتصل بأمور الحياة الجنسية بالطبع . وهكذا نجد أننا نخرج من ترجمة هذه الكلمة غير المفهومة بجملة منطقية تماماً : لقد كنت أبتغى من هذا الحديث ['Erzählung' ، e = a] نطقاً أن أؤثر فى الحياة الانفعالية لمريئتنا ['Erzieherin'] تأثيراً تربوياً ['erzieherisch'] ولكننى أخشى أن يكون لذلك فعل السم . أى أن 'erzefilisch' قد ركبت من 'erzäh' ثم 'erzieh' .^(١)

(١) [أى أن الكلمة المخترعة فى هذا الحلم erzefilisch قد تضمنت تكتيفاً حادقاً ، فهى قد

هذه التركيبات اللغوية الفاسدة للحلم تشبه غاية الشبه تلك التي نعرفها في البارانونيا وإن كانت لا تغيب أيضاً من الهستريا والأفكار القهرية . وإن الألاعب اللغوية للأطفال الذين يعاملون الكلمات أحياناً معاملة الموضوعات ويتدعون فوق ذلك لغات جديدة وصوراً نحوية مصطنعة هي المنبع الذي يصدر عنه هذا كله ، سواء أفي الحلم أم في الأعصاب النفسية .

إن تحليل الألفاظ التي لا معنى لها يصلح صلاحية خاصة لإظهارنا على ما يحققة عمل الحلم في مجال التكتيف . وليس للقارئ أن يستتج من قلة الأمثلة التي ذكرتها أن هذا الضرب من المادة نادر أو لا يعرض للملاحظة إلا نادراً . بل الأصدق هو أن هذه الأمثلة كثيرة الوقوع إلى مدى كبير ولكن توقف تحليل الحلم على العلاج النفسى كان من نتيجته أن أمثلة قليلة العدد جداً هي التي قد لوحظت ورويت وأن التحليلات المروية لهذه الأمثلة لا يدنو فهمها في العادة إلا للمتخصصين في دراسة مرضية الأعصاب . ولقد روى الدكتور فون كارينسكا (١٩١٤) مثالا من هذا النوع احتوى على هذا المركب اللفظى غير المفهوم « svingnum elvi » . وإنه بلجدير بنا أن نذكر هذه الحالات التي فيها تظهر في الحلم كلمة لا تخلو في ذاتها من المعنى ولكنها قد جردت مع ذلك من معناها الخاص وضمنت معاني متعددة يكون شأن هذه الكلمة منها شأن الكلمة التي « لا معنى لها » . مثال ذلك حلم رواه تاوسك (١٩١٣) عن طفل في العاشرة من عمره وردت فيه الكلمة «Kategorie» [مقولة] ، وكانت تعنى هنا أعضاء المرأة التناسلية ، كما كان الفعل الذي اشتق من هذه الكلمة «Kategoriieren» يعنى التبول .

وإذا وردت في الحلم جملة منطوقة متميزة صراحة - من حيث هي كذلك - من الأفكار ، فالقاعدة التي لا تتخلف هي أن الكلمة المنطوقة في الحلم إنما تستمد من كلمات منطوقة متذكرة في مادة الحلم . ومنطوق الكلام إما أن يحفظ كما هو أو يصدر معدلا بنقل طفيف . وكثيراً ما يؤلف الكلام في الحلم من أقوال متنوعة مستمدة من ذاكرة الحالم ، وفي هذه الأثناء يبقى النص هو هو ، ولكن تخلع عليه - إذا أمكن ذلك -

ركبت من الكلمات الآتية (١) erzaherisch (تربوى) + (٢) Erzieherin (مربية) +
 (٣) Erzählung (محادثة) + (٤) Syphilis - وهي أمم الكلمات الداخلة في تكوين الجملة المتضمنة في
 أفكار الحلم .]

معان متعددة ، أو معنى يختلف من معناه الأصلي . ولا يندر أن يستخدم الكلام الوارد في الحلم على سبيل الإشارة إلى الموقف الذي ورد فيه هذا الكلام لا أكثر (١) .

ب

عمل النقل

لا بد أن علاقة ثانية لا تقل في الراجح أهمية عن التكثيف قد تعجت لنا بينما كنا نجتمع الشواهد على هذا الأخير . لقد وسعنا أن نلاحظ أن العناصر التي تبرز في محتوى الحلم باعتبارها مقومات جوهرية له بعيدة كل البعد عن أن يكون لها مثل هذا الشأن في أفكار الحلم . ونستطيع أن نعكس هذه القضية فنخرج منها بنتيجة تتبعها : إن ما يتضح جلياً أنه المحتوى الجوهرى في أفكار الحلم لا يتمثل في الحلم بالضرورة . فللحلم - إن شئت - محور مختلف ، أى أن محتواه ينظم حول عناصر غير التي تشغل في أفكاره نقطة المركز . نخذ مثلاً حلم المبحث النبأى : من الواضح أن مداره كان العنصر « نبأى » وأما في أفكار الحلم فيتعلق الأمر بالتعقد والزراع اللذين ينشآن بين الزملاء من جراء التزاماتهم المهنية ، ثم يتعلق بعد ذلك بما ألام عليه من أننى أبذل في سبيل هواياتى تضحيات تفوق كل ما ينبغى ، ولم يكن العنصر « نبأى » يشغل أدنى محل في نواة أفكار الحلم هذه ، اللهم إلا أن يكون قد ارتبط بها ارتباطاً واهياً على سبيل التضاد من حيث أن علم النبات لم يكن يوماً بين العلوم التي أوترها . ثم حلم سافو الذى أتاه أحد مرضاى : النقطة الرئيسية في هذا الحلم هي الصعود والهبوط ، الأعلى والأسفل ، ولكن الحلم يعالج مخاطر العلاقات الجنسية بأشخاص محطوطى القدر ، بحيث يبدو أن عنصراً واحداً من

(١) [١٩٠٩ :] لقد وجدت منذ زمن غير بعيد الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة ، وكان ذلك في حالة شاب كان يشكو أفكاراً قهرية مع احتفاظه بكل وظائفه العقلية - وكانت بعد على نمو كبير - كاملة غير منقوصة : لم تكن الأقوال التي ترد في أحلام هذا الشاب أقوالاً سمعها أو قالها ، بل كانت توافق النص غير المحرف لأفكاره القهرية التي لم تكن تستطيع أن تنفذ إلى شعوره في اليقظة إلا في صورة محرفة . [الشاب المعنى هنا هو الذى عرفت حالته بين الحالات الخمس التي نشرها فرويد باسم " الرجل الفأر " (فرويد ١٩٠٩ د) .]

أفكار الحلم هو الذى قد نفذ إلى محتواه ، وإن يكن هذا العنصر قد مُطَّأ مطَّأً لاتناسب فيه . والحال كذلك فى حلم الخنفساوين : فموضوعه هو العلاقة بين الحياة الجنسية والقسوة ، وعامل القسوة يظهر يقيناً فى محتوى الحلم ، ولكنه يظهر فى سياق مختلف دون أن يذكر للحياة الجنسية ذكر ، أى متزوعاً من محيطه ، مصوراً - من ثم - فى صورة تنأى به عن الموضوع . كذلك فى حلم عمى حيث كانت اللحية الصفراء هى النقطة الرئيسة : لقد بدت هذه اللحية مجردة من كل معنى يربط بينها وبين رغبة العظمة التى عرفنا فيها لب أفكار الحلم . إن أمثال هذه الأحلام توحى إلى المرء بحيث أن « نقلاً » قد وقع . وحلم حقنة إرماً يبدو إذن مخالفاً لهذه الأمثلة تمام المخالفة ؛ إذ فيه أمكن العناصر المختلفة أن تحتفظ فى خلال تكوين الحلم بالمحل الذى كانت تشغله فى أفكار الحلم . وإن الكشف عن هذه العلاقة الجديدة بين أفكار الحلم ومحتواه - تلك العلاقة المتقلبة غاية التقلب فى اتجاهها أو معناها - لأمر يثير عجبنا للوهلة الأولى . فنحن إذا نظرنا فى عملية نفسية من عمليات الحياة السوية فوجدنا أن فكرة بعينها قد انتخبت من بين الكثيرات غيرها ثم اكتسبت حدة خاصة بالنسبة إلى الشعور ، رأينا فى ذلك عادة دليلاً على أن لهذه الفكرة قيمة نفسية عالية بنوع خاص - على أنها تلتقى درجة معينة من الاهتمام . ولكننا نرى الآن أن هذه القيمة التى لمختلف العناصر المتضمنة فى أفكار الحلم لا تُستبَقى فى خلال تكوينه أو لا يحسب لها حساب . فنحن لا نشك أقل شك فى أى عناصر أفكار الحلم تفوق ما عداها قيمة : فحكمتنا يثبتنا بذلك إنباء مباشراً . وهذه العناصر الجوهرية المحملة باهتمام شديد قد تعامل عند تكوين الحلم كما لو لم تكن تملك سوى قيمة ضئيلة ، وتحل محلها فى الحلم عناصر أخرى لا نشك فى أنها كانت ذات قيمة ضئيلة فى أفكار الحلم . وفى ذلك ما يوحى للوهلة الأولى أن الشدة النفسية^(١) التى لمختلف الأفكار لا يحسب لها حساب على الإطلاق حين يختار الحلم من هذه الأفكار ما يختار ، وإنما الشيء الوحيد الذى يحسب حسابه هو تعدد حتمها تعدداً ينقص أو يزيد ، أى أن المرء قد يظن أن ما يظهر فى الحلم من أفكار الحلم ليس خطيرها ، بل مكررها . بيد أن هذا الفرض لن يعيننا كثيراً على فهم تكوين الحلم ؛ فنحن لن نعقل أن عامل الحتم المضاعف

(١) علينا أن نفرق بالطبع بين الشدة النفسية أو القيمة أو درجة الأهمية التى لفكرة من الأفكار ، وبين الشدة الحسية ، أى شدة الصورة الماثلة أمامنا .

وعامل القيمة النفسية الخاصة يمكن أن يعمل في اتجاهين متباينين على اختيار العناصر التي تظهر في الحلم ، بل الأفكار التي هي أشد أفكار الحلم أهمية سوف تكون يقينا أكثرها أيضاً تردداً ، فهذا - كما من بؤرة - تشع أفكار الحلم المتفرقة . ومع هذا يستطيع الحلم أن يترك تلك العناصر المؤكدة توكيداً شديداً في ذاتها المؤيدة من جوانب متعددة غيرها ، وأن يلتقط محتواه عناصر أخرى لا تتحقق فيها سوى ثانية هاتين الخاصيتين .

ولكى نصل إلى حل هذه الصعوبة سوف نسترشد بانطباع آخر يوحى أيضاً بمحنا في الحتم المضاعف لمحتوى الحلم : ربما كان الكثيرون من القراء قد حكموا من تلقاء أنفسهم بأن الحتم المضاعف لعناصر الحلم ليس بالمكتشف الهام لأنه أمر واضح بذاته ؛ فنحن نأخذ في التحليل ابتداء من عناصر الحلم ثم ندون كل الخواطر التي تستدعيها هذه العناصر ، ولا عجب إذن حين نجد أن هذه العناصر على التحديد قد تكرر ورودها في المادة الفكرية المكتسبة من هذا الطريق تكراراً خاصاً . ولست أستطيع أن أقبل هذا الاعتراض ، ولكنني أسوق مع ذلك قولاً يلوح مشابهاً له : إن بين الأفكار التي يخرجه التحليل إلى الضوء أفكاراً كثيرة بعيدة بعداً نسبياً عن لب الحلم وتبدو مثل وسائل مصطنعة جعلت لهدف بعينه . وهذا الهدف يسهل تخمينته : فهذه الأفكار على التحقيق هي التي تعقد الصلة بين محتوى الحلم وأفكاره ، صلة كثيراً ما تكون مفروضة ، مفتعلة . ونحن إذا أسقطنا هذه العناصر من التحليل كانت النتيجة في كثير من الأحيان أن مقومات المحتوى الحلمى لا تفقد حتمها المضاعف وحسب ، بل هي قد تفقد كل حتم كاف يجيئها من أفكار الحلم . وهكذا نساق إلى تلك النتيجة : أن الحتم المتكرر الذي يفصل في اختيار ما يدخل الحلم ليس عاملاً أولياً في تكوين الحلم بل هو في الكثير من الأحيان نتاج ثانوى لقوة نفسية لا تزال نجهلها . ومع هذا فلا بد أن تكون لهذا الحتم أهمية خاصة في اختيار أى العناصر يدخل الحلم ، ما دمنا نلاحظ أن هذا الحتم يُجلب جلباً بجهد خاص حين لا ينبعث من أفكار الحلم بغير عون .

وهكذا نصبح قاب قوسين من تلك الفكرة : أن هناك قوة نفسية تفصح عن نفسها في أثناء عمل الحلم ، قوة تجرد العناصر ذات القيمة النفسية العالية من شدتها - هذا من جهة ، وهي - من جهة أخرى - تخلق بوساطة الحتم المضاعف من العناصر ذات القيمة النفسية المنخفضة قيماً جديدة ، تلج بعد ذلك محتوى الحلم . وإذا كان الأمر كذلك ،

كان معناه أن تحويلاً ونقلاً في الشدات النفسية التي لمختلف العناصر يقعان في أثناء تكوين الحلم ، وأن التباين بين نص محتوى الحلم ونص أفكار الحلم يأتي نتيجة لهذا التحويل وهذا النقل . والعملية التي نفترض وجودها على هذا النحو هي على التحقيق الجزء الجوهرى في عمل الحلم ، وهي تستحق اسم « النقل الحلمى » . فالنقل الحلمى والتكثيف الحلمى هما سيدا العمل اللذان يحق لنا أن نعزو تشكيل الحلم إلى نشاطهما هما في المقام الأول . وأعتقد أن من السهل علينا أيضاً أن نعرف ما هي تلك القوة النفسية التي تفسح عن نفسها في وقائع النقل الحلمى ؛ فنتيجة هذا النقل هي أن محتوى الحلم يفقد شبهه بلب أفكار الحلم ، وأن الحلم لا يعطينا بعد ذلك سوى صورة مشوهة من رغبة الحلم اللاشعورية . وتشويه الحلم ظاهرة عرفناها من قبل ، وقد كنا أرجعناها إلى الرقابة التي يمارسها أحد نظامين يعملان في الحياة الفكرية بإزاء النظام الآخر . والنقل الحلمى - على ذلك - وسيلة من الوسائل الرئيسة التي يتحقق بها هذا التشويه ؛ فإن « فاعل الفعل هو من انتفع منه » .^(١) ومن حقنا إذن أن نفترض أن النقل الحلمى يقع بتأثير من هاته الرقابة ، رقابة الدفاع الصادر عن داخل النفس^(٢) .

[Is fecit, cui profuit.] (١)

(٢) إننى أستطيع القول بأن رد تشويه الحلم إلى الرقابة هو جوهر نظريتي عن الأحلام ، ولهذا أورد هنا الجزء الأخير من قصة بعنوان « الحلم على غرار اليقظة » من كتاب « أحلام واقعي » تأليف لينكويس (فيينا، الطبعة الثانية ، ١٩٠٠) - وهو كتاب التفتيت فيه هذه السمة الرئيسة التي تتميز بها نظريتي . [أنظر الملحق المكتوب بتاريخ ١٩٠٩ بآخر الفصل الأول] :

« حول رجل له تلك الخاصة العجيبة ، وهي أنه لا يحلم أبداً أحلاماً تنافي المعقول . . . »

« إن تلك المهجة المأجدة التي خصصت بها : أن تحلم كما لو كنت مستيقظاً - هي ثمرة فضائلك وطبيعتك وإنصافك وعيبتك الحقيقية . والصفاة الخلقى الذي في طبيعتك هو الذي يميلني أفهم كل ما اتصل بك . »

« فأجاب الآخر : ولكننى - حين أمن النظر . أعتقد أن جميع الناس قد خلقوا على هذا للفرار ، وأنه ما من أحد تخلو أحلامه أبداً من المعنى ! فكل حلم يتذكره المرء تذكراً متميزاً بحيث يستطيع روايته من بعد ، أى كل حلم لم تلده الحسى ، هو دائماً حلم ذو معنى ، ومحال أن تكون الأشياء على خلاف ذلك ! فإفراق بينه التناقض لا يمكن أن يجتمع في كل واحد . فأما أن الزمان والمكان كثيراً ما يختلطان فذلك ما لا ينال من محتوى الحلم الحقيقي في شيء ؛ فكلاهما - ولا شك - عديم الخطر فيما يتعلق بجوهر الحلم . ثم نحن كثيراً ما نفعل مثل ذلك في اليقظة ذاتها : انظر إلى القصص وإلى تأليف الخيال المليئة بالجرأة الزائرة بالحكمة والتي لا يستطيع أن يقول

عنها : ذلك هراء لأنه مستحيل ، إلا رجل لا عقل له ! »

« فقال الصديق : لو قد استطاع المرء فقط أن يفسر الأحلام دائماً تفسيراً صحيحاً مثلاً فعلت بحلمى ! »

« تلك حل التأكيد ليسك بالمهمة السهلة . ولكن لا مزية في أن النجاح فيها ميسور بقليل من الانتباه من =

وأما السؤال : كيف تعمل معاً في تكوين الحلم عوامل النقل والتكثيف والحتم المضاعف أيها المسيطر وأيها الثانوي؟ فذلك ما ندخره لبحث مقبل . [أنظر مثلاً القسم ومن هذا الفصل .]
ولكننا نستطيع أن نكشف في الوقت الحاضر عن شرط ثان لا بد من أن تستوفيه العناصر التي تشق طريقها إلى الحلم : أن تغفل هذه العناصر من الرقابة التي تفرضها المقاومة . ومن الآن فصاعداً سنحسب للنقل الحلمى حسابه باعتباره واقعة لا يتطرق إليها الشك .

ج

وسائل الحلم في التصوير

إذا تركنا عاملي التكثيف والنقل اللذين رأينا نشاطهما في تحويل الأفكار الكامنة إلى محتوى الحلم الظاهر ، أوقفنا متابعة البحث على شرطين آخرين يؤثران في اختيار المادة التي تنفذ إلى الحلم تأثيراً لا شك فيه . ولكنني أود أولاً أن ألقى نظرة على العمليات التي تقع في أثناء القيام بتفسير الحلم ، مهما كان في ذلك من خطر الظهور بمظهر من لا يتقدم في طريقه . إنني لا أخفي على نفسي أن أقرب الطرق إلى إيضاح هذه العمليات وإلى النود عن جدارتها بالثقة في وجه النقد هو أن آخذ حتماً بعينه على سبيل المثال وأن أفصل تفسيره كما فعلت من قبل بحلم حقنة إرما في الفصل الثاني ، وأن أجمع بعدئذ ما يتكشف لي من أفكار الحلم ، ثم آخذ في بناء الحلم من جديد ابتداءً من هذه الأفكار ، أي أن أردف تحليل الحلم بتركيب يكمله . ولقد قمت بهذا العمل في أمثلة متعددة طلباً لفائدتي الخاصة ، ولكنني لا أستطيع أن أورد هنا هذه الأمثلة ، إذ تمنعني من سوق هذا البرهان اعتبارات تتعلق بطبيعة المادة النفسية المضمنة - وهي اعتبارات متنوعة ويسلم بوجاهتها كل امرئ منصف في التفكير . هذه الاعتبارات قد تدخلت في تحليل الأحلام إلى حد أقل ؛ فإن التحليل قد يظل ناقصاً ويستبقى مع ذلك قيمته ، بل هو قد يستبقها

حجائب الحالم . إنك تسألني : ولم الفشل في معظم الأحياء ؟ ذلك أنكم تدون دائماً يا معشر البشر كأنما كانتم شيء غيب في أحلامكم ، شيء غير عاف بمعنى أخص وأعمق ، خاصة مسترة ركبت في طبيعتكم ويصعب عليكم تأمها ، ولهذا غلب أن تجيء أحلامكم مجردة من المعقولة ، إن لم تناقضها . بيد أنها تخالف ذلك تمام المخالفة في حقيقتها العميقة ، لا بل ذلك في الحق ما لا يمكن أن يكون ؛ لأن الإنسان يظل دائماً هو هو سواء أفي الحلم أم في اليقظة . "

وإن لم ينفذ إلا في رقعة صغيرة من نسيج الحلم . فأما تركيب الحلم فلست أدري كيف يُصنعُ إلا إذا كان كاملاً . وما أستطيع أن أورد تركيباً كاملاً لبعض الأحلام إلا إذا كانت هذه الأحلام لأناس تجهلهم جمهرة القراء . ولكن إذا كان هذا الشرط لا يتحقق إلا في مرضى - وهم عصائبيون - فقد وجب على أن أرجئ هذا الجزء من الكلام عن الحلم إلى أن أتمكن - في موضع آخر غير هذا الكتاب - من المضي بتفسير سيكولوجية الأعصاب إلى الحد الذي يتم عنده الوصل بينها وبين موضوعنا الحاضر^(١) .

وقد علمتني محاولاتي في بناء الأحلام بتركيبها من أفكار الحلم أن المادة التي تنبعث في خلال التفسير تتفاوت في القيمة : فهناك جزء يتكون من أفكار الحلم الجوهرية ، أي تلك التي تحل محل الحلم تماماً وكانت كفيلاً أن تجيء بدله لولا وجود الرقابة على الحلم ، وأما الجزء الآخر فهو في العادة خليق بأن يوصف بكونه ذا أهمية ضئيلة . ولسنا نأخذ بالقضية القائلة إن جميع الأفكار التي من هذا النوع الثاني قد اشتركت في تكوين الحلم [أنظر ص ٢٩٤] ، بل لقد توجد بينها على العكس مستدعيات تتعلق بخبرات وقعت بعد الحلم ، بين لحظي الحلم والتفسير . هذا الجزء يشمل جميع الطرق الرابطة التي أدت من المحتوى الظاهر إلى الأفكار الكامنة ، كما يشتمل على المستدعيات المتوسطة المتدرجة التي توصلنا من خلالها - ونحن نقوم بالتفسير - إلى معرفة تلك الطرق الرابطة .

ولسنا نوجه اهتمامنا في هذا الموضوع إلا إلى أفكار الحلم الجوهرية وحدها . هذه الأفكار تتكشف في معظم الأحيان في صورة مجموعة من الأفكار والذكريات ذات بنية متشابكة أقصى التشابك ، حاصلة على كل الخواص التي نعرفها لعملياتنا الفكرية في حياة اليقظة . وهي قد تكون في أحيان ليست بالنادرة سلسلات من الفكر تصدر عن أكثر من مركز واحد ، وإن تماست في بعض المواضع . وتكاد كل سلسلة من هذه أن تقترن دائماً بمقابلها المناقض لها : يرتبط بها من طريق التداعي بالتباين . والأجزاء المختلفة من هذا البناء المعقد تتداخل بالطبع في علاقات منطقية أو لغوية تتنوع غاية التنوع : ففيها المتقدم والمتأخر وفيها الاستطراد والإيضاح ، فيها الشرط

(١) لقد نشرت منذ ذلك الحين في " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ١٩٠٥ هـ) تحليلاً وتركيباً كاملاً للحلمين . ومن الواجب أن نشير هنا إلى التحليل الذي نشره أوتو رانك بعنوان : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [رانك ١٩١٠] باعتباره أتم تفسير نعرفه لحلم ذي طول يعتد به .

والتدليل والمناقضة . فإذا ما خضعت كتلة أفكار الحلم هذه للضغط المتولد عن عمل الحلم ، يدير أجزاءها ويفتتها ثم يلحمها فيما يشبه الثلج المنذفع ، ثار في أنفسنا السؤال عما آلت إليه هاته العلاقات التي كانت حتى الساعة هيكل البناء . أى تصوير تلقاه في الحلم « إذا » و « لأن » ، أو « مثل » و « رغم » و « إما - أو » وسائر الأحرف التي لا تفهم بغيرها عبارة أو خطاب ؟

لا مفر من أن نجيب في بادئ الأمر بأن الحلم لا يملك أى وسيلة يصور بها هذه العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم . فهو في معظم الأحيان يغفل كل هذه الحروف ولا يستبقي من الأفكار سوى محتواها الثنى بصوغ منه صوغه . وعلى التفسير أن يسترجع ما أعلمه عمل الحلم من الروابط المنطقية .

وإذا كانت هذه القدرة على التعبير تعوز الحلم ، فهي لا بد راجعة إلى طبيعة المادة النفسية التي تصنع منها الأحلام . ويعرف هذان الفنان التشكيليان : التصوير والنحت - مثل هذا التعقيد ، بالقياس إلى الشعر الذي يسعه استعمال الكلم . وعلّة العجز هنا أيضاً طبيعة المادة التي يجهد هذان الفنان في الإعراب عن شيء ما بتشكيلها . ولقد جهد فن التصوير - قبل أن يصل إلى الأحكام التي يعمل اليوم بمقتضاها - في تدليل هذا العائق . فنحن نرى الأشخاص في الرسوم القديمة وقد تعلقت بأفواههم شرائط خطت عليها أحرف تقول ما قد يشس الفنان من الإعراب عنه في صور .

وربما ظهر في هذا الموضوع اعتراض يتازع فيما ننكره من قدرة الحلم على تصوير العلاقات المنطقية : فهناك أحلام يقوم فيها الحلم بعمليات عقلية معقدة غاية التعقيد ، فيبرهن على القضية أو ينقضها أو يسفها أو يقارنها بغيرها ، كشأنه في اليقظة . وهذا صحيح ، ولكن هنا أيضاً يندج المظهر ، فلو أننا مضينا في تفسير أمثال هذه الأحلام لعلمنا أن هذا كله إنما هو مادة من مادة الحلم وليس تصويراً لعمل عقلي يتأدى في الحلم .

وما يعيد الحلم بتفكيره الظاهر هذا سوى محتوى أفكار الحلم لا علاقاتها المتبادلة التي يقوم التفكير في التزامها . وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك [ص ٤٤٠ وما بعدها] ، ولكن أسهل ما نستطيع التثبت منه في هذا الموضوع هو أن كل كلام يعرض في الحلم منصوباً صراحة على أنه كذلك إنما هو إعادة محرفة أو محرفة قليلاً لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم . وفي كثير من الأحيان لا يخرج الكلام المقول في الحلم عن أن يكون للماعاً

إلى موقف متضمن في أفكار الحلم ، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف .
[أنظر ص ٤١٩ وما بعدها .]

بيد أنني لن أنكر مع ذلك أن التفكير النقدي الذي لا يقف عند مجرد تكرار المادة
المحتواة في أفكار الحلم يأخذ مع ذلك بنصيب في تكوين الحلم . ولن أجد بدا من ألقى
الضوء في نهاية المناقشة الحاضرة على تأثير هذا العامل . وعندئذ سوف يتضح أن هذا
النشاط الفكري لا يرد إلى أفكار الحلم بل يصدر عن الحلم ذاته بعد أن يكون
قد اكتمل صنعه بمعنى من المعاني . [انظر القسم الأخير من هذا الفصل .]

وإلى أن يتضح لنا ذلك نقول إذن : إن العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم
لا تحظى في الحلم بأى تصوير مستقل . فإذا عرض في الحلم تناقض - مثلاً - فهو إما
تناقض من جانب الحلم وإما تناقض في فكرة من أفكار الحلم . ولا يكون التناقض في
الحلم مصوراً لتناقض بين أفكار الحلم إلا بطريقة غير مباشرة إلى أبعد حد .

ولكن كما أن فن التصوير قد أفلح أخيراً في أن يعرب على الأقل عن مقاصد الكلم
عند من يصور من الناس : حب أو وعيد أو تحذير أو غيره ، وذلك بطريقة أخرى
عدا الشرائط المدلاة ، كذلك أمكن الحلم أن يدخل في حسابه بعض العلاقات المنطقية
بين أفكاره ، وذلك بتعديل طريقة التصوير المميزة للأحلام تعديلاً ملائماً . وتدلل التجربة
على أن الأحلام المختلفة تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا الباب ؛ فبينما يغفل حلم الترتيب
المنطقي الذي لمادته إغفالاً تاماً ، يعمل حلم آخر على الإبانة عن هذا الترتيب إبانة
كاملة بقدر المستطاع . وفي أثناء ذلك يبعد الحلم عن النص المراد صوغه بعدا ينقص أو
يزيد . هذا ، وتختلف الأحلام كذلك في مسلكها تجاه الترتيب الزمني لأفكار الحلم ،
إذا كان مثل هذا الترتيب قد قام في الالاشعور (كما في حلم حقنة إرما ، مثلاً) .
فما هي الوسائل التي يتمكن بها الحلم من الإبانة عما تتضمنه مادته من علاقات
صعبة التصوير ؟ سأحاول أن أحصى هذه الوسائل واحدة فواحدة .

الحلم أولاً يدخل في حسابه جملة الرباط القائم من غير أدنى شك بين أجزاء أفكار
الحلم جميعها ، وذلك بتوحيد هذه المادة في سياق يجمعها في صورة موقف أو حدث :
لأنه يعيد الرباط المنطقي في صورة المزامنة . وهو في ذلك يحنو حنو الرسام الذي يرسم
صورة مدرسة أئينا أو البرناس ، فيحشد في الصورة جميع الفلاسفة والشعراء وما اجتمعوا

قط في رواق واحد أو على قمة واحدة . ولكنهم مع ذلك يؤلفون يقينا صحة واحدة بالمعنى التصوري المجرد .

والحلم يتابع هذا المنهج في التصوير حتى الجزئيات . فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كل من الآخر كان ذلك ضامنا لوجود علاقة وثيقة بنوع خاص بين مقابلتهما في أفكار الحلم . فالأمر هنا أشبه به في نظامنا الكتابي : فأنت إذا كتبت « أ ب » كان معنى ذلك أن هذين الحرفين يجب أن يقرأ مقطعا واحداً ، فإن تركت فاصلا بينهما كان معناه أن « أ » هي الحرف الأخير من كلمة و « ب » الأول في تاليها . وعلى هذا الغرار تجيء تجمعات الحلم ، فهي لا تتكون عفواً من أجزاء مشتتة في مادة الحلم ، بل من أجزاء يربط بينها في أفكار الحلم أيضاً رباط وثيق .

فأما علاقات العلية فيملك الحلم طريقتين في تصويرها ، هما في جوهرهما طريقة واحدة . فعندما تجرى أفكار الحلم على هذه الصورة : « وإذا كان الأمر كذا وكذا ، فقد لزم أن يقع هذا وذاك » فأشيع طرق التصوير هي أن تدرج جملة الشرط في حلم تمهيدى يتلوه جواب الشرط في الحلم الرئيس . ومن الممكن - إذا لم أكن أخطأت التفسير - أن ينقلب هذا الوضع . ولكن الجزء الأوسع في الحلم يقابل دائماً جملة جواب الشرط .

وقد أتت إحدى مريضاتي بمثال بديع على هذه الطريقة في تصوير علاقة العلية ، وذلك في حلم سوف أوردته كاملاً فيما بعد . [ص ٣٥٥] . كان الحلم يتكون من مقدمة وجزء ومن حلم مسهب دار إلى درجة ملحوظة حول موضوع بعينه ، وهو يستحق أن يسمى باسم : لغة الأزهار . وكان الحلم التمهيدى كما يلي : تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادمها وتؤنّبها لأنها لما تجهزها لها « قسمة تؤكل » تلمح في أثناء ذلك عدداً كبيراً جداً من أوعية المطبخ العامية الطراز ، قلبت على الأرض وقد رصت بعضها فوق بعض أكواماً حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء . تذهب الخادمان في طلب بعض الماء ، وتضطران إلى الخوض في نهر ارتفع حتى بلغ المنزل أو فناءه .

ثم تبع ذلك الحلم الرئيس ، وكان يبدأ على هذا النحو : تهبط من مرتفع عظيم فوق حواجز ركبت بطريقة غريبة وتشمر بالسرور لأن ثوبها لم يشبك بأى منها في خلال ذلك الهبوط . . . الخ . إن الحلم التمهيدى يشير إلى منزل والدى هذه السيدة . وأما الكلمات التي ألفت بها في المطبخ فلا شك في أن المريضة قد سمعت أمها ترددها مراراً . وأكوام أوعية

المطبخ مستمدة من دكان متواضع لبيع الأواني بأسفل منزلم . فأما الجزء الثاني من هذا الحلم التمهيدى فيشير إلى والد الحاملة ، وكان لا يكف عن مطاردة الخادما ، إلى أن أصابه في أثناء الفيضان مرض أودى به - وكان منزلم يقع على ضفة النهر . فالفكرة المسترة وراء الحلم التمهيدى يمكن صوغها على هذا النحو : « وإذ كنت ولدت في هذا المنزل ، في هذا الجو الوضع المكتئب . . . والحلم الرئيس يرجع فيتناول هذه الفكرة عينها ويصوغها من طريق تحقيق الرغبة في الصورة الآتية : « إننى أنحدر من سلالة عالية . » والقراءة الصحيحة للحلم هي إذن : « وإذ كنت أنتمى إلى هذا الأصل الوضع ، فقد كانت حياتى كيت وكيت . »

وانقسام الحلم جزئين متفاوتين في الطول لا يدل في كل حالة - بقدر ما أعلم - على وجود علاقة عليية بين الفكرتين المتضمنتين في هذين الجزئين . فكثيراً ما يبدو الأمر كأن كلا الحلمين يعالج ذات المادة من وجهة نظر مختلفة ، وتلك هي الحال يقينا حين ترد في الليلة الواحدة سلسلة من الأحلام تنهى بالإمضاء ؛ فهذه الأحلام مراحل تقب الحاجة الجنسية من خلالها رويداً رويداً إلى تعبير أصرح . أو قد ينبعث كلا الحلمين من مركز خاص به في مادة الحلم ثم يقع بين الحلمين تداخل في المحتوى بحيث نرى ما كان إشارة عابرة في أحدهما وقد صار مركز الحلم الآخر ، والعكس . بيد أن هناك - مهما يكن - حالات يدل فيها بالفعل انشقاق الحلم شقين - تمهيد قصير وملحق طويل - على وجود رابطة عليية بين الجزئين . وأما المنهج الثانى في تصوير علاقة العلية فيستخدم حين تكون المادة أقل اتساعاً . وهو يتلخص في أن ترد في الحلم صورة - سواء لشخص أم لشيء - ثم تتحول إلى أخرى . والقول بوجود العلاقة العلية هنا لا يكون قولاً جدياً إلا حيث نرى هذا التحول في صورة الحلم يدور أمام ناظرنا ، وليس يكفى فيه أن نلاحظ أن شيئاً ما قد جاء في موضع شيء آخر كان حاضراً منذ هنية . ولقد قلت : إن هذين المنهجين في تصوير علاقة العلية هما في الحقيقة منهج واحد . وذلك لأن العلية تصور في كليهما بالتعاقب : بتعاقب الأحلام طوراً ، وبتحويل إحدى الصور إلى غيرها تحويلاً مباشراً طوراً آخر . ولكن الحق الصراح هو أن علاقة العلية لا تصور على الإطلاق في الغالبية العظمى من الحالات ، بل تضيع وسط تعاقب العناصر تعاقباً لا بد منه حتى في عملية الحلم .

وأما علاقة « إما كذا أو كذا » فلا يستطيع الحلم تصويرها على الإطلاق، بل يدرج الحلم كلا الاحتمالين في سياق واحد كما لو كانا يتساويان في الجواز . وحلم حقته إرما يرينا مثالا ماثورا على ذلك . فقد كان من الحلى أن الأفكار الكامنة لهذا الحلم كانت الآتية : لا ذنب لى إذا كانت آلام إرما لا تزال مستمرة ؛ فالذنب راجع إما إلى رفضها الأخذ بحلى ، أو إلى أنها تعيش فى وضع جنسى لا يساعد على البرء ولا أستطيع تغييره ، أو إلى أن طبيعة آلامها هذه ليست هسترية على الإطلاق بل عضوية . ولكن الحلم يحقق جميع هذه الاحتمالات التى يكاد يمنع بعضها بعضاً ، ولا يجد مانعاً من أن يضيف إليها احتمالاً رابعاً أوحته رغبة الحلم^(١) . ثم لما فرغت من التفسير أدرجت « إما » و « أو » فى سياق أفكار الحلم .

غير أنه إذا شعر الراوى وهو يستذكر حلمه بحيرة بين « إما » و « إما » كأن يقول : « كان المكان إما حديقة وإما غرفة استقبال » فقابل هذا الاحتمال فى أفكار الحلم ليس احتمالاً مثلهما بل واو عطف ، أى إضافة وحسب . فنحن فى معظم الأحيان نستخدم « إما كذا وإما كذا » لكى نصف بها عنصراً من عناصر الحلم اتسم بطابع من الغموض يسهل مع ذلك تبديده ؛ فالقاعدة التفسيرية فى مثل هذه الحالة هى الآتية : أن نعامل كلا الاحتمالين الظاهرين كما لو كانا يتساويان صحة ، وأن نربط كلا بالآخر بوساطة واو العطف . مثال ذلك أننى ظلمت زمناً طويلاً أنتظر سدى عنوان صديق لى كان مسافراً فى إيطاليا ، ثم حلمت بأنى أتلقى رسالة برقية تخبرنى بهذا العنوان . لقد رأيت العنوان مطبوعاً على الرسالة باللون الأزرق ، وكانت الكلمة الأولى منه مبهمة ؛ فهى :

ربما كانت Via
أو Villa
أو حتى Casa

إن للكلمة الثانية جرساً كجرس الأسماء الإيطالية ، وهى تذكرنى بمناقشاتي فى الاشتقاقات اللغوية مع هذا الصديق ، كما أنها تعرب عن غضبى منه إذ مكث هذا الزمن الطويل يحتفظ بعنوانه سر^(٢) . وأما الكلمة الأولى فقد ظهر أن كل احتمال من

(١) [أن يكون الذنب ذنب أوتو بمحفنته المتسخة .]

(٢) [سر = Segreto فى الإيطالية . ويذكر فرويد هذا الحلم مع مزيد من التفصيل فى خطاب إلى

فليس - وهو الصديق المشار إليه بتاريخ ٢٨ أبريل ١٧٩٨ . أنظر الخطاب ٦٠ فى فرويد ١٩٥٠ أ .]

احتمالاتها كان نقطة ابتداء تفرعت عنها سلسلة من الأفكار ، نقطة قائمة بذاتها مساوية للآخرين في صوابها .

وقد حلمت في خلال الليلة التي سبقت تشييع جنازة والدى بلائحة أو لافتة مطبوعة أشبه ما تكون باللافتات التي تحرم التدخين في حجرات الانتظار بمحطات السكة الحديدية ، وكتب على هذه اللافتة : المرجو أن تغلق كلا العينين
أو

المرجو أن تغلق إحدى العينين
وهو ما أكتبه عادة في الصورة الآتية :

المرجو أن تغلق $\frac{\text{كلا}}{\text{إحدى}}$ العينين

إن لكلا هذين النصين معناه المستقل ، وكلاهما يضرب في اتجاه مستقل حين نشرع في تفسير الحلم . فقد كنت اخترت لجنازة والدى أبسط الطقوس الممكنة ؛ لأنني كنت أعلم رأى الراحل في أمثال هذه المراسيم . ولكن هذه البساطة الطهرية^(١) لم ترض سائر أعضاء الأسرة : فقد رأوا في ذلك مجلبة للعار بين المشيعين . ومن ثم جاء في إحدى القرائتين : « أن تغمض إحدى العينين » أي « أن تغض الطرف » . فالإبهام الذي أعربت عنه « إما - وإما - » يسهل تفسيره هنا بنوع خاص : فعمل الحلم أخفق في أن يجد لفكرتي الحلم صيغة لفظية موحدة ولكنها مزدوجة المعنى ، ولهذا انشقت في محتوى الحلم الظاهر سلسلة الفكر الرئيسي .

هذا ، وهناك حالات قليلة تحل فيها صعوبة تصوير الاحتمال بقسمة الحلم قسمين متساويين في الطول .

وأما مسلك الحلم بازاء مقولة التضاد والتناقض فسلوك يسترعى النظر إلى أبعد مدى : فالحلم لا يزيد على أن يغفل هذه المقولة إغفالا ، أي أنه لا يعرف شيئا اسمه « كلا » . فهو يبدى إثارة خاصة نحو إدماج الأضداد في كل واحد أو تصويرها على أنها شيء واحد . وهو - فوق ذلك - يستبيح لنفسه أن يصور أي عنصر من عناصره بوساطة ضده

(١) [الطهريون لفظ أطلق على طائفة بروتستانية تتمسك بحرف الكتب المقلمة تمسكا شديدا ، ثم صار

يطلق بوجه عام على المترجمين .]

المرغوب فيه؛ بحيث يعجز المرء للوهلة الأولى - إذا ورد في الحلم عنصر يقبل الضد - عن أن يعرف ما إذا كانت أفكار الحلم قد حوت هذا العنصر في صورة موجبة أم سالبة^(١). وفي أحد الأحلام التي رويناها أخيراً (وهو حلم فسرنا جزأه الأول: «إذ كنت أنتمى إلى مثل هذا الأصل...») رأيت الحاملة نفسها تهبط فوق الحواجز وقد حملت في يدها غصناً مزدهراً. ولقد خطر لها في صدد هذه الصورة كيف يحمل الملك عوداً من الزنبق في يده في صور البشارة إلى مريم (وكانت هي تدعى مريم)، ثم كيف تسير العذارى في موكب عيد المسيح^(٢) بيننا ازدانت الطرق بالغصون الخضراء. وهكذا يشير الغصن المزدهر في الحلم إلى الطهارة الجنسية، ذلك لا ريب فيه. بيد أن الغصن قد غطته في الحلم أزهار حمراء تشبه الكاميليا، ولقد مضى الحلم حتى بلغت الحاملة نهاية مسيرها وإذا الزهر قد ذوى معظمه أو كاد، ثم تجيء بعد ذلك إشارات إلى الطمث ما في فهمها من شك. فذات الغصن الذي تحمله الحاملة مثل زنبقة تحملها فتاة طاهرة يلمح في الوقت عينه إلى عادة الكاميليا؛ فنحن نعرف عن هذه أنها كانت تحمل كاميليا بيضاء اللون، إلا وقت الطمث فتحمل حمراء. وذات الغصن المزدهر يمثل الطهارة الجنسية ويمثل ضدها (أنظر «أزهار العذراء» في أغنية الطحانة عند جوته)^(٣). وذات الحلم الذي يعرب عن فرحها لأنها قد نجحت في المسير عبر الحياة دون أن تفقد بكارتها يتركنا نلمح في بعض مواضعه (مثل ذبول الأزهار) وميض أفكار أخرى مضادة، فحواها استذئاب النفس لأنها ارتكبت أنواعاً من الآثام في حق النقاوة الجنسية (أى ارتكبتها في

(١) لقد أدهشني أن أعلم من مؤلف كتبه ك. آبل "تضاد المعنى في الكلمات القديمة" (١٨٨٤) (وانظر تعليق عليه، ١٩١٠ هـ) - أدهشني أن أعلم تلك الواقعة التي أريها لغويين آخرون: أن أعظم اللغات قدما تسلك في هذا الصدد مسلكاً يشبه مسلك الحلم تمام الشبه. فهذه اللغات تملك في مبدأ الأمر كلمة واحدة تعرب بها عن طرفين متضادين تتدرج بينهما سلسلة من الكيفيات أو الأفعال (مثل: قوى - ضعيف، عجوز - حدث، بعيد - قريب، يربط - يخل)، ولا تصل إلى حدود مائة للأضداد إلا فيما بعد، بإحداث تغيير طفيف في الأصل المشترك. ويبرهن آبل على هذه الخاصية استناداً إلى اللغة المصرية القديمة بنوع خاص. ولكننا نستطيع أن نتيقن آثاراً واضحة لهذا التطور عينه في اللغات السامية والإنلوجرمانية.

(٢) [عيد يفتح في الخميس الثاني بعد عيد المنصرة وفيه يخرج المسيحيون في موكب من كنيستهم ثم يطوفون بشوارع البلدة ويعود الموكب إلى الكنيسة.]

(٣) [Der Mullerin Verrath أو "خيانة الطحانة" قصة منظومة لجوته، جاء فيها أن رجلاً قضى ليلة غرام - أو ما ظنه كذلك - مع طحانة جميلة، فلما أصبح الصباح باغته أهلها بتدبير منها لكي يسألوه الحساب عن "أزهار العذراء".]

طفولتها) . ولقد أمكن عند تحليل الحلم أن نفرق تفرقة واضحة بين هاتين السلسلتين الفكريتين اللتين بدت أولاهما - تلك التي ترفه - طافية على السطح ، في حين شغلت الثانية - تلك التي تؤنب - طبقة أعمق ، واللتين صور ما بينهما من عناصر متشابهة وإن تكن متقابلة بوساطة ذات العناصر في محتوى الحلم الظاهر .

غير أن هناك علاقة منطقية واحدة تعين ميكانيكية تكوين الحلم على تصويرها إلى أبعد حد ، تلك هي علاقة التشابه أو التوافق أو التقارب ، العلاقة التي يعرب عنها قولنا : « مثل كذا تماماً » . إن هذه العلاقة تجد من تعدد الوسائل في تصويرها ما لا تجده أى علاقة أخرى. (١) فحالات « مثل » أو نظائرها المتضمنة من قبل في مادة الحلم هي الأساس الأول الذى يبنى عليه كل تكوين الحلم ، كما أن جزءاً لا يستهان به من عمل الحلم يقوم في خلق نظائر جديدة من هذا القبيل إذا كانت تلك الموجودة من قبل لا تستطيع النفاذ إلى الحلم بسبب الرقابة . وإن تصوير علاقة التشابه ليسند نزوع عمل الحلم إلى التكثيف .

فالتشابه والتوافق والحصول على محمولات مشتركة ، كل هذه يصورها الحلم بأن يدمج طرفى العلاقة في وحدة إما أن تكون متضمنة من قبل في مادة الحلم وإما تخلق خلقاً جديداً . والاحتمال الأول تجوز تسميته تعييناً ، وأما الاحتمال الثانى فنسميه مزجاً . ويستخدم التعيين حين يتعلق الأمر بالأشخاص ، وأما المزج فحين تكون مادة التوحيد هي الأشياء - وإن جاز أن يقع المزج بين الأشخاص كذلك ، كما أن الأماكن قد تعامل في كثير من الأحيان معاملة الأشخاص .

ونجد في التعيين أن شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يربط بينهم جامع مشترك هو الذى يظهر دون غيره في محتوى الحلم ، بينما يبدو الشخص الثانى أو الأشخاص المتبقون كأنما قمعوا في الحلم (٢) . ولكن هذا الشخص الذى يحجب الآخرين يظهر في الحلم بكل العلاقات والمواقف التي تصدق عليه وعلى سائر من يحجب . وأما في المزج - حين

(١) أنظر ملاحظة أرسطو في المواهب التي تلزم من يفسر الأحلام [أنظر ما سبق ص ١٢٧ ٢] .

(٢) [فكأن هؤلاء الأشخاص قد عينوا بالشخص الظاهر في الحلم، أى أخذوا صورته وجعلوا إياه وعرفوا به . ويلاحظ ستراشى بحق أن التعيين هنا غير التعيين الذى تحدث عنه فرويد من قبل في ص ١٧٢ . فالتعيين هنا عملية من العمليات التي يجرها المرء على شخصين - أو على شيئين أحياناً - أو أكثر . بينما التمييز هناك هو العملية أو =

يمتد المزج إلى الأشخاص - فتجىء صورة الحلم حاوية على ملامح من هذا الشخص ولامح من ذلك ، ولكنها ليست باللامح المشتركة بينهما ، بحيث يؤدي التوحيد بين هذه الملامح إلى ظهور وحدة جديدة ، أى شخص مركب . وقد تقع عملية المزج على أنحاء مختلفة : فالشخص الظاهر في الحلم قد يحمل اسم أحد الشخصين المرتبطين به - وحينئذ نعلم أن المعنى هو هذا الشخص أو ذلك على نحو مماثل كل المماثلة نحو معرفتنا في اليقظة - بينما تكون ملامحه المرئية هي ملامح الشخص الآخر . أو قد تتركب صورة الحلم المرئية من ملامح يرجع بعضها في الحقيقة إلى أحد الشخصين ويرجع بعضها الآخر إلى الشخص الآخر . أو قد لا يشارك الشخص الثانى في صورة الحلم بملامحه المرئية بل بالحركات التى نظهره بها أو الكلمات التى نجعله يفوه بها أو المواقف التى نضعه فيها - وفى هذا النوع الأخير من المزج يأخذ الفرق بين التعيين والمزج في الزوال . غير أنه قد يحدث أيضاً أن يفشل الحلم في تكوين مثل هذا الشخص المركب ، وفى هذه الحالة نجد مشهد الحلم ينسب إلى أحد الشخصين بينما لا يخطر الثانى - وهو في العادة الشخص الأهم - في هذا المشهد إلا باعتباره حاضراً وحسب . ويصف الحلم هذا الوضع بأن يقول مثلاً : كانت أمى أيضاً هناك (شتيكل) . ومثل هذا العنصر في محتوى الحلم تجوز إذن مقارنته بمخصّصات الكتابة المهيروغليفية التى لا يراد بها أن تنطق ، وإنما تجعل لكى توضح سائر العلامات (١) .

والعنصر المشترك الذى يبرر توحيد كلا الشخصين أو - بالأحرى - يسببه قد يتمثل في الحلم وقد يغيب . ولكن القاعدة هي أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركبة إنما يستخدم على التحقيق من أجل تصوير هذا العنصر المشترك . فأنا بدل أن أقول : « إن أ يعاديني وكذلك ب » أبتدع في الحلم شخصاً مركباً من أ و ب ، أو أتخيل أ وهو يعمل عملاً من نوع يخالف ما عرف عنه ويتميز به ب . والشخص الذى أحصل عليه

العلاقة التى بها وفيها يتكون الأنا . فالفرق بين المعنيين على اشتراك اللفظ قد لا يعدله - إذا جاز لنا اللجوء إلى مماثلة مستمدة من مجال الفلسفة - سوى الفرق بين " الفكر " في الكوجيتو الديكاتى و " الفكر " بمعنى هذه العملية الفكرية أو تلك ، كما يكون في حل مسألة حساب أو شطرنج أو غيره . وربما كان في قولنا هناك : " التعيين الذاقى " - بينما نكتفى هنا بأن نقول : " التعيين " وحسب - ما يشير إلى هذا الفارق أو ينبه إليه . [

(١) (Determinativum) - ترجمناه بالمخصّصات نقلاً عن الدكتور عبد المحسن بكير في كتابه

" اللغة المصرية القديمة في عصرها الذهبي " . [

بهذه الطريقة أو تلك يخطر لي في الحلم في سياق جديد ما ، وإن كونه يومي إلى أ و ب على السواء ليخول لي الحق في أن أضع ما هو مشترك بين هذين - وأعني به موقفهما العدائي نحوي - في موضعه المناسب من تفسير الحلم . وهذه الطريقة يتسنى لي في كثير من الأحيان أن أحقق تكثيفاً خارقاً في محتوى الحلم : فأنا أستطيع أن أجنب نفسى مؤنة التصوير المباشر لما قد يرتبط بأحد الأشخاص من ملابسات شديدة التعقيد إذا وجدت شخصاً آخر يشاركه بعض هذه الملابس . ومن السهل كذلك أن نرى كم ينفع هذا التصوير في مداورة الرقابة الناجمة عن المقاومة ، هذه الرقابة التي تفرض على الحلم شروطاً من الصعوبة بمكان : فالرقابة قد تكون موجهة إلى أفكار معينة ترتبط في مادة الحلم بشخص دون غيره ، وأنا لذلك أتمس شخصاً ثانياً يرتبط هو الآخر بهذه المادة المعترض عليها ، ولكن بجزء منها ليس غير ، وعندئذ يخول لي هذا التماس القائم بينهما في تلك النقطة الخاضعة للرقابة أن أكون من كليهما شخصاً مزيجاً يُخصَّصُ بما في كليهما من سمات لاخطر منها ، وهذا الشخص المتولد عن المزج أو عن التعيين يدرج الآن في محتوى الحلم حراماً من الرقابة ، بينما أكون من جانبي قد أرضيت هذه الرقابة بإعمال التكثيف . وحيثما يصور في الحلم عنصر مشترك بين شخصين ، كان ذلك في العادة بمثابة إشارة تدعوننا إلى أن نبحث عن عنصر مشترك آخر مستتر ، حالت الرقابة دون تصويره . أى أن ذلك دليل على أن تقلا قد وقع فيما يتصل بالعنصر المشترك لكي يتيسر تصويره . وعلى ذلك إذا تراءى لي في الحلم شخص مزيج يحمل سمة مشتركة خالية من الوزن ، حملنى ذلك على أن أستنتج أن ههنا عنصراً آخر مشتركاً بعيداً كل البعد عن أن يكون على هذا الخلو من القيمة .

وبذلك يخدم التعيين وتكوين الأشخاص المزيجية أهدافاً متنوعة في الحلم : أولها تصوير عنصر مشترك بين شخصين ، وثانيهما تصوير عنصر مشترك أصابه النقل ، ثم الثالث وهو التعبير عن شركة مرغوب فيها ليس غير . وإذا كانت الرغبة في أن يشترك شخصان في وجه من الوجوه توافق في أحيان كثيرة الرغبة في مبادلة الواحد بالآخر ، كانت هذه العلاقة الأخيرة أيضاً يُعَرَّبُ عنها في الحلم بوساطة التعيين : ففي حلم حقنة إرما أود لو استبدلت بإرما المريضة الأخرى ، أى أننى كنت أود لو قد كانت هذه الأخرى مريضتى مثلما كانت إرما ، والحلم يحسب حساب هذه الرغبة حين يرينى

شخصاً اسمه إرما ولكنه يفحص في وضع لم يتفق لى قط أن رأيت فيه غير المرأة الأخرى .
وفي حلم عمى نصادف تبديلاً من هذا القبيل صار هو النقطة الرئيسة في الحلم : فأنا أعين
نفسى بالوزير حين أبدى نحو زميلى مسلماً وحكماً لا يفضلان مسلك الوزير وحكمه في
شئء [أنظر ص ٢١٣] .

ولقد علمتني خبرة لم أجد لها استثناء أن كل حلم يدور حول الحلم نفسه . فالأحلام
على أنانية مطلقة^(١) ، وإذا لم يظهر أناى في محتوى الحلم بل ظهر شخص غريب ،
جاز لى أن أفترض وأنا مطمئن أن أناى يكمن مستراً وراء ذلك الشخص الآخر بوساطة
التعيين ، وجاز لى أن أدرج أناى في السياق . ويحدث في أحيان أخرى – حين يظهر
أناى في الحلم – أن ينبثق الموقف الذى يكون فيه ظهوره أن شخصاً آخر ينجح وراء
هذا الأنا بوساطة التعيين كذلك . وعندئذ يجب على الانتباه عند تفسير الحلم إلى أن أحول
إلى أنا وجه الاشتراك المستر المنسوب إلى هذا الشخص . وهناك كذلك أحلام يظهر
فيها أناى بجانب أشخاص آخرين يتضح مرة أخرى حين نحل التعيين أنهم أناى . ولا بد
في هذه الحالة من أن تكون تلك التعيينات قد مكنتني من أن أجمع بين أناى وبين
تصورات بعينها كانت الرقابة تحول دون قبولها . وهكذا يكون في مستطاعى أن أصور
أناى في الحلم مرات ومرات ، تصويراً مباشراً تارة ، وبوساطة تعيينه بأشخاص غرباء تارة
أخرى . وتعدد أمثال هذه التعيينات يمكن من تكثيف كمية ضخمة من أفكار الحلم^(٢) .
وإن ورود أنا الحلم في الحلم مرات متعددة أو في هيئات مختلفة ليس في الحقيقة بأعجب
من وروده في أفكارنا الشعورية مرات متكررة وبمواضع مختلفة أو في علاقات متغيرة
– أنظر مثلاً هذه القضية : حين أذكر أى طفل صحيح كنت^(٣) .

وحل التعيينات أسهل فيما يتعلق بأسماء الأعلام الدالة على الأماكن منه في الأشخاص ؛
فهنا يغيب تدخّل الأنا الذى يملك على الحلم كل هذا السلطان . وقد حدث في أحد

(١) أنظر هامش ٢ في ص ٢٨٥ .

(٢) حينما أشك في الشخص الذى ينبثق على أن أبحث عن أناى وراءه بين الأشخاص الظاهرين في الحلم ،
أتبع القاعدة الآتية : الشخص الذى تعرض له في الحلم حالة وجدانية أستشعرها أنا نفسى وأنا نائم – هذا الشخص
هو الذى ينجح أناى .

(٣) [لا يغيب عن القارئ أن ضمير المتكلم يظهر في العبارة الألمانية في صورة لفظية مستقلة : Ich .
فن المعلوم أن اللغة الألمانية شأن الكثير من اللغات الأوروبية الحديثة ” تجوهر ” الضمير في صورة لفظية قائمة
بذاتها ، بينما هو لا يدل عليه في لغتنا العربية وفي كثير من اللغات الأخرى إلا بتصريف الفعل .]

أحلامي عن روما (ص ٢١٥) أن دعى المكان الذي رايتني فيه روما ، ولكنني دهشت لكثرة ما رأيت فيه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية على ناصية الطريق . وكانت هذه اللمحة الأخيرة تحقيق رغبة جعلني أفكر على الفور في براج - ولعل الرغبة ذاتها كانت ترجع إلى مرحلة الحماسة للقومية الألمانية ، وهي مرحلة مرت بها في شباني ثم انطوت . ذلك أنني حين أتيت هذا الحلم كنت أتوقع لقاء صديقي [فليس] عن قريب في مدينة براج ؛ وهكذا يعلل تعيين روما و براج كلا بالآخرى بشركة كانت موضوع رغبة : فأنا أوتر لقاء صديقي في روما على لقائه في براج ، وأود لو بدلت روما براج من أجل هذا اللقاء .

فأما القدرة على خلق الأشكال المزيجة فهي أكبر الخصائص التي تضفي على الأحلام هذا الطابع المغرب في الخيال الذي يكثر اتسامها به . ذلك أن هذه القدرة هي التي تدخل في محتوى الحلم عناصر ما كانت لتعرض قط لإدراكنا الحسي . ومن الواضح أن العملية النفسية التي تجري في أثناء هذا المزج هي التي تقع حين نتخيل كائنا مثل القنطورس أو التنين ، أو حين نرسمه . كل الفرق هو أن النتائج المتخيل في اليقظة لا يسترشد غير التأثير المستهدف لإحداثه من وراء الشكل الجديد ، على حين أن مزيج الحلم محتوم بعامل يخرج عن دائرة خصائصه الشكلية ، وأعني به العنصر المشترك في أفكار الحلم . ومن الممكن أن يتحقق المزج في الحلم على أنحاء متعددة غاية التعدد . وأقل هذه من حيث مهارة الصنعة هو أن تصور خصائص شيء من الأشياء تصويراً يصطحب بمعرفة أنك أن هذه الخصائص تنتسب كذلك إلى موضوع آخر . وطريقة أخرى تزيد عن سابقها عناية ، هي التي تجمع خصائص كل من الموضوعين في صورة جديدة وتنتفع في أثناء ذلك انتفاعاً ماهراً بكل ما يمكن أن يوجد في الواقع من أوجه الشبه بين الموضوعين ، والصورة الجديدة قد تلوح لنا شيئاً تجرد من المعقولة كل التجرد ، وقد تبدو عملاً ناجحاً من جانب الخيلة ، على حسب المادة وعلى حسب البراعة المبذولة في تركيبها . فإذا كانت الموضوعات المراد تكثيفها في وحدة أخلاطاً مبعثرة كل التبعر ، غلب أن يكتفي عمل الحلم بأن يخلق منها صورة مزيجة ذات نواة متميزة بعض الشيء تصحبها عدة من السمات الأقل تميزاً . وفي هذه الحالة تكون عملية التوحيد في صورة مفردة كأنما قد باءت بالفشل : فكلا التصويرين قد غطى الآخر ، ونجم عن ذلك ما يشبه التزاع بين صورتين بصريتين .

ويستطيع المرء أن ينتهي إلى تصويرات مماثلة إذا هو ابتغى أن يبين في رسم تتكوّن أحد التصورات الكلية من صور المدركات الحسية الجزئية .

والأحلام بالطبع تعج بأمثال هذه الصور المزيجة . واقد سردت من قبل أمثلة منها عرضت في الأحلام التي حللتها حتى الآن . وهأنذا ألحق بها أخرى : إذا رجعنا إلى الحلم الذي ذكرته في ٩ ص ٣٢٥ والذي يصف تاريخ حياة المريضة « بلغة الأزهار » ، رأينا أنا الحاملة يُصوّر ممسكا في يد غصنا ناضراً كان يشير - كما رأينا - إلى الطهارة وإلى الخطيئة الجنسية في آن واحد . وإن الطريقة التي انتشرت بها الأزهار على الغصن قد ذكرت الحاملة - فوق ما سبق - بأزهار الكريز ، وأما الأزهار في ذاتها - كل على حدة - فتذكرها بالكاميليا ، ثم الكل مجتمعاً يوحي بعد ذلك بنبات من أرض غريبة . ولقد أظهرتنا أفكار الحلم على الجامع المشترك بين عناصر هذه الصورة المركبة : فالغصن المزدهر قد ركب من إشارات إلى هدايا قدمت إليها واكتسب بها مقدموها ودها أو أرادوا اكتسابه : هكذا الكريز في طفولتها والكاميليا في مستأنف السنين . وأما النبات الغريب الأرض فيلمح إلى عالم طبيعي كثير الطواف توصل إلى رضاها بزهور رسمها لها . وصنعت مريضة أخرى شيئاً وسطاً بين نجيرة استحمام على شاطئ البحر ومرفقة مياه منعزلة من قبيل ما يوجد في الريف وحجرة مائلة السقف بأعلى منزل من منازل السكنى في مدننا : العنصران الأولان يشتركان في علاقتهما بالتعري ونزع الملابس ، واقتران العنصر الثالث بهما يجعلنا نستنتج أن حجرة مائلة السقف كانت (والحاملة طفلة) مسرحاً لمشهد من مشاهد التعري . وهناك مريض صنع مكاناً مركباً من مكانين من الأمكنة التي يقع فيها « Kur » [= علاج وغزل] ، أحدهما غرفة استشارتي والآخر كان الملهى الذي الذي عرف فيه زوجته . وحلمت فتاة بعد أن وعدّها أخوها الأكبر بأن يتمتعها بالكافيار - حلمت بأن أحاها الأكبر هذا قد تغطت ساقه بحبوب الكافيار الأسود . وهكذا نجد أن العنصر « عدوى » بالمعنى الخلقى - وأن ذكرى بئر ألم بها في طفولتها فغطى ساقها ببقع حمراء لا سوداء ، قد اتحدتا مع حبوب الكافيار في تصور جديد ، هو تصور « ما نأبها من أخيها » . ولقد عوملت أجزاء الجسم الإنساني في هذا الحلم - كما في غيره من الأحلام - معاملة الموضوعات . وفي حلم رواه فرنتسي وردت صورة ركبت من شخص أحد الأطباء ومن حصان ، ثم بعد ذلك ألبست الصورة قميصاً من قمصان النوم .

وبالتحليل تبين وجه الاشتراك بين هذه العناصر الثلاثة حين عرفت المريضة في قميص النوم إشارة إلى والدها كما رأته في مشهد من مشاهد الطفولة . فالأمر يتصل - في مقومات الحلم الثلاثة - برغبة الحاملة الجنسية في الاستطلاع ؛ ولقد كانت المريضة تصحب مربيتها في أحيان كثيرة إلى إصطبل تابع للجيش حيث كان يتاح لها أن تشبع تطلعاتها الجنسية - ولم يكن مسه الكف بعد - ما أرادت .

وسبق أن قلت [ص ٣١٥]: إن الحلم لا يملك وسيلة ما في الإعراب عن علاقة التناقض أو التضاد، عن « كلا » . وسأخذ الآن في مناقضة هذه القضية للمرة الأولى . فهناك طائفة من الحالات التي يمكن أن نعدّها حالات « تضاد » تصور في الحلم بوساطة التعيين ليس غير ، ويكون ذلك على التحقيق - كما رأينا [ص ٣٣٢] - إذا أمكن أن تقرن فكرة التضاد بفكرة المقايضة أو التبديل - ولقد أعطيت أمثلة متكررة على ذلك من قبل . وبين أفكار الحلم طائفة أخرى من الأضداد - يصح إدراجها في مقولة « القلب أو العكس التام » - تبلغ إلى التمثل في الحلم بطريقة عجيبيّة ، حتى لتكاد تستحق وصفها بالتنكيت . و « الضد الذي هو عكس » لا يمثل هو نفسه في محتوى الحلم ، ولكنه يفسح عن وجوده في مادة الحلم بالطريقة الآتية : أن يقلب في محتوى الحلم الذي تم تكوينه جزء اتفق وقوعه لأسباب خارجية على مقربة من هذا الضد كأنما جاء ذلك القلب من بعد . والتمثيل لهذه العملية أسهل من وصفها : خذ مثلاً الحلم الجميل - حلم الصعود والنزول المذكور في ص ٢٩٨ - تر الحلم يصور الصعود تصويراً يعكس النموذج المائل في أفكار الحلم ، أى يعكس مشهد التقدمة في رواية سافو لدوديه ؛ فهو يتم في الحلم صعباً في أوله سهلاً في آخره ، على حين أنه يسهل في مبدأ ذلك المشهد ثم يصعب شيئاً فشيئاً . ثم « الأعلى » و « الأسفل » فيما يتصل بعلاقة الحالم بأخيه قد صوراً أيضاً تصويراً مقلوباً . ولقد كان في ذلك ما يشير إلى وجود علاقة قلب أو تضاد بين جزئين من أجزاء المادة المحتواة في أفكار الحلم ، وهي علاقة وجدناها فيما تخيله الحالم من حمل مرضعه إياه على عكس ما يحمل البطل محبوبته في الرواية . ثم الحلم الذي أرى فيه جوته يهجم على السيد م . (أنظر ما بعد [ص ٤٣٨]) ، ليس يحوى مثل هذا القلب الذي يجب علينا أن نبدأ بعده قبل أن نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً صحيحاً ؟ لقد هاجم جوته في الحلم شاباً حديث السن هو السيد م . ، والحقيقة المتضمنة في أفكار الحلم هي أن رجلاً ذا خطر ، صديقي [فليس] ، قد تهجم عليه

مؤلف نكرة حديث السن . وأنا في الحلم أحسب السنين ابتداء من تاريخ وفاة جوته ،
وأما في الحقيقة فيبدأ الحساب من سنة ميلاد المريض المشلول . والفكرة التي تبين أنها
قد كانت القول الفصل في مادة الحلم كانت المعارضة في أن يعامل جوته كما يعامل
محبول ، فالحلم كان يقول : « على العكس ، إذا أنت لم تفهم الكتاب فضعيف العقل
أنت لا صاحب الكتاب . » ويلوح لي - عدا ذلك - أن جميع أحلام القلب هذه
لا تخلو من معنى الازدراء المتضمن في قولنا : « أدار له ظهره . » (١) (أنظر قلب
العلاقة بالأخ في حلم سافو . [ص ٣٠١]) وخلق بنا أن نلاحظ - فوق ذلك - كيف
يكثر استخدام القلب في الأحلام الصادرة على التحقيق عن دوافع جنسية مثلية مكبوتة .

والقلب أو التحويل إلى الضد هو بعد ذلك وسيلة من آثار وسائل التصوير
إلى عمل الحلم وأكثرها تنوعاً من حيث أوجه استخدامها . فهو يستخدم أول
ما يستخدم في مساندة تحقيق الرغبة بالنسبة إلى عنصر معين بين العناصر المتضمنة في
أفكار الحلم . وإن قولنا : « لو أن الوضع انعكس ! » هو في كثير من الأحيان أحسن
ما يعرب عن استجابة الأنا بالنسبة إلى صفحة أئمة من صفحات الذاكرة . ولكن قيمة
القلب تظهر بنوع أخص حين يعمل لخدمة الرقابة ؛ لأنه يحدث مقداراً ضخماً من
التشويه في الأفكار المراد تصويرها ، بحيث نرى فهمنا للحلم وقد شل للوهلة الأولى شلاً .
ولذلك لم يكن ضير - كلما عتدّ الحلم ولم يسلم معناه - في أن نجرب قلب أجزاء معينة
في محتواه ، وحينئذ لا يندر أن يتضح كل شيء على الفور .

وهناك إلى جانب القلب في المحتوى المادى قلب آخر ينبغي علينا أن نحسب حسابه ،
هو قلب الترتيب الزمني . فن الطرق الشائعة في تشويه الحلم أن تُصور خاتمة حدث
أو نتيجة عملية فكرية في صدر الحلم على حين ترجأ إلى نهايته المقدمات التي بنيت
النتيجة عليها أو العلل التي نجم الحدث عنها . وكل من نسى هذه الحيلة الفنية في
تشويه الحلم صائر ولا شك إلى الوقوف في تفسيره (٢) .

(١) [Kehrseite] ويعنى الظهر والوجه المقلوب لشيء .

(٢) إن النوبات المسترية تستخدم أحياناً هذه الطريقة عينها - طريقة قلب الترتيب الزمني - لكي تخفى
معناها عن المشاهد . مثال ذلك فتاة هسترية كانت نوبتها تصور مغامرة غرامية قصيرة تخيلتها في لا شعورها بعد
أن التقت برجل ما في سكة حديد الضواحي : كيف يجتذب جمال قدمها الرجل فيبادها بالحديث بينما كانت تقرأ ،
وكيف تصحبه هي على أثر ذلك ثم تحيا معه مشهداً غرامياً عاصفاً . كانت نوبتها تبدأ بتصوير هذا المشهد القرائي

والحق أن هناك حالات لا يكشف فيها المرء معنى الحلم إلا بعد أن يجرى على محتواه قلباً متعدداً ، مختلف الأوجه . مثال ذلك شاب كان يعاني عصاباً قهرياً نرى عنده ذكرى الرغبة الطفلية في موت الأب المخوف وقد اختفت وراء حلم كان ذلك نصه : يشتمه والده بحبسه إلى المنزل متأخراً جداً . إن موقع الحلم من سياق العلاج التحليلي ثم مستدعيات الحلم قد بينت أن الأصل يجب أن يقرأ على هذا النحو : أنه - هو - غاضب على والده ، وأن والده كان - في رأيه - يعود دائماً إلى المنزل مبكراً جداً (أى سريعاً جداً) . والحلم كان يؤثر ألا يرجع والده على الإطلاق ، وهي رغبة لا تختلف في شيء من الرغبة في موت الأب (أنظر ص ٢٧١) ، فقد حدث وهو طفل صغير أنه أذنب بعدوان جنسى على طفل آخر في خلال غيبة موقوتة لأبيه ، فكان عقابه هذا الوعيد : « انتظر حتى يعود أبوك ! »

فإذا أردنا أن نمضى في دراسة العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم إلى أبعد من هذا المدى فأحسن السبل الآن هي أن نتخذ من الحلم نفسه نقطة بدايتنا ، فنسأل : ما هي الدلالة التي لهذه الخاصة أو تلك من الخصائص الصورية لتصوير الحلم بالنسبة إلى أفكاره الكامنة ؟ وأولى هذه الخصائص التي لا يمكن إلا أن تسترعى نظرنا في الحلم هي التفاوت في الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم وتميز أجزاء معينة منه - أو تميز أحلام بأكملها - إذا هي قورنت فيما بينها . والتفاوت في الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم يشمل سلماً بأجمعه يتدرج من حدة في الصك ينجح المرء - وإن يكن بغير حق - إلى وصفها بأنها تفوق الواقع ، إلى غموض محقق نعلن أنه سمة تتميز بها الأحلام لأنه لا يقبل المقارنة الصحيحة بأى درجة من درجات الlatency الذى قد ندركه في الموضوعات الحقيقية . يضاف إلى ذلك أننا في العادة نصف الانطباع الذى نلقاه من موضوع غير متميز من موضوعات الحلم بقولنا إنه انطباع « سريع المرور » بينما نجيل إلينا أن صور الحلم المتميزة قد تعرضت لإدراكنا زمناً أطول . وسؤالنا الآن هو : أى شروط في مادة الحلم تجلب هذا التفاوت في الشدة الحسية بين مختلف أجزاء الحلم ؟

بوساطة تشنجاتها الحسية (وكانت في خلالها تحرك شفتيها تصويراً للقبل ، وتبسط ذراعها تصويراً للعناق) ، ثم بعد ذلك تندفع إلى الغرفة المجاورة وتجلس على مقعد وترفع رداها حتى يظهر قدمها بينما تتصنع قراءة كتاب ، ثم بعد ذلك تتحدث إلى (أى تجيبني) . وبهذه المناسبة أنظر ملاحظة آرتيميدوروس : « على المرء حين يفسر الأحلام أن يستعرضها من البداية إلى النهاية ، ثم مرة أخرى من النهاية إلى البداية . . . »

إن علينا في هذا الموضوع أن نناقش أولاً عدة من المظان لا يكاد يكون مفر من تواردها على الذهن . فإنه إذا كانت مادة الحلم تضم إحساسات حقيقية نشعر بها أثناء النوم ، فأغلب الظن أننا سنفتقر مقدماً أن هذه الإحساسات أو عناصر الحلم المستمدة منها تحظى في محتوى الحلم بشدة خاصة ، فإذا عكسنا هذه القضية خرج أن ما يبدو في الحلم ذا شدة حسية خاصة لا بد راجع إلى مثل هذه الإحساسات الحقيقية الحادثة في خلال النوم . غير أن خبرتي الخاصة لم تؤيد هذا القول قط . فليس من الصحيح أن عناصر الحلم المستمدة من إحساسات النوم الحقيقية (أى من المنبهات العصبية) تمتاز بشدة خاصة دون غيرها من العناصر الناشئة عن الذكريات : إن عامل الواقع صفر في تحديد شدة عناصر الحلم .

وقد يظن المرء بعد ذلك أن هناك علاقة بين الشدة الحسية التي لمختلف صور الحلم (وأعني حدثها) وبين الشدة النفسية التي للعناصر المقابلة لها في أفكار الحلم . وفي هذه الحالة تكون الشدة الحسية مطابقة للقيمة النفسية : فأعلى العناصر شدة هي أيضاً أهمها ، تلك التي تكون النقطة الرئيسية في أفكار الحلم . نعم ، إننا نعلم أن هذه العناصر بالذات لا تلتق في معظم الأحيان قبولاً في محتوى الحلم بسبب الرقابة ، ولكن من الجائز مع هذا أن تعزز مشتقاتها المباشرة التي تنوب عنها في الحلم بدرجة مرتفعة من الشدة ، دون أن تصير لذلك بالضرورة مركز الحلم . غير أن هذا التوقع ينجيب بدوره عند البحث المقارن بين الحلم الظاهر ومادته الأصلية ؛ فما من علاقة بين شدة العناصر هنا وشدها هناك ، وإنما الحق أن « انقلاباً تاماً في جميع القيم النفسية » [بتعبير نيتشه الذائع] قد وقع بين مادة الحلم والحلم . فما يشغل بين أفكار الحلم مكاناً يظهر به على سواه ، قد لا تكتشف في أحيان كثيرة نائبه الأوحاد في الحلم إلا في عنصر عارض طغت عليه صور أقوى حتى حجبه .

إن الحقيقة هي أن شدة عناصر الحلم تحدد من طريق مختلف ، يحددها عاملان مستقلان كل عن الآخر . فمن السهل أن نرى - أولاً - أن هذه العناصر التي يفصح تحقيق الرغبة عن نفسه بوساطتها تصور في الحلم تصويراً ذا شدة خاصة ، والتحليل يبيننا - ثانياً - أن عناصر الحلم ذات الشدة الحسية الأعلى هي التي تخرج منها أيضاً أكثر المستدعيات ، أى أن هذه العناصر الأشد هي في الوقت عينه أكثر العناصر حمياً .

ولسنا نغير معنى هذه القضية الأخيرة المقامة على التجربة إذا نحن صغناها في الصورة الآتية : تتناسب شدة عناصر الحلم مع مقدار العمل التكتيفي الذى بذل في تكوينها . ولنا أن نتوقع أن يكون الإعراب في صيغة واحدة عن هذا الشرط وعن سابقه الخاص بتحقيق الرغبة أمراً يدخل في حيز الإمكان .

وأنبه هنا إلى أن المشكلة التي كنت أعالجها الآن - وأعني بها علل التفاوت في الشدة أو الوضوح بين عناصر الحلم المتفرقة - يجب ألا تخلط بمشكلة أخرى ، هي مشكلة التفاوت في الوضوح بين أحلام بأكملها أو فقرات من أحلام . فالوضوح في الحالة الأولى ضد الغموض ، وأما في الحالة الثانية فهو ضد التشوش . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن درجات التفاوت في هاتين الكيفيتين تصعد وتنزل معاً في كلا السلمين : فإذا بدت إحدى فقرات الحلم خالية من التشوش كانت في الأغلب مشتملة على عناصر شديدة ، وأما الحلم المختلط فيتكون على العكس من عناصر ضعيفة في الشدة . ومع هذا فالمشكلة التي تواجهنا في حالة التدرج من الوضوح الظاهر إلى التشوش والغموض أعقد كثيراً من مشكلة التفاوت في درجات الشدة الحسية بين عناصر الحلم ، بل الحق أن المشكلة الأولى مشكلة تمنع على المناقشة هنا لأسباب سوف تتبين فيما بعد [ص ٤٦٩] . هذا ، ويتفق أحياناً أن نكتشف لفرط دهشنا أن إحساسنا بوضوح الحلم أو بتشوشه لا يمت بسبب إلى صنعة هذا الحلم ، بل هو صادر عن مادة أفكار الحلم وجزء من أجزائها : مثال ذلك أني أذكر حلماً بدا لي حين استيقظت حسن الصنعة ، خالياً من الثغرات ، واضحاً ، حتى أنني عقدت العزم وأنا لم أزل في سكرة النوم على إدخال مقولة جديدة من الأحلام لا تخضع لميكانيكيات التكتيف والنقل بل يحق وصفها بكونها « تخييلات في أثناء النوم » ، فلما أنعمت النظر تبين أن هذا الحلم النادر كان فيه من خلل الصنعة وركاكتها مثل ما في سواه ، ولهذا تركت مقولة الحلم التخيلي^(١) . كان مضمون هذا الحلم - بعد أن انتهيت إليه - هو أنني أدلى إلى صديقي [فليس] بنظرية عويصة طال التنقيب عنها في الثنائية الجنسية ، وكادت قوة الحلم على تحقيق الرغبة هي المسئولة في أن بدت هذه النظرية (ولم تكن قد ذكرت في الحلم) واضحة خالية من الثغرات . وهكذا فما حسبته حكماً على الحلم المنهى كان في الحقيقة جزءاً من محتوى الحلم وأهم جزء . وكأن عمل الحلم هنا قد امتد

(١) [١٩٣٠ :] ولست أدري اليوم أمصيب أنا أم مخطيء .

إلى بواكير أفكارى المستيقظة فقدم لى فى صورة الحلم على الحلم هذا الجزء من مادة الحلم الذى لم يستطع النجاح فى تصويره فى الحلم تصويراً وافياً . ورأيت مرة حلماً يوازن حلمى هذا تماماً الموازنة عند مريضة رفضت أن تقص حلماً كان يلزم تحليله رفضاً قاطعاً بحجة أنه « غامض جداً مختلط جداً » ، ثم ذكرت بعد لآى وهى تكرر احتجاجها هذا أن الحلم قد ضم أشخاصاً كثيرين : هى وزوجها والدها ، ولم تكن تعلم إذا كان زوجها هو والدها ، أو من والدها على الحقيقة ، أو شىء من هذا القبيل . فلما قرن هذا الحلم بخواطرها أثناء الجلسة ، انضح بما لا يرقى إليه الشك أن الأمر يتعلق بتلك القصة الشائعة بين أحداث كل يوم : قصة الخادم التى تضطر إلى الاعتراف بأنها تنتظر وليداً ولكنها لا تعلم « من هو الوالد (والد الطفل) على الحقيقة » .^(١) والغموض الذى أبداه الحلم كان إذن - فى هذه الحالة أيضاً - جزءاً من المادة التى أثارت الحلم ، أى أن بعض هذه المادة قد تمثل فى الصورة التى اتخذها الحلم : إن الصورة التى يبدو الحلم عليها أو الصورة التى يحلم بها تستخدم فى تصوير مادة الحلم الكامنة استخداماً شائعاً إلى درجة تبعث على الدهش .

والتعليقات التى نعلق بها على الحلم والملاحظات الظاهرة البراءة التى تعن لنا فى صدده - كل هذه أيضاً يكثر استخدامها فى إخفاء جزء مما نحلم به - وإن كان الأصدق بالطبع أنها تفضحه - بطريقة هى غاية فى اللطافة . مثال ذلك أن يقول حالم : إن الحلم قد انمسح فى هذا الموضع ، ثم إذا التحليل يسوق إلى ذكرى طفلية فحوها أن الحالم قد تجسس مرة على شخص كان يمسح نفسه بعد التبرز . وها هو ذا مثال آخر يستحق أن نذكره مفصلاً : فقد حلم شاب حلماً واضحاً غاية الوضوح ذكره بتخييلات من صباه ظلت محفوظة فى شعوره ، وكان مؤدى الحلم أنه قد رأى نفسه ساعة المساء فى فندق فى مصيف وأخطأ رقم غرفته فدخل غرفة وجد بها سيدة وابنتها ، وكن جميعاً يتزعن ثيابهن تأهباً للنوم ، ويمضى الحالم قائلاً : « وهنا تخلت الحلم ثغرات ، هناك شىء ناقص ، وأخيراً أرى فى الحجرة رجلاً يريد أن يلتقى بي خارجها فأضطر إلى مصارعتها . » ويجهد الحالم فى غير طائل لكى يتذكر ما هو هذا التخيل الصياني الذى كان واضحاً أن الحلم يلمح

(١) أعراض هسترية مصاحبة عند هذه المريضة : انقطاع الطمث ثم انقباض شديد كان هو شكاتها

إليه ولكي يتذكر مرماه ، وأخيراً يتضح أن ما نبحت عنه قد أعطيناها ، أعطتنا إياه تلك الملاحظة عن جزء الحلم غير المتميز: فإن « الثغرات » هي الأعضاء التناسلية للنسوة المتأهبات للنوم و « هناك شيء ناقص » تصف السمة الرئيسية لأعضاء التناسل عند الأنثى . وقد كان المريض يتحرق في صباه تطلعاً إلى رؤية أعضاء المرأة ، وكان لم يزل يتزعج إلى الأخذ بتلك النظرية الجنسية الطفلية التي تنسب إلى المرأة عضواً مذكراً .

ويلبس حالم آخر إحدى ذكرياته المماثلة صورة جد مشابهة ، فيحلم : أذهب مع الآنسة ك . في مطعم فولكس جارتن . . . ، هنا تأتي فقرة مبهمة ، قَطْع . . . ، أراي بعد ذلك في جو منزل من منازل البغاء حيث أرى امرأتين أو ثلاثاً ، إحداهن في قميص ولباس .

التحليل : إن الآنسة ك . هي ابنة رئيسه السابق وهي تقوم مقام أخت بديلة - كما يسلم هو بذلك . ولم تكن الفرصة قد سنحت له بالتحدث إليها إلا لماماً ، ولكن وقع مرة أن دار بينهما حديث « كان كأنما كنا نعرف في أثنائه لأنفسنا بكياننا الجنسي ، كأنما كنت أقول لها : إنني رجل وأنت امرأة » . وهو لم يدخل هذا المطعم إلا مرة واحدة مع أخت صهره - وهي فتاة يستوى أمرها في نفسه . وحدث مرة أخرى أنه صحب ثلاث سيدات إلى هذا المطعم ، وكن أخته وأخت زوجها التي ورد ذكرها ثم زوجة أخيه [وبالترجمة الحرفية : أخته بالمصاهرة] . وثلاثهن يستوين عنده إلى أقصى مدى ، بيد أن ثلاثهن يدخلن في مقولة « الأخت » . فأما منزل البغاء فكان لم يطرقه الحالم إلا نادراً ، مرتين أو ثلاث مرات في حياته .

ولقد بنى التفسير على « الفقرة المبهمة » وعلى « القطع » اللذين عرضا في الحلم ، وكانت فحوى التفسير هي أن الحالم في تطلعه الصبياني قد استكشف أحياناً - وإن تكن بالنادرة - أعضاء أخته التي تصغره بأعوام قلائل . وبعد ذلك ببضعة أيام تذكر الحالم هذا الحرم الذي أوما إليه الحلم تذكراً شعورياً .

وجميع الأحلام التي ترد في الليلة الواحدة يؤلف محتواها جزءاً من كل واحد . وإن انقسامها أقساماً متعددة وكذلك عدد هذه الأقسام ونحو تجمعها - كل هذا أمر له معناه ويجوز لنا أن نعهده إفادة منبعثة عن أفكار الحلم الكامنة . فن الواجب حين نفسر أحلاماً تتكون من أقسام رئيسة أو حين نفسر - بوجه أعم - أحلاماً وقعت في خلال

الليلة عينها ، من الواجب ألا ننسى إمكانية أن تكون أمثال هذه الأحلام المنفصلة المتعاقبة ذات معنى واحد ، وأنها ربما كانت تعرب عن ذات الاندفاعات بمواد مختلفة . فإذا كان الأمر كذلك ، غلب أن يكون أول هذه الأحلام المتناظرة أكثرها تشويهاً واستحياءً ، بينما تزيد اللاحقة ثقة وتميزاً .

ومن هذا القبيل حلم فرعون في التوراة ، حلم السنابل والبقرات الذي فسره يوسف . لقد روى يوسيفوس (تاريخ اليهود القديم ، الكتاب الثاني ، الفصلان الخامس والسادس) هذا الحلم في تفصيل يزيد على ما ورد في التوراة . فقد جاء عنده أن فرعون بعد أن قص حلمه الأول . قال : « وبعد أن رأيت هذه الرؤيا استيقظت ، وهأنذا مبعر النفس أتدبر ما عساه يعنى هذا الطائف ، ثم عدت إلى النوم فرأيت حلماً ثانياً أعجب من سابقه ، روعني وبث الاضطراب في نفسي أكثر مما فعل الأول . . . » فلما سمع يوسف رواية الملك أجاب : « هذا الحلم معناه واحد ، أيها الملك ، وإن تراعى في صورتين . . . »

ويصف يونج في بحثه « مقال في سيكولوجية الإشاعة » كيف حلمت تلميذة حلماً عشقياً مستخفياً ففهمته قريناتها من غير تفسير ما ، ثم أخذنه عنها ووسعن منه وحرفن فيه ، وهو يلحظ في صدد إحدى روايات هذا الحلم : « أن الفكرة الأخيرة في سلسلة طويلة من صور الحلم تتضمن على التحقيق هذا الذي حاولت الصورة الأولى تصويره . فالرقابة تعمل على دفع الماركب [الفكرى الانفعالى] أطول زمن ممكن بسلسلة لا تنقطع من الستائر الرمزية والنقل والأقنعة البريئة . . . الخ . » (١٩١٠ ب) . ولقد عرف شرزر هذه الخاصة في تصوير الحلم حق المعرفة ، وهو يصفها - ناظراً إليها من وجهة نظره في التنبيه العضوى - باعتبارها قانوناً كلياً ، فيقول (١٨٦١ ، ١٦٦) : « والمخيلة أخيراً تتبع قانوناً عاماً في جميع أبنية الحلم الرمزية الناشئة عن منبهات عضوية معينة ؛ فهي في مبتدأ الحلم لا تلمح إلى الموضوع الذى يصدر عنه التنبيه إلا أبعد التلميح وأقله تحريماً للحقيقة ، ولكنها تضطر في النهاية إلى أن تظهر المنبه إظهاراً سافراً ، هو أو العضو المعرض له أو وظيفة هذا العضو ، على حسب الأحوال ، وبذلك يبلغ الحلم - وقد عيّن على علته العضوية - نهايته . . . »

ولقد أتى أوتو رانك في بحثه « حلم يفسر نفسه بنفسه » (١٩١٠) بما يؤيد قانون شرزر هذا تأييداً بديعاً . فهو يروى حلماً لفتاة تكون من حلمين جاء في ليلة واحدة مع

فاصل زمني ، وانتهى ثانيهما بالإنعاض . وكان من الممكن تفسير هذا الحلم الثاني تفسيراً مفصلاً بدون مشاركة كبيرة من جانب الحاملة ، وكانت كثرة العلاقات بين محتوي الحلمين تمكننا من أن نرى أن الحلم الأول كان يعرب في استحياء عما أفصح عنه الحلم الثاني ، بحيث أعان الحلم الثاني - الحلم الذي انتهى بالإنعاض - على استجلاء الحلم الأول استجلاء كاملاً . ويستخدم رانك هذا المثال بحق في مناقشة المغزى الذي لأحلام الإنعاض أو الإماء بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة .

بيد أن خبرتي قد دلت مع ذلك على أننا لا نستطيع إلا في حالات نادرة أن نفسر وضوح الحلم أو اختلاطه بما تتضمنه مادته من الثقة أو التردد وسأكشف فيما بعد عن عامل في تكوين الحلم لم أذكره حتى الآن ، على فعله يتوقف تدرج الحلم بين هاتين الكيفيتين توفيقاً جوهرياً . [أنظر ص ٤٩٦ .]

ويحدث أحياناً بعد أن يدوم في الحلم فترة موقفة ومنظر معينان أن يطرأ انقطاع يوصف بتلك الكلمات : « وعندئذ تغير المكان فصار كأنه مكان آخر في الوقت عينه ، وهناك وقع كذا وكذا . » وبعد برهة يتصل السياق الرئيس للحلم ، ويتضح أن ما قد قطعه على هذا النحو إنما كان جملة شرط محتواة في مادة الحلم ، فكرة اعتراضية - فالحلم قد أعرب عن الشرط المتضمن في أفكار الحلم بالمزامنة . أي أن « إذا » قد انقلبت إلى « لي » .

وما معنى هذا الإحساس بالحركة المكفوفة الذي يشيع في الأحلام كل هذا الشيوع ويقرب من الهيلة كل هذا القرب ؟ يريد المرء المشي لكنه لا يتحرك من موضعة . أو يريد أن يبلغ شيئاً من الأشياء فيصطدم بالعقبة تلو العقبة . القطار يؤذن بالحركة وهو لا يستطيع الوصول إليه ، أو هو يرفع يده ليثأر الإهانة ، فإذا يده عاصية ، الخ . إنه إحساس قد صادفناه من قبل عند التحدث عن أحلام الاستعراض [ص ٢٥٩] ، ولكننا لم نعمل بعد على تفسيره عملاً جدياً . قد نجيب بأن شلل الحركة يسود عند النوم وأن هذا الشلل هو ما نشعر به حين نستشعر هذا الإحساس . وإنه لجواب سهل ، لكنه غير كاف . فإن لنا أن نسأل : إذا كان الأمر كذلك فلم لا نحلم دوماً بأشبه هذه الحركة المكفوفة ؟ لأحرى بنا أن نفترض أن هذا الإحساس الذي قد ينبعث في كل وقت من أوقات النوم إنما يخدم هدفاً بعينه من أهداف التصوير ، وأنه لا ينبعث فعلاً إلا حين تكون بمادة

الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده .

و « العجز عن كل فعل » لا يظهر دائماً في صورة الإحساس ، بل إنه في بعض الأحيان قد يكون جزءاً من محتوى الحلم ليس غير . وأمثال هذه الحالات صالحة في رأي تمام الصلاحية لأن تلتى بعض الضوء على معنى هذه السمة من سمات الحلم . وها هي ذى خلاصة حلم ظاهرة أنى أنهم بالحيد عن الأمانة : المكان . زيج من مصحة خاصة ومن محال أخرى متعددة . يظهر خادم يستدعيني لأن هناك فصلاً يراد إبرأؤه . أعلم في الحلم أن شيئاً قد فقد وأن الفحص مرجعه الارتياب في أن أكون استوليت على الشيء المفقود . (يتبين من التحليل أن للفحص معنيين وأنه يشمل الفحص الطبي .) أصعب الخادم في هدوء وأنا شاعر ببراقق وبما لي من مكانة الطبيب في هذه المصحة . يظهر خادم آخر بأحد الأبواب ويقول وهو يشير إلى : لماذا أحضرتة ؟ إنه شخص محترم . أذهب بعد ذلك غير مصحوب إلى قاعة كبرى نصبت فيها آلات تذكرني بالجحيم وبما يحتويه من عدد العقاب المهنية . أرى أحد زملائي وقد مده على علة من هذه العدد . كان هذا الزميل يملك أكثر من سبب يدعو إلى أن يشغل بأمرى ، بيد أنه لا يلتفت إلى . يقال لي عندئذ : إننى أستطيع المضى لشأنى ، ولكننى لا أجد قبعتى وأظل عاجزاً عن النعاب .

من البين أن تحقيق الرغبة في هذا الحلم يقوم في كونى قد عرفت بريثاً يجوز له المضى لشأته . ولا بد إذن أن أفكار الحلم كانت مشتملة على مادة من كل نوع حوت تقيض ذلك . فأن يجازى لي الانصراف تلك علامة التبرئة . فإن كانت نهاية الحلم تجيء بحدث يعوقني عن الذهاب ، لم يبعد أن تكون هذه سمة يفصح فيها التقيض المكبوت عن نفسه . وعجزى عن العثور على القبعة يعنى بناء على ذلك : لست رجلاً بريثاً بعد . وما يظهر في هذا الحلم من « عجز عن كل فعل » هو إذن إعراب عن المناقضة ، إعراب عن « كلا » ، بحيث يحقق علينا الآن أن نصصح ما قدمناه من قبل أن الحلم لا يملك الإفصاح عن النقي (١) . [أنظر ص ٣٢٨] .

(١) تضمن التحليل الكامل للحلم إشارة إلى خبرة من خبرات الطفولة جاءت من ذلك الطريق : " لقد أدى المغربي واجبه ، فنى استطاعة المغربي أن يمضى لشأته . " [يتنه ستراشى إلى أن هذا السطر - وهو لشيلير - قد ذكر هنا محرفاً ؛ فقد جاء في الأصل " أدى عمله " لا واجبه .] ثم يتبع هذا السؤال المازح : كم كان عمر المغربي حين أدى واجبه ؟ سنة واحدة ما دام كان يستطيع المشى . (ويبدو أننى قد ظهرت إلى الدنيا بشعر أسود كح حتى إن أى قد لقبته بالمغربي الصغير) . - وأما العجز عن العثور على القبعة فكان حدثاً من أحداث اليوم السابق استغله الحلم في أكثر من معنى ؟ ذلك أن خادمتنا - بمقرئتها في حفظ الأشياء - كانت قد أخفت تلك القبعة عن نظرى . - كذلك تتضمن نهاية الحلم أطراح بعض الأفكار السوداء المتصلة بالموت : إننى لا أزال بعيداً من أكون قد أديت واجبى ، ومن حتى إذن ألا أذهب بعد . فالحياء والموت يماجان في هذا الحلم كما هو الشأن في حلم جوتة والمشلول اللتى جاتى قبل ذلك بزمن قصير (أنظر ص ٣٣٦ ثم ص ٤٣٨)

وأما الأحلام الأخرى التي يظهر فيها العجز عن الحركة في صورة إحساس وليس في صورة موقف وحسب - فتعرب عن ذات التناقض إعراباً أقوى : في صورة إرادة تقاومها إرادة مضادة. وإحساس الحركة المكفوفة يمثل إذن صراعاً في الإرادة. [أنظر ص ٢٦٣ .] ذلك أننا سوف نعلم [ص ٥٥٦] أن ما يصحب النوم من شلل الحركة هو على التحقيق أحد الشروط الأساسية للعمليات النفسية الحادثة في أثناء الحلم . وإن انتقال دافع من الدوافع إلى المسارات الحركية ليس شيئاً آخر سوى الإرادة وبقيننا بكوننا لن نحس هذا الدافع في خلال النوم إلا مكفوفاً هو الذي يجعل العملية في جملتها صالحة كل هذه الصلاحية الفاتحة لتصوير فعل الإرادة وتصوير « كلا » التي تناهضه . ومن السهل أيضاً أن نرى في ضوء تفسيري للهيلة لم كان الإحساس بكف الإرادة يقرب كل هذا القرب من الهيلة ولم غلب اقترانه بها في الأحلام ، فإن الهيلة دافع إيبدي أصله في اللاشعور وكفه ما قبل الشعور^(١) . وعلى ذلك ، حينما ارتبط الكف بالهيلة في الحلم فلا بد أن الأمر يتعلق بإرادة كانت قادرة في زمن ما على توليد الليبدو ، أى بهائج جنسى .

وسأعرض في موضع آخر (أنظر ما بعد [ص ٤٨٥]) لهذا الحكم الذي كثيراً ما يظهر أثناء الحلم في تلك العبارة : « ما هذا إلا حلم » ، وسأناقش عندئذ معنى هذا الحكم والقيمة النفسية التي يجب أن نعزوها إليه . ولكنني أستبق الأمور فأقول : إن هذا الحكم يهدف إلى التهيؤ من قيمة ما نحلم به . وقد أمكن شتىكل بتحليل بعض الأمثلة المقتنعة أن يجد سلا شيئاً بذلك لمشكلة أخرى ، ممتعة ، قريبة من مشكلة هذا الحكم ، وأعني بها : ما الذي نعرب عنه حين نصف محتوى الحلم بأنه « قد حلمنا به » في غضون الحلم نفسه ؟ أى مشكلة « الحلم في الحلم » . فالمقصود مرة ثانية هو حط قيمة هذا الذي « نحلم به » ، سلبه حقيقة ؛ فما نتابع الحلم به بعد أن نستيقظ من « الحلم المندرج في الحلم » هو ما تهدف رغبة الحلم إلى استبداله بحقيقة محمودة ، ولذلك جاز لنا أن نفترض أن « المحلوم به » في الحلم هو الذي يصور الحقيقة ، هو الذكرى الصادقة ، وأما الحلم المحيط به فلا يصور على العكس سوى رغبة الحلم وحدها . فأن تدرج محتوى ما في « حلم في حلم » يعدل رغبتك في أو أن الجزء الموصوف بأنه حلم لم يقع قط . وبعبارة أخرى : إذا أورد عمل الحلم حدثاً بعينه على أنه حلم في حلم ، كان ذلك أقطع الأدلة على كون هذا الحدث قد وقع حقيقة وأقوى إثبات لذلك . فعمل الحلم يتخذ الحلم كصورة من صور التنصل وهو بذلك يؤيد ما قد حدثناه من أن الحلم تحقيق رغبة .

اعتبار قابلية التصوير

لقد شغلنا حتى الآن ببحث الطريقة التي يصورها الحلم العلاقات القائمة بين أفكار الحلم ، ولكننا في هذه الأثناء قد لمسنا أكثر من مرة تلك المشكلة الأخرى : ما هو التغيير الذي يصيب مادة الحلم بوجه عام من أجل تكوين الحلم ؟ فنحن نعلم الآن أن ثمة ضغطاً يصيب مادة الحلم بعد أن تجرد من جزء كبير من علاقاتها ، على حين تجرى في الوقت عينه نقلات من حيث الشدة بين عناصر هذه المادة ، نقلات تحدث بالضرورة انقلاباً في قيمها النفسية . والنقلات التي نظرنا في أمرها حتى الآن قد اتضح أنها تتلخص في أن تستبدل بفكرة معينة فكرة أخرى تقرب منها في التداعي على نحو من الأنحاء ، ثم هي - أعني هذه النقلات - كانت تسخر في خدمة التكثيف ؛ فبوساطتها كان ينفذ إلى محتوى الحلم عنصر متوسط مشترك بين عنصرين بدل هذين العنصرين جميعاً . ولكننا لم نذكر بعد على الإطلاق نوعاً آخر من النقل مع أن التحليل يرينا أن هذا النوع الآخر موجود ، وأنه يبين عن نفسه في تبديل التعبير اللغوي عن الأفكار . ففي كانتا الحاليتين يتعلق الأمر بنقل يتم على طول سلسلة المستدعيات ، ولكن ذات العملية تقع في منطقتين نفسيتين مختلفين ، فيكون حاصل هذا النقل - في حالة - أن يحل عنصر محل عنصر آخر ، على حين يقع - في الحالة الأخرى - أن يستبدل عنصر بمنطوقه اللفظي منطوقاً آخر .

هذا النوع الثاني من النقل الذي يقع عند تكوين الحلم لا يملك أهمية نظرية رفيعة وحسب ، بل هو - فوق ذلك - مؤهل تأهيلاً فريداً لأن يعطل ما يستخفي وراءه الحلم من مظهر اللامعقولة الخيالية . ذلك أن هذا النقل يؤدي في العادة إلى تلك النتيجة : أن تستبدل بعبارة تعرب عن إحدى أفكار الحلم إعراباً فاقد اللون مجرداً عبارة أخرى مشبهة عيانية^(١) . ومزية هذا الاستبدال - ومن ثم بغيته - واضحة كل الوضوح :

(١) [المراد بالعيانية ضد المجرد ، والعبارة المشبهة هي تلك التي تخلع على الفكرة شهاً محساً ، ضد العبارة

المجردة . وفي باب العبارة المشبهة تدخل معظم الاستعارات وضروب المجاز المرسل والكنائية] .

فما هو مشبه قادر على أن يُصوّر في الحلم ، قابل لأن يدرج في موقف من المواقف .
بينما التعبير المجرد يواجه التصوير الحلمى بصعوبات تشبه ما يواجه الرسام عند تصوير
المقال السياسى الافتتاحى بإحدى الصحف . ولكن قابلية التصوير لا تخرج وحدها غائمة
من هذا الاستبدال ، بل يمكن التكثيف والرقابة أن يخرجنا منه كذلك بما يخدم مآربهما .
ففكرة الحلم تظل غير قابلة للاستخدام ما بقيت في عبارة مجردة ، ولكنها ما أن تصاغ
في لغة مشبهة حتى يتيسر عن ذى قبل أن تظهر بين التعبير الحديد وبين سائر مادة
الحلم نقط التماس والعينيات ^(١) التى يقتضيها عمل الحلم ويخلقها خلقاً حين لا تكون موجودة
من قبل ؛ وذلك لأن الحدود العيانية في كل لغة أثرى مستدعيات بحكم تطورها من
أسماء التصورات المجردة . وفي وسعنا أن نتصور أن جزءاً كبيراً من العمل الذى يتم أثناء
تكوين الحلم — مستهدفاً رد أفكار الحلم المتفرقة إلى تعبير حلمى يكون على أكثر ما
يمكن من الوحدة والاختزال — إنما يتأدى بإدخال تعديل لفظى ملائم في العبارة عن كل
فكرة من أفكار الحلم . فإن اتفق في خلال ذلك أن كانت هناك فكرة ثبت منطوقها ورسخ
لسبب من الأسباب ، كان لهذه الفكرة أثرها في اختيار صيغ التعبير الممكنة عن سائر
الأفكار وفي تحديدها ، وربما كان ذلك منذ البدء على نحو ما يقع في قرص الشعر ؛
فإن القصيدة إذا التزمت القافية غل كل بيت فيها تاليه بقيدين : أن يعبر عن معناه
تعبيراً مناسباً وأن يحىء هذا التعبير متمشياً مع القافية ، وأحسن القصائد بالطبع .
ففيه العمد إلى القافية بل تحجىء المفكرتان وقد اختارت كل انفسها منذ البدء — بتأثير
متبادل — صورة لفظية لا يحتاج الاحتفاظ بالقافية بعدها إلا إلى القليل من الأعمال .

وهناك بضع حالات نرى فيها استبدال العبارة المشبهة بالمجردة يساند التكثيف الحلمى
من طريق أكثر بعد مباشرة : وذلك حين يفضى هذا الاستبدال إلى صيغة لفظية تحمل
من ازدواج المعنى ما يؤهلها للإعراب عن أكثر من فكرة واحدة من أفكار الحلم . وعلى
هذا النحو يدخل عالم النكات اللفظية بأجمعه في تناول عمل الحلم ويسخر لأغراضه .

(٢) [نريد بالعينية العلاقة التى تكون بين حدين كل منهما هو الآخر . ولقد سمينا الفعل الذى يقيم
هذه العلاقة « التعيين » Identifizierung (أنظر الهامش الذوقى في ص ١٧٢) ولهذا سمينا العلاقة نفسها
« العينية Identitat » ولم نقل « الذاتية » كما جرت العادة في المنطق لتجنب الخلط أولاً ثم لأن الشائع فهمه من
الذاتية هو كون الحد هو نفسه ؛ فالذاتية إن شئت عينية بين الحد وذاته لا بينه وبين غيره ، أو هى عينية
مجردة ، تكرار أجوف ، لا تتضمن الغيرية في ذاتها .]

وما لنا أن نعجب للتصيب الذى تشارك به الكلمة فى تكوين الحلم ؛ فالكلمة من حيث هى معقد أفكار كثيرة قد قدر عليها - إن جاز التعبير - الاشتراك^(١) ، وإن الأعصبة كالأفكار (القهرية والخاوف المرضية) لتنتهز هذه المزايا التى تهيئها الكلمة للتكثيف والتقعق انتهازا لا تقل فيه تبجحا عن الأحلام . فأما أن التشويه الحلمى يربح بدوره من هذا النقل اللفظى فذلك ما يسهل تبينه : فإن من مجال الخطأ أن تستخدم كلمة واحدة ذات معنيين بدل اثنتين لكل منهما معنى واحد ، ثم إن من شأن النزول عن طريقتنا المألوفة المتزنة فى التعبير لقاء طريقة أخرى مشبهة أن يعطل فهمنا ؛ وبخاصة أن الحلم لا ينبئنا مطلقاً هل الواجب أن نفسر العناصر التى يأتى بها بمعنى حرفى أو مجازى ، تفسيراً مباشراً أو بوساطة تعبير من التعبيرات الدارجة . والحق بوجه عام هو أننا حين نفسر أى عنصر من عناصر الحلم نغدو فى شك لا ندرى معه :

- أ (هل الواجب أخذ هذا العنصر بمعنى إيجابى أو سلبى (علاقة التضاد) ، أو
 ب (هل ينبغى تفسيره تفسيراً تاريخياً (فيكون أثراً من الآثار الذكورية) ، أو
 ج (تفسيراً رمزياً ، أو
 د (هل يجب أن يخرج تفسيره من نطقه^(٢) .

ومع هذا فإن من العدل أن نقول رغم هذا اللبس كله : إن التصوير الذى يتبى إليه عمل الحلم - ولا ننسى أنه تصوير لم يقصد منه إلى أن يكون مفهوماً - لا يواجه المترجم بصعوبات تفوق ما تطالع به الرسوم المهير وغليفية قراءها .

ولقد ذكرت من قبل أمثلة متكررة على تصاوير حلدية لم تتركب إلا لهذا الاشتراك فى التعبير اللفظى (مثل : « فتحت فيها بأوسعها »^(٣) فى حلم حقنة إرما ، و « أطل دون أن أستطيع الذهاب »^(٤) فى الحلم الذى ذكرته أخيراً فى ص ٣٤٥ إلخ .) وسأذكر الآن مثالا أخذ فيه صب الفكر المجرد فى عبارات مشبهة بنصيب كبير . وإن الفرق بين مثل هذا التفسير وبين تفسير الحلم بوساطة الرموز ليظل محددأ تحديداً قاطعاً : فى التفسير الرمزي

(١) [اللفظ المشترك هو الذى يحمل أكثر من معنى واحد .]
 (٢) [أى أن يبنى التفسير استناداً إلى أصوات الألفاظ المستخدمة فى رواية الحلم وما قد تتضمنه من تورية أو غيره .]
 (٣) [وكانت هذه الصورة تترجم فكرة : أن تفيض فى الحديث . أنظر ص ١٣٩ .]
 (٤) [وكانت هذه الصورة تعنى فى لغة مجردة : ما زال لى الحق فى الحياة .]

يترك اختيار مفتاح الرمز للمفسر ، وأما في حالات التفتيح اللفظي التي نحن بصددتها فالمفاتيح معلومة للجميع وواضحة هو العرف اللغوي الثابت . فلو أن المرء أصاب الفكرة الصحيحة في المناسبة الصحيحة ، أمكنه أن يفسر الأحلام التي من هذا القبيل تفسيراً كاملاً أو جزئياً وإن لم يستعن بمستدعيات الحلم .

حلمت سيدة من معارف الحلم الآتي : إنها في دار الأوبرا . مشهد لثا جنر دام حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً . نصبت في القاعة موائد جلس إليها أفا س ياكلون ويشربون . يجلس إلى مائدة من هذه الموائد قريب من أقربائها عاد حديثاً من رحلة شهر العسل مع عروسه وبجانبيهما رجل من طبقة النبلاء . يقال إن الزوجة الشابة قد أحضرت هذا النبيل معها من رحلة شهر العسل في علانية تامة كأنما أحضرت قبة . في القاعة برج عال وضعت فوقه منصة أحيطت بسياج حديدي . يقف على هذه المنصة قائد الفرقة الموسيقية وكانت له ملامح هانس ريختر . إنه يجرى في حلقة وراء سياجه هذا وقد تصعب منه العرق إلى درجة مروعة وهو يقود من موضعه ذلك الفرقة الموسيقية التي انظمت أفرادها حول قاعدة البرج . الحاملة - هي - قد قدمت في إحدى الشرفات مع صديقه لها (أعرفها) . تريد أختها أن تمد إليها من القاعة قطعة كبيرة من الجمر قائلة : إنها ما كانت تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول ، وإن البرد في الشرفات قد أصبح لا شك مثلياً . (كأنما كان ينبغي تسخين الشرفات أثناء هذا العرض الطويل .)

إن هذا الحلم قد حوى من اللمحات غير المعقولة ما فيه الكفاية ، وإن يكن فيما عدا ذلك قد التفت التفافاً طيباً حول موقف واحد . فما معنى هذا البرج الذي ينتصب وسط القاعة والذي منه يدير القائد الموسيقي فرقته ، ثم بخاصة تلك الجمرة التي تمدها إليها أختها ؟ لقد امتنعت عامداً عن طلب أي تحليل لهذا الحلم . ولكنني قد أمكنني بما أعرفه من علاقات الحاملة الشخصية أن أصل مستقلاً إلى تفسير أجزاء منه : كنت أعلم أن قلبها قد انعطف إلى موسيقى قضى مرض عقلي على مستقبله قبل الأوان . فرأيت أن آخذ البرج الذي في الحلم مأخذاً مجازياً ، فخرج أن الرجل الذي ودت لو رآته في محل هانس ريختر قد علا البرج^(١) دون سائر أفراد الفرقة . والبرج يصح وصفه بكونه صورة مزيجية ركبت بعطف بيان^(٢) ؛ فقاعدته تمثل عظمة الرجل وأما السياج

(١) [مجاز دارج في الألمانية بمعنى علام أو فاقهم .]

(٢) [Apposition] ويترجمه النحاة أيضاً بكلمة " البدل " . فالفكرة التي تعرب عنها صورة البرج

في الحلم هي : الرجل الذي كان موسيقياً عظيماً ، هذا الذي جن في أواخر حياته . وقلنا : " هذا الذي . . . الخ " بدل أو عطف بيان .]

الحديدى الذى يعدو الرجل خلفه مثل أسير أو مثل حيوان فى قفصه (وهو ما يشير إلى اسم الرجل المنكود)^(١) فيمثل مستأنف قدره . وربما كان « برج المجانين »^(٢) هو اللفظ الذى استطاعت هاتان الفكرتان أن تلتقيا فيه .

ويحق لنا بعد أن اكتشفنا منهج الحلم فى التصوير أن نحاول تطبيق المفتاح ذاته على البدوة الثانية غير المعقولة فى هذا الحلم ، وأعنى بها جمرة الفحم التى تمد بها أخت الحاملة يدها . إن « الجمرة » لا بد كانت تعنى « الحب المستسر » :

ما من نار ولا من جمر

يتقد ويستعر

مثل حب مستسر

لا يعلمه أحد^(٣) .

ونحن نراها فى الحلم هى وصديقتها وقد ظلنا قاعدتين^(٤) ، وأختها الصغيرة التى كانت لا تزال تأمل فى الزواج تسلمها جمرأ لأنها لم تكن تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول . ما هذا الذى قد طال ؟ إن الحلم يلوذ هنا بالصمت . ولو أن الأمر كان يتعلق بقصة لقلنا : إن المعنى هو المشهد . أما والأمر يتعلق بحلم فلنا أن نضع الجملة فى ذاتها نصب أعيننا ، وأن نقرر أنها ذات معنيين فنضيف : « حتى تتزوج » . ويؤيد بعد ذلك تفسير « الحب المستسر » ذكرها قريبها الجالس فى القاعة مع زوجه وما ينسب إلى هذه الأخيرة من الحب المكشوف . فالمقابلة بين الحب المستسر والمكشوف ، بين نارها وبرودة الزوجة الشابة تسيطر على الحلم . وفى كلتا الحالتين نجد رجلا « على المكاة » هو حد مشترك بين الرجل الذى من طبقة النبلاء وبين الموسيقى الذى كان معقداته الآمال الكبيرة .

إننا بالمناقشة السابقة نكون قد كشفنا فى النهاية عن عامل ثالث لا تنبغى الاستهانة بنصبيه فى تحويل أفكار الحلم إلى محتوى الحلم ، هذا العامل هو : اعتبار قابلية التصور فى المادة النفسية التى يستخدمها الحلم استخداماً خاصاً — أى فى صور مرئية

(١) Hugo Wolf .

(٢) [Narrenturm تعبير ألماني قديم يقال للمارستان .]

(٣) [من أغنية ألمانية شعبية .]

(٤) [تعبير ألماني دارج بمعنى : لم تتزوجا .]

على الأغلب . ولهذا كانت تُفَضَّل - بين الأفكار الثانوية المقرنة بأفكار الحلم الجوهريه - تلك التي تقبل التصوير المرئي ، وكان عمل الحلم لا يتردد في أن يتكلف صوغ الأفكار الرئيسة في صيغة لفظية جديدة ، ولو كانت أقل ألفة ، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى تيسير التصوير وما يؤدي - من ثم - إلى إنهاء التوتر السيكولوجي الذي ينجم عن التفكير المحبوك . وهذا الصب للمحتوى الفكري في قالب آخر قد يسخر في الوقت عينه في خدمة العمل التكنيقي ويخلق علاقات جديدة - ما كان لتكون لولا ذلك - بفكرة أخرى . هذا بينما يصبح أن تكون هذه الفكرة الأخرى قد غيرت هي نفسها منظوقها الأصلي لكي تلاقى الأولى في منتصف الطريق .

ولقد دل سيلبرير (١٩٠٩) على طريقة تمكنتنا من أن نلاحظ استحالة الأفكار إلى صور في أثناء تكوين الحلم ملاحظة مباشرة ، وتمكنتنا بذلك من أن ندرس هذا الوجه من أوجه عمل الحلم بمعزل عن غيره . فهو كان إذا حمل نفسه على عمل فكري وهو مكود يقابله النوم - رأى الفكرة تفلت منه وتظهر في محلها صورة كان يسهه عندئذ أن يرى فيها بديل الفكرة . وهو يصف هذا البديل وصفاً غير موفق كل التوفيق بقوله : إنه : « ذو رمزية ذاتية » (١) ، وأسوق هنا بضعة أمثلة من مقال سيلبرير ، كما أنني سأضطر إلى العود إلى هذه الأمثلة في موضع آخر [ص ٤٩٩] لخصائص معينة في الظواهر الملاحظة .

« المثال الأول : أفكر في أن على أن أراجع فقرة ناشزة في إحدى مقالتي :

« الرمز : أراني أسوى قطعة من الخشب . »

« المثال الخامس : أحاول أن أتبين الهدف من دراسات ميتافيزيقية معينة كنت انتويت القيام بها . هذا الهدف - كما حدثت نفسي به - هو أن يشق المرء طريقه في بحثه عن الوجود إلى صور أسمي من الشعور أو إلى طبقات أعلى من طبقات الوجود .

« الرمز : أدفع سكيناً طويلة تحت فطير كبير ، كما لو كنت أريد أن آخذ قطعة

منه .

« التفسير : إن حركة يدي بالسكين تعني (شق الطريق) الذي تحدثت عنه . . . وأما

(١) [كان فرض سيلبرير من هذه التسمية هو للدلالة على أن الصورة البديلة ترمز إلى العملية الفكرية من حيث هي فعل ذاتي بقدر ما ترمز إلى المحتوى الموضوعي للفكرة في ذاتها .]

مأخذ هذا الرمز فيبانه ، ما يأتي : يتفق بين الحين والحين ونحن إلى المائدة أن أقوم بقطع فطير كبير وتوزيعه . . . وهي مهمة أودها مستعينا بسكين طويلة مرنة يحتاج استعمالها إلى بعض العناية . ثم رفع الشرائح بعد قطعها رفعاً نظيفاً ، ذلك على الأخص ما يقترن ببعض الصعوبات : فلا بد هنا من أن تدفع السكين في تودة تحت الشريحة المقطوعة (شق الطريق ، ببطء حتى الوصول إلى الأسس) . بيد أن الصورة قد حوت من الرمز ما يزيد على ذلك : فالفطير الذي تراهى لى فى الصورة الرمزية كان من النوع الذى يصنع طبقات يمتازها السكين عند القطع (طبقات الشعور والتفكير) .

« المثال التاسع : ينقطع خيط تفكيرى وأحاول استئنافه ، ولكننى أضطر إلى التسليم بأن نقطة الاتصال قد غابت عنى تماماً .

« الرمز : صفحة من مؤلف ما ، سقطت سطورها الأخيرة . »

وإذ كانت النكات والاستشهادات والأغاني والأمثال تشارك بنصيب كبير فى الحياة العقلية للمثقفين ، كان مما يتفق وتوقعنا كل الاتفاق أن نرى هذا النوع من الأقتعة يكثر استخدامه إلى أقصى مدى فى تصوير أفكار الحلم . ما الذى يعنيه - مثلاً - أن تظهر فى الحلم عربات تحمل نوعاً واحداً من الخضر يختلف مما تحمله الأخرى ؟ إن ذلك هو الضد المرغوب فيه لقولنا : « كرنب وجزر » ، أى [- فهذا هو معنى ذلك التعبير فى اللغة الألمانية -] « شذر مذر » ، وهو - إذن - يعنى « الفوضى » . ولقد عجبت لأن هذا الحلم لم يرو لى سوى مرة واحدة^(١) . ولم تظهر رموز حلمية تصدق صدقاً شاملاً إلا بالنسبة إلى عدد قليل من الموضوعات وكانت تستند إلى التلميحات المألوفة للجميع وإلى التبديلات اللفظية . ثم إن الحلم يشارك الأعصاب والأساطير والعادات الشعبية فى مقدار لا بأس به من هذه الرموز .

ولا غرو فى أن تكون الأمور كذلك ؛ فإننا إذا أنعمنا النظر لم نجد مناصاً من التسليم بأن عمل الحلم لا يأتى على الإطلاق بشيء مبتكر حين يجرى هذا النوع من التبديل ، بل هو لكى يصبلى إلى هدفه - وهدفه فى هذه الحالة هو قابلية التصوير المتحرر من الرقابة - إنما يتبع الطريق التى يجدها ممهدة أمامه من قبل فى اللاشعور ويؤثر تلك التحويلات فى المادة المكتوبة التى يمكن أن تظهر للشعور كذلك فى صورة النكات والتلميحات ،

(١) والواقع أننى لم أصادف هذا التصوير بعد ذلك قط ؛ ولهذا صرت أنتشكك فى صحة هذا التفسير .

والتي تزدهم بها كل تخيلات العصبيين . وهنا يتكشف أمامنا فجأة سبيل إلى فهم تفسير شرزر التي دافعت عن صحتها الجوهرية في غير هذا الموضوع [ص ١١٥ و ص ٢٤٥ .] فاشتغال الإنسان بجسمه ليس بحال من الأحوال خاصة من خواص الحلم وحده ولا ميزة تميزه ، بل قد أرتبى تحليلاتي أننا نجد هذا الاشتغال دائماً بين الأفكار اللاشعورية للعصبيين ، وأنه راجع إلى التطلع الجنسي الذي يتجه في سن المراهقة إلى الأعضاء التناسلية للجنس الآخر ولذات الجنس أيضاً . ولكن المنزل - كما ألح عليه بحق شرزر و فولكلت ليس الدائرة الفكرية الوحيدة التي تستقى منها رموز الجسد - لا في الأحلام ولا في التخيلات اللاشعورية للعصاب . صحيح أني أعرف مرضى ظلوا مبقين على الرموز المعمارية للجسم ولأعضاء التناسل (والاهتمام الجنسي يعدو أعضاء التناسل الخارجة بكثير) : فالأعمدة والعمدان المتوجة تعني عندهم السياقان (كما في نشيد الإنشاد)^(١) ، وكل باب يدل على فتحة من فتحات الجسم (« ثقب ») ، وكل أنبوبة تذكر بالجهاز البولي ، الخ . ، إلا أن الأفكار المتصلة بحياة النبات أو بالطبخ قد تستخدم هي الأخرى بمثل هذه الكثرة عينا - لكي تستر الصور الجنسية . وإنما لنجد فيما يتعلق بدائرة الأفكار النباتية أن الطريق قد مهده العرف الجارى الذي هو خزنة الأخيصة الاستعارية منذ أقدم العصور (أنظر « كرمة » الرب و « البنور » و « حديقة » المحبوبة في نشيد الإنشاد) . كما أن التفكير في أقبح تفاصيل الحياة الجنسية وأبطنها - أو الحلم بها - قد يتأدى في إشارات ظاهرها البراءة إلى أعمال المطبخ ، وإن الأعراض المستترة لتستغل إلى الأبد على كل تفسير إذا نسينا أن الرمزية الجنسية تجد أحسن مجبأ لها وراء المألوف وما لا يستلفت الأعين . فمن الأمور المنطوية على معنى جنسى صحيح أن يأبى الطفل العصابي رؤية أى دم أو لحم نبي ، وأن يشمئز من البيض و « المكرونة » وأن يزيد الخوف الطبعى من الثعابين تلك الزيادة المفرطة عند العصبيين . وعلى الحملة فالعصاب حينما التجأ إلى مثل هذه الأقمعة فإنما يسلك طرقاً مرت بها الإنسانية جمعاء في أقدم مراحل العمران ولا تزال يشهد على وجودها إلى يومنا هذا وراء حجب شفاقة العرف اللغوى والمعتقدات والعادات .

وهنا ألحق بما تقدم الحلم المزدهر الذي أتى لإحدى مريضاتي ووعدت من قبل بسرده [ص ٣٢٥] ، وفيه أعلم بالأحرف المكبرة كل ما ينبغي تفسيره من عناصره تفسيراً

(١) [« وساقاه عمودا رخام مؤستان على قاعدتين من إبريز . » الإصحاح الخامس ، ١٥ .]

جنسيا . هذا وقد فقد ذلك الحلم الجميل رواءه في عين الحاملة بعد أن وقفت على تفسيره
 (أ) الحلم التمهيدى : تنهب إلى المطبخ حيث تجد خادميا وتؤنهما لأنهما لما تجهزا لها وقصنة و توكل.
 وفى أثناء ذلك تلمح عدداً كبيراً جداً من أوعية مطبخ من طراز عالى وقد قلبت على الأرض حتى يسقط ما علق بها من
 قطرات الماء. تضيف فى رواية ثانية : تنهب الخادمان طلباً لبعض الماء وتفسران حيثته إلى الخوض فى نهر علا
 ماؤه حتى يبلغ المنزل أو فناءه (١) .

(ب) الحلم الرئيس (٢) : تهبط من مرتفع عظيم (٣) فوق حواجز أو سياج غريبة الهيئة شد بعضها إلى
 بعض فى مربعات كبيرة وصنمت من خيزران مضفرى مربعات صغيرة (٤) . لم تكن هذه الحواجز مجعولة لكى يتسلق
 الإنسان فوقها ، ولهذا كانت تلاق عناء دائماً فى إيجاد موضع تضع فيه قدميها ، وتبنى نفسها لأن ردامها لم يشبك
 بأى منها ، بحيث ظلت مبقية على مظهرها اللائق (٥) وهى ماضية . كانت فى أثناء ذلك تحمل غصناً كبيراً
 فى يدها (٦) ، والحق أنه كان يشبه شجيرة غطتها زهور حمراء تفرعت عن الشجيرة وانتشرت (٧) . كانت هناك
 فكرة فحواها أن هذه أزهار كريسز ، ولكنها كانت تلوح فى الوقت نفسه مثل الكاميليا المفتحة - وإن كانت
 هذه لا تنمو بالطبع على الشجر . كان بيدها وهى تهبط غصن واحد فى أول الأمر ، صار فجأة اثنين ، ثم رجع
 واحداً من جديد (٨) . حين تبلغ أسفل المنحدر تكون الأزهار التى بأسفل الغصن قد أصابها ذبول عظيم .
 ترى عندئذ - بعد أن نزلت - خادماً من خدم المنزل ، وكان - كما تحب أن تقول - يمشط شجيرة مماثلة لى أنه
 كان يستخدم خشبة لكى يشرع بها خصلة سميكة من الشعر علق بالشجرة مثل الأشنة . كان هناك
 عامل آخر قطع أغصاناً مماثلة من حديقة من الحدائق التى أتى بها فى الطريق حيث ظلت مطروحة
 بحيث أخذ أناس كثير ون بعضها . ولكنها تسأل نفسها هل ذلك عمل مشروع ، هل تستطيع أن تأخذ واحداً (٩)
 هى الأخرى . يقف فى الحديقة رجل فى مقتبل العمر (وهو شخص تعرفه ، غريب عن العائلة) ، تنهب إليه لكى

- (١) أنظر ص ٣٢٥ فى تفسير هذا الحلم التمهيدى من حيث يعرب عن علاقة " عليه " .
- (٢) وهو حلم يصف سيرة حياتها .
- (٣) أى أنها تنحدر من أصل رفيع - وهو الضد المرغوب فيه للحلم التمهيدى .
- (٤) صورة مزيجة تجمع بين محلين : أولها هو ما كان يسمى فى منزل أبيها حجرة السطوح ، حيث كانت
 تلعب مع أخيها الذى صار موضوع تخييلاتها اللاحقة ، وثانيهما مزرعة يملكها عم رذل كان لا ينقطع عن
 معاكستها .
- (٥) ضد مرغوب فيه لإحدى ذكرياتها الحقيقية المتصلة بمزرعة عمها ، حيث كان من عادتها أن تتعري
 وهى نائمة .
- (٦) كما يحمل الملاك عود الزنبق فى صور البشارة إلى مريم .
- (٧) أنظر ص ٣٢٩ فى تفسير هذه الصورة المركبة : الطهارة ، الطمئ ، عادة الكاميليا .
- (٨) إشارة إلى تعدد الأشخاص الذين كانت تنصب عليهم تخييلاتها .
- (٩) أى هل يجوز لها أن تنتزع واحداً [وهو تعبير المانى عالى بمعنى :] أن تستنى .

تسأله كيف يمكنها أن تنقل هذه الأغصان إلى حديقته الخاصة^(١). يحتضنها الرجل فتدفعه وتسأله :
 فيم تفكر؟ أيقظن أن الناس يستطيعون احتضانها على هذا النحو؟ يجيبها قائلاً : إنه لا ضرر في ذلك وإن ذلك
 أمر مباح^(٢). يخبرها أنه على استعداد للذهاب معها إلى الحديقة الأخرى لكي يريها الزرع ثم يضيف شيئاً
 لا تفهم مراده منه تمام الفهم : غير أنني أحتاج إلى ثلاثة أمتار (وفي رواية أخرى : أمتار أربعة) أو ثلاث
 قصبات من الأرض . كأنه كان يطلب شيئاً ما لقاء استعداده ، أن يعوض نفسه من حديقته ،
 أو كأنه كان يريد أن يحتال على قانون من القوانين لكي يظفر منها بمغرم دون أن يصيبها الأذى . هل أرادها بالفعل
 شيئاً ما بعدئذ ؟ لا تدري .

إن هذا الحلم الذي أوردته لما اشتمل عليه من العناصر الرمزية خليق أن يوصف بأنه
 حلم « يورخ حياة » حاله ، وأمثال هذه الأحلام تعرض كثيراً في خلال التحليل النفسي ،
 ولكن أغلب الظن أنها لا ترد خارجه إلا نادراً^(٣).

إن في جعبي بالطبع الشيء الكثير من مثل هذه المادة ، ولكن سردها يجعلنا نوغل
 في بحث شروط العصاب ، ثم هي تذهب جميعها إلى نتيجة واحدة ، وأعني بها : أنه
 لا حاجة بنا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يتضمن نشاطاً رمزياً خاصاً به من جانب الذهن ،
 وإنما يستخدم الحلم الرموز الموجودة من قبل في التفكير اللاشعوري ، وهو يستخدمها
 لأنها أكثر اتفاقاً ومقتضيات تكوين الحلم من حيث قابليتها للتصوير ، ولأنها أيضاً تفلت
 عادة من الرقابة .

(١) لقد ناب الغصن عن عضو التناسل عند الذكر منذ زمن طويل ، وهو - بعد - ينطوي على تلميح إلى
 اسم عائلة المريضة .

(٢) يشير ذلك وما يتبعه إلى احتياطات منع النسل .

(٣) يجد القارئ حلماً آخر مماثلاً من نوع هذه الأحلام «المؤرّخة» بين الأمثلة التي سأضربها على الرمزية .
 في الحلم ، المثال الثالث . وهناك مثال ثان سرده رانك سرداً مفصلاً : " حلم يفسر نفسه بنفسه " [١٩١٠] .
 ثم مثال آخر تجب قراءته « مقلوباً » أورده ستينكل (١٩٠٩ ، ٤٨٦) .

التصوير بوساطة الرموز في الأحلام

أحلام نمطية أخرى (١)

إن تحليل الحلم الذى سبق - الحلم المؤرّخ - شاهد على أننى قد عرفت الرمزية في الحلم منذ البداية . ولكننى لم أنته إلى تقدير كامل لمدى انتشارها وأهميتها إلا على نحو متدرج ساير تزايد خبرتى ، وبتأثير من مؤلفات فيلهم شتيكل (٢) الذى قد يكون من المناسب في هذا الموضوع أن اتحدث بكلمة عنه .

إن هذا الكاتب الذى ربما كان ضرره بالتحليل النفسى يعدل نفعه قد قدم عدداً ضخماً من تراجم رمزية لم يفطن إليها أحد من قبل ، تراجم لم تلق في مبدأ الأمر تصديقا ولكن الشواهد لم تلبث أن تلبث أن جاءت بما يؤيد معظمها ، بحيث لم يعد مفر من قبولها . ولست أهون من قيمة الخدمات التى أسداها شتيكل في هذا الباب إذا أضفت أن التحفظ المشوب بالشك الذى قوبلت به آراؤه في أول الأمر لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات . فالأمثلة التى سند بها شتكل تفسيراته كانت غير مقنعة في كثير من الأحيان ، ثم هو قد استخدم منهجاً يتحتم نبذه ؛ لأنه غير حرى بالثقة من وجهة النظر العلمية . ذلك أن شتيكل قد اكتشف تفسيراته الرمزية من طريق الحدس ، بقوة هبة خاصة في فهم الرموز فهما مباشراً . ولكن مثل هذا الفن شئ لا يعتمد عليه بوجه عام ، لأنه يخاو من كل أعمال للنقد ، ولهذا تجردت نتائجه من كل حق على التصديق . فاستنادك إليه كالتماسك أن تؤسس تشخيص الأمراض المعدية على ما يصلك من إحساسات الشم وأنت إلى سرير المريض - وإن كان من المقطوع به أن ثمت أطباء حققوا ما لم يحققه

(١) [لم يظهر هذا القسم هـ من الفصل السادس في الطبعة الأولى من " تفسير الأحلام " . والكثير من مادته قد أضافه فرويد في طبعي عام ١٩٠٩ و ١٩١١ ولكنه أدرج المادة المضافة في الفصل الخامس في القسم الخاص بالأحلام النمطية . وأما القسم هـ بصورته الحاضرة المستقلة فلم يظهر للمرة الأولى إلا في طبعة ١٩١٤ مكوّنا من المادة المضافة في الطبعتين السابقتين وأخرى جديدة .]

(٢) ف . شتكل ، لغة الأحلام ، ١٩١١ .

غيرهم مستعينين بحاسة الشم هذه (وهي حاسة مبتسرة عند معظم الناس) ، أطباء كان يسعهم أن يشخصوا تيفوساً معمولياً بوساطة الشم .

ولقد جذب تقدم الخبرة التحليلية انتباهنا إلى مرضى يبدون مثل هذا الفهم المباشر لرموز الحلم على نحو يبعث على الدهش . هؤلاء المرضى كانوا في العادة يعانون جنون المراهقة ، بحيث غلب فترة الميل إلى أن تظن هذه العلة بكل حالم يبدى مثل هذا الفهم الرمزي . ولكن الحقيقة على خلاف ذلك ، فالمسألة هبة أو خاصة شخصية بدون دلالة مرضية ظاهرة .

وإن المرء إذا ألف الاستخدام الواسع الذي تلقاه الرموز في تصوير المادة الجنسية في الحلم لم يجد مناصاً من أن يسأل إذا كان الكثير من هذه الرموز يجيء على حسب دلالات ثابتة مثل «علامات» الاختزال ، ولقد يغرى عندئذ بتسطير كتاب جديد من كتب الأحلام وفق منهج الشفرة . والذي تمكن ملاحظته في صدد هذه المسألة هو هذا : أن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام ، بل من خواص التفكير اللاشعوري ، وتفكير الشعب بنوع خاص ، وأنا لنجدها في أغاني الشعب وأساطيره وروياته المتوارثة وفي التعبيرات الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها في الحلم . ولهذا لم يكن مفر من أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا أردنا أن نوفى معنى الرمز حقه وأن نناقش ما يتصل بفكرة الرمز من مشكلات متعددة لا يزال القسط الأعظم منها بغير حل. (١)

وعلى ذلك تقتصر ههنا على القول بأن التصوير بوساطة الرمز يدخل في عداد مناهج التصوير غير المباشر ، ولكن هناك دلائل من كل نوع تحذرنا من أن نزع بالتصوير الرمزي بين سائر أنواع التصوير غير المباشر قبل أن يكون في استطاعتنا أن نمثل خواصه التي تفرق بينه وبينها في تعريف جلي . والجامع المشترك بين الرمز والرموز إليه يكون واضحاً في طائفة من الحالات ، خفياً في طائفة أخرى ، حتى ليبدو اختيار الرمز شيئاً محيراً . وإن هذه الحالات الأخيرة على التحديد هي التي لا بد قادرة على أن تلتقي الضوء على المعنى الأخير الذي لعلاقة الرمزية ، وإنها لتدل على أن هذه العلاقة ذات طبيعة نشؤية : فالأشياء التي ترتبط اليوم برباط رمزي كانت على الأرجح تتحد في الأزمنة

(١) [١٩١١ :] أنظر مؤلفات بلويلر وتلاميذه من مدرسة زيورخ : مادير وأبراهام وغيرها - في

مسألة الرمزية ، وانظر من يشير إليه هؤلاء من المؤلفين غير الأطباء (مثل كلاينبول وغيره) . [١٩١٤ :]

قبل التاريخيه في عينية تصويرية ولغوية^(١) ، فالعلاقة الرمزية تبدو أثراً من عينية غابرة وعلامة عليها . ونستطيع أن نلاحظ في هذا الصدد كيف يقع في بعض الحالات أن يمتد الاتفاق في استخدام رمز من الرموز إلى ما وراء الجماعة اللغوية ، على ما نبه إليه شوبرت من قبل (١٨١٤)^(٢) ، كما أن بعض الرموز قديم قدم الكلام نفسه بينما بعضها الآخر لا ينقطع صكه على ممر العصور إلى يومنا هذا (مثال : المنطاد ، « زبلين ») .

والحلم يستخدم الرموز من أجل تصوير أفكاره الكامنة تصويراً مقنعاً . ومن الرموز المستخدمة على هذا الوجه عدد كبير يعنى دائماً - أو يكاد يعنى دائماً - ذات الشيء . ومع هذا ينبغي علينا أن نتذكر دائماً ما تتميز به المادة النفسية من مرونة خاصة . فقد يكون الواجب في أحيان جد كثيرة ألا يفسر الرمز الظاهر في محتوى الحلم بالمعنى الرمزي بل الحرفي ، ويجوز في أحيان أخرى أن يستمد الحلم من مادة ذكرياته الخاصة الحق في أن يستخدم كرموز أشياء من كل صنف لا تستخدم عادة هذا الاستخدام . ثم إن الحلم إذا أمكنه الاختيار بين رموز متعددة من أجل تصوير محتوى بعينه ، انتخب هذا الرمز الذي يرتبط من حيث محتواه الموضوعي بسائر أفكار الحلم ، أى الذي تدفع إلى قبوله أسباب فردية إلى جانب الأسباب النمطية .

وإذا كانت الأبحاث الجديدة في الحلم منذ زمن شرر قد جعلت من وجود الرموز الحلم أمراً لا يقبل المنازعة - فحتى هاقلوك إليس يسلم بأن من المحال التشكك في ازدخار أحلامنا بالرموز - فإن من الواجب أن نقر مع ذلك بأن حضور الرموز في الحلم لا يسهل مهمة التفسير وحسب ، بل يزيدها أيضاً صعوبة . ذلك أن طريقتنا

ويجد القارئ أصوب ما كتب عن هذا الموضوع في كتاب رانك وهانس ساكس (١٩١٣ ، الفصل الأول) . [١٩٢٥ :] وانظر أيضاً إرنست جونز (١٩١٦) .

(١) إن هذه النظرة تحظى بمضد قوى إذا أخذنا بنظرية اقترحها الدكتور هانس شبيرير (في تأثير العامل الجنسي في نشأة اللغة وتطورها ، إيماجو ١٩٢٢) . فهو يرى أن جميع الكلمات البدائية كانت تطلق على أشياء جنسية ثم أخذت تفقد بعد ذلك معانيها الجنسية هذه بإطلاقها على أشياء وأوجه من النشاط مختلفة كانت تقارن بما هو جنسي .

(٢) مثال ذلك أن المركب البخارية على الماء ترد في أحلام التبول عند الحالمين الهنغاريين مع أنهم لا يستخدمون كلمة Schiffen [أبحر] بمعنى "تبول" [كما هو الشأن في الألمانية] (انظر فرنسي وكذلك المثال ٦ من هذا القسم) . والناطقون بالفرنسية وبسائر اللغات الرومانية يستخدمون العرق في التصوير الرمزي للمرأة مع أن هذه الشعوب لا تملك شيئاً يشبه التعبير الألماني : "Frauenzimmer" (انظر ص ٢٣٤) .

المألوفة في التفسير وفقاً لمستدعيات الحلم تتركنا في حيرة حين نجىء إلى العناصر الرمزية في محتوى الحلم . فاحترام النقد العلمى يمنعنا من الاحتكام إلى مشيئة المفسر كما هو المنهج المتبع في الأزمنة القديمة والذي يبدو كأنما قد بعثته من جديد تفسيرات شتيكل الهمجيه . ونحن لذلك مضطرون حيال عناصر الحلم التي نرى أنها عناصر رمزية إلى أن نصطنع منهجاً مزيجياً يستند من ناحية إلى مستدعيات الحلم ويكمل الثغرات من ناحية أخرى بمعرفة المفسر للرموز . ومن واجبنا - إذ أردنا أن نتجنب كل اتهام بمتابعة الهوى في التفسير - أن نجتمع بين الحذر النقدي في حل الرموز وبين دراستها دراسة ملؤها العناية تستند إلى أمثلة قوية الدلالة بنوع خاص . والعجز عن الاستيقان الذي لايزال يعلق بعملنا في تفسير الأحلام ناشىء إلى حد عن نقص معارفنا - وهو نقص يمكن سده شيئاً فشيئاً مع التعمق في الاستقصاء - ولكنه ناشىء إلى حد آخر عن خصائص معينة في رموز الحلم . فهذه الرموز تملك في كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد - إن لم تملك العدد الكبير من المعاني - بحيث لا يمكن فهمها في كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق وحده ، كما هو الشأن في الكتابة الصينية . ثم إن هذا التكرار في معنى الرموز لا يلبث أن يلتقى بما يتميز به الحلم من قبول تفسيرات متعددة ، أى من القدرة على أن يصور في بعض محتواه أفكاراً ورغبات كثيراً ما تختلف اختلافاً واسعاً في طبيعتها .

وبعد هذه القيود والتحفظات أتابع الكلام فأقول : إن الإمبراطور والإمبراطورة (أو الملكة والملكة) يصوران حقيقة والدى الحلم في معظم الأحيان . وأما الأمير أو الأميرة فيصور الحلم أو الحاملة . غير أن هذه السلطة العالية التي تعزى إلى الإمبراطور قد تعزى أيضاً إلى عظماء الرجال ، وهكذا كان جوته - مثلاً - يبدو رمزاً إلى الأب في كثير من الأحلام (هيتشان) . - وتصور القضيبي عند الرجال كل الموضوعات المستطيلة مثل العصي وجذوع الشجر والمظلات (لأن انفتاحها يقارن بالانتصاب !) ، كما تصوره كل الأسلحة المستطيلة الحادة مثل السكاكين والخناجر والمعاول . ورمز آخر يكثر استعماله وإن لم يكن مفهوماً كل الفهم ، هو مبرد الأظافر (أبجامع الاحتكاك؟) - وأما العلب والصناديق والأدراج والدواب والمواقد فتصور الرحم وكذلك الموضوعات المحوفة والسفن وسائر صنوف الجوارى . - والغرف في الحلم ترمز في معظم الأحيان إلى النساء،

فإن صورت أيضاً مدخلها المختلفة ومخارجها لم يبق في هذا التفسير شك^(١). وأما الاهتمام بما إذا كانت الحجرة «مفتوحة» أم «مغلقة» فأمر يسهل فهمه في هذا السياق. (أنظر حلم دورا [الأول] في «طرف من تحليل حاله هستريا» [فرويد ١٩٠٥ هـ]).
 وأسنا نحتاج إلى أن نسمى صراحة المفتاح الذي يفتح الغرفة، ولقد استعان أولاند برمزي القفل والمفتاح في تأليف قطعة طريفة من الأدب المكشوف، في أغنية «الكونت ايرشتاين». — والحلم الذي يعبر فيه الحالم سلسلة من الحجرات المتتالية هو حلم بمنزل بغاء أو حريم. ولكنه — كما بين هانس ساكس في مثال بديع — قد يستخدم أيضاً (من قبيل التضاد) في تمثيل الزواج. وأما أن يحلم الحالم بحجرتين كانتا من قبل حجرة واحدة أو أن يرى حجرة واحدة يألفها قد انقسمت حجرتين، فيمن عن ارتباط بتطلع الطفل الجنسي خليق أن تنتبه إليه. ذلك أن الطفل يعد عضو التناسل عند المرأة منقطة واحدة وفتحة الشرج (النظرية الاستية عند الطفل) ولا يفتن إلا فيما بعد إلى أن هذه المنطقة تضم فجوتين وفتحتين مستقلتين. — وأما المرتفعات والدرجات والسلام والمسير عليها — سواء أكان صعوداً أم كان هبوطاً — فصور ترمز إلى الجماع^(٢). — وأما

(١) «حلم أحد مرضى — وكان يقيم في «بنسيون» — أنه قابل إحدى الخادمت على السلم، فسألها ما رقمها، فأجابته لدهشه: ١٤، والواقع أنه كان قد اتصل بهذه الخادم وزارها زيارات متعددة في غرفتها، وكانت الخادم تخشى طبعاً أن تتشكك سيدها في أمرها فاقترحت على الحالم في اليوم الذي سبق الحلم أن يتلاقيا في حجرة غير مشغولة. وكانت هذه الحجرة حقيقة هي الحجرة رقم ١٤، بينما حملت هذا الرقم في الحلم المرأة نفسها. ولا يكاد المرء يتخيل مثالا أوضح من ذلك دلالة على تعيين المرأة بالحجرة.» (جوز ١٩١٤ أ.). وانظر أيضاً أرتيميدوروس «رموز الأحلام» (ترجمة ف. س. كراوس فيينا ١٨٨١، ص ١١٠): مثال ذلك أن غرفة النوم تعني الزوجة، إذا كانت بالمنزل زوجة.

(٢) أكرر هنا ما قلته عن هذا الموضوع في موضع آخر (فرويد ١٩١٠ د): علمت منذ زمن غير بعيد أن سيكولوجيا بعيدا عن مجال عملنا قال لأحدنا: إننا نبالغ من غير شك في تقدير المعنى الجنسي المكنون للأحلام؛ فهو — مثلا — يحلم أكثر ما يحلم بالصعود، ومن المؤكد أن ذلك ما لا ينطوي على شيء جنسي. وأثار هذا الاعتراض اهتمامنا، فوجهنا اهتمامنا إلى ظهور المرتفعات والدرجات والسلام في الأحلام وسرعان ما أمكننا أن نتبين أن السلام (وما مثلها من الموضوعات) ترمز من غير أقل شك إلى الجماع الجنسي. وليس من الصعب أن نكتشف أساس هذه المقارنة. فنحن نبالغ القمة في حركات متعاقبة موقعة وفي لث متزايد، ثم إذا نحن نستطيع النزول إلى حيث كنا في قفزات قليلة مسرعة. وهكذا يعيد الصعود النمط التوقيمي للجماع. ثم لانسي شهادة العرف اللغوي؛ فهو يرينا أن «صعد» تستخدم بغير مزيد من التخصيص [في اللغة الألمانية] للدلالة على الفعل الجنسي، ونحن نقول عن رجل: إنه «صعاد» [أي ذو ولع بالنساء]، ونقول: «صعد وراء» [أي طارد، والمقدر هو المرأة]. ودرجات السلم تسمى في اللغة الفرنسية «marches»، ومنه: «un vieux marcheur» [أي «دراج قديم»]، وهو ما يعدل تعبيرنا الألماني «صعاد قديم» [أي زير نساء].

الحوائط الملساء التي يتسلقها المرء والواجهات التي يتزلق عليها - في هيلة شديدة عادة - فتمثل الأجسام الإنسانية الواقعة ، وهي على الأرجح تعيد في الحلم ذكريات عن تعلق الطفل بوالديه أو بالمرضع . والحوائط « الملساء » رجال . ولا يندر أن يتشبث المرء بـ « تنوعات » المنزل في أحلام الهيلة . - ويشبه للنساء بالموائد والموائد المعدة للطعام وبالألواح أيضاً - ولعل ذلك من قبيل التضاد إذ ترتفع هنا الدوائر البارزة في جسم المرأة . وأما « الخشب » على الجملة فيبدو من علاقاته اللغوية أنه ينبو عن المادة الأثنوية (Materic) وجزيرة ماديرا^(١) يعني اسمها الخشب في اللغة البرتغالية . وإذا كان « الفراش والحوان » يؤلفان الزواج فقد كثر أن ينبو ثانيهما عن أولهما وأن يترجم مركب الأفكار الجنسية إلى مركب الاعتداء . - وأما الملابس فيسعدنا في كثير من الأحيان أن نترجم قبعة المرأة بعضو التناسل ، وبعضو الرجل على التحديد . والأمر كذلك فيما يتصل بالمعطف ، وإن كنا لا نعلم إلى أي حد يرجع استخدام هذا الرمز إلى الجناس اللفظي^(٢) . ويكثر في أحلام الرجال أن تنوب ربطة العنق عن القضيبي ، وليس ذلك لمجرد كون ربطة العنق مستطيلة الشكل ، مدلاة ، مميزة للرجال ، بل لأن المرء أيضاً يختارها وفق هواه - وهي حرية منعت الطبيعة إياها فيما يتصل بالموضوع الرموز إليه^(٣) . ويغلب أن يكون الأشخاص الذين يستخدمون هذا الرمز شديدي الاحتفال بربطات عنقهم في حياتهم الواقعة وأن يملكوا مجموعات مستوفاة منها . - ومن المرجح أكبر الترجيح أن جميع الآلات والأجهزة المعقدة تقوم في الحلم مقام الأعضاء التناسلية - وأعضاء الرجل عادة - تلك الأعضاء التي لا يكمل الحلم من وصفها ، شأنه في ذلك شأن النكتة . ولا شك أيضاً في أن جميع الأسلحة والعدد تستخدم رموزاً إلى عضو الرجل : المحارث والمطارق والبنادق والمسدسات والخناجر والصوارم ، الخ . - ومن السهل أن نتبين كذلك أن المناظر الطبيعية

(١) [Madeira من اللاتيني Mater ومعناه الأم ، لاحظ الجناس مع Materci .]

(٢) [رجل = Mann في الألمانية ، ومعطف = Mantel .]

(٣) أنظر ربما منشورا في Zbl. Psychoanal. ، ٢ ، ١٧٥ ، [رورشاخ ، ١٩١٢] رسمه مريض بالهوس في التاسعة عشرة من عمره : رجل ربطة عنقه أفعوان يد رأسه إلى فتاة . وانظر أيضاً قصة « الرجل الخجول » (Anthropophyteia ، ٦ ، ٣٣٤) : دخلت سيدة في حجرة استحمام فصادفت رجلا لم يكده يفرغ من ارتداء قميصه ، ويخجل الرجل خجلا شديدا ولكنه يسارع إلى تغطية عنقه بمقدم قميصه قائلا : معذرة إذا كنت بغير ربطة عنق .

المتجلية في الحلم - وبخاصة إذا احتوت جسوراً أو قمماً تعلوها الأشجار - هي أوصاف للأعضاء التناسلية . ولقد جمع مارسينوفسكى طائفة من رسوم يوضح بها الحالمون ما ورد في أحلامهم من مناظر الطبيعة والحال . هذه الرسوم ترينا رؤية العين الفرق الذى بين معني الحلم الظاهر والكامن ؛ فبينما يلوح للعين غير المحققه أن هذه الرسوم تخطيطات أو خرائط أو ما شاكلة ، إذا الباحث الثاقب يتبين أنها تصور الجسد الإنسانى وتصور أعضاء التناسل ، الخ .، وحينئذ يتيسر فهم الحلم للمرة الأولى . (أنظر فى هذا الصدد مقالات فستر عن الكتابة بالرسوم والألغاز المصورة .) ولنا أيضاً أن نتساءل تجاه المركبات اللفظية غير المفهومة إذا لم تكن هذه المركبات قد تكونت من عناصر ذات معان جنسية . - ثم الأطفال ، هم أيضاً كثيراً ما يعنون فى الحلم أعضاء التناسل ، والحق أن من عادة كلا الرجل والمرأة أن يسمى عضوه [فى الألمانية] على سبيل الإعزاز : « صغيره » أو « صغيرها » . ولا يجانب شتيكل الصواب حين يعرف فى « الأخ الصغير » القضيب ، كما أن اللعب مع طفل صغير أو ضربه ، الخ .، تصوير كثيراً ما يصور به الحلم الاستمناء . - فأما تصوير الخشاء تصويراً رمزياً فهذا ما يتوسل إليه الحلم بصور الصلع وقص الشعر وسقوط الأسنان وقطع الرأس . فإن جاء أحد الرموز المألوفة إلى القضيب مضعفاً أو متكرراً ، عد ذلك استعاذة من الخشاء . ومجىء العظايا فى الحلم - وهى حيوانات تنمو أذيالها من جديد بعد قطعها - له كذلك هذا المعنى عينه . (أنظر حلم العظايا فى ص ٩١ .) - والحيوانات التى تتخذ رموزاً إلى أعضاء التناسل فى الأساطير والقصص الشعبي يلقى الكثير منها ذات الاستخدام فى الحلم : السمك والقواقع والقطط والفئران (لشعر العانة) ، ثم بنوع خاص ذلك الحيوان الذى هو أهم الرموز إلى قضيب الرجل : الثعبان . وتمثل الحيوانات الصغيرة والديدان صغار الأطفال مثل الإخوة والأخوات غير المرغوب فيهم ، كما أن التدود يمثل الحمل فى كثير من الأحيان . - ومن الحرى بالذكر رمز إلى عضو التناسل عند الرجل حديث العهد جداً ، هو المنطاد . وتبرر هذا الاستخدام علاقة المنطاد بالطيران ثم شكله أحياناً . - وهناك طائفة أخرى من الرموز ساقها شتيكل مدعماً إياها بالشواهد ولكنها مع ذلك لم تثبت ثبوتاً كافياً . ففولفات شتيكل - وبخاصة « لغة الأحلام » - تحوى أوفى مجموعة من التراجم الرمزية ، وبعض هذه التراجم ينم عن بصيرة نافذة كما أن التمهيص قد أيده من بعد ، مثال ذلك فصله عن رموز الموت ، ولكن افتقار هذا المؤلف إلى ملكة النقد مع نزوعه إلى التعميم مهما كان الثمن يبعثان على التشكك فى

تفسيراته الأخرى أو يقفان حائلا دون استخدامها ، بحيث ينبغي الأخذ بالحذر الجرم عند الرجوع إلى مؤلفاته . ولهذا كنت أقصر على ذكر أمثلة قليلة من تراجمه .

في رأى شتيكل أن اليمين واليسار يميلان في الحلم معنى خلقياً : « فطريق اليمين تعنى دائماً طريق الاستقامة ، فأما طريق اليسار فتعنى الجريمة . وهكذا قد يصور اليسار الجنسية المثلية أو الزنا بالمحارم أو الانحراف ، بينما يصور اليمين الزواج أو الاجتماع ببغى ، الخ . - كل هذا من وجهة النظر الخلقية للفرد الحالم دائماً . » (شتيكل ١٩٠٩ ، ٤٦٦) . ويقوم الأقارب في الحلم مقام أعضاء التناسل في غالب الأحيان (ص ٤٧٣) ، بيد أنى لا أستطيع أن أؤيد ذلك إلا فيما يتصل بالأبناء والبنات وصغار الإخوة والأخوات أى فيما يتصل بالأقارب الذين يدخلون تحت مقولة الصغير . كما أنى وجدت من جهة أخرى أمثلة مؤكدة ترمز فيها الأخوات إلى الصدر بينما يرمز الإخوة إلى الردين . ويفسر شتيكل عدم اللحاق بعربة بفرق في السن لا سبيل إلى محوه (ص ٤٧٩) . فأما المتاع الذى يحمله المرء في سفر فحمل من الخطيئة يثقل كاهله (ذات الموضوع) . بيد أن متاع السفر على التحقيق كثيراً ما يتبين أنه رمز لا يخطئ إلى عضو الحالم التناسلى . وحدد شتيكل - فوق ذلك - معانى رمزية للأرقام التى يكثر ورودها في الأحلام ، ولكن هذه التراجم لا تبدو مؤكدة التأكيد الكافى ولا صحيحة صحة شاملة - وإن كان تفسير شتيكل يبدو عادة مقنعاً في الحالات الجزئية . ولكن ثبت مع ذلك - من جوانب متعددة - أن الرقم ٣ يرمز إلى عضو الرجل التناسلى . وبين القضايا المعقدة التى ساقها شتيكل قضية تتعلق بالمعنى المزدوج الذى تنطوى عليه الرموز الجنسية ، فهو يقول : « أين هو هذا الرمز الذى لا يمكن استعماله فى آن واحد فى كلا المعنيين : المذكر والمؤنث ، بشرط أن تقبل الخيلة هذا الاستعمال ولو أقل قبول ؟ » إن هذا الشرط لا شك يزيل الشىء الكثير من اليقين الذى أطلقت به القضية ؛ إذ الواقع أن الخيلة لا تقبل هذا الاستعمال دائماً . ومع هذا أعتقد أنه لن يكون من نافلة القول إذا أضفت أن تجربتى تدل على أن قضية شتيكل تقصر عن مكافأة واقع يزيدنا تعقداً . فهناك إلى جانب الرموز التى تنوب عن أعضاء التناسل المذكرة والمؤنثة على السواء ، رموز أخرى تدل على أحد الجنسين دلالة غالبية أو تكاد تكون مانعة ، ثم أخرى لا نعرف لها إلا معنى مذكراً أو مؤنثاً : فأن تتخذ الأسلحة والموضوعات المستطيلة الصلبة رموزاً إلى الرحم أو أن تتخذ

الموضوعات المحجوفة (مثل الأدرج والصناديق والعلب وغيرها) رموزا إلى القضيبي - ذلك ما تأباه الخيلة على التحقيق .

وإنه لمن الصحيح أن نزوع الأحلام ونزوع الخيلة اللاشعورية إلى استعمال الرموز الجنسية استعمالا مزدوجاً يتم عن سمة أثرية ؛ لأن الطفل يجهل الفرق بين الأعضاء التناسلية وينسب ذات الأعضاء إلى كلا الجنسين . ولكن من السهل كذلك أن نساق إلى القول خطأ بوجود رمز جنسي مزدوج إذا نسينا أن هناك عكساً جنسياً عاماً يقع في كثير من الأحلام ، بحيث يصور المذكر بالمؤنث ، والعكس . وأمثال هذه الأحلام قد تعرب - مثلاً - عن رغبة المرأة في أن تكون رجلاً .

ومن الممكن كذلك أن تصور الأعضاء التناسلية بوساطة أجزاء أخرى من الجسم ، فتمثل عضو الذكر يد أو قدم ويمثل فتحة الفرج الفم أو الأذن أو حتى العين . وإفرازات الجسم البشري - المخاط والدموع والبول والمني ، الخ . - قد يحمل بعضها محل البعض الآخر في الحلم . وقد قيد رايتار (١٩١٣ ب) قضية شتيكل هذه - وهي صحيحة في جملتها - تقييداً نقدياً صائباً إذ لاحظ أن الأمر يتعلق في جوهره بإحلال إفرازات لادلالة لها محل آخر له دلالته كالمني .

هذه الإشارات على قصورها قد تكون كافية في الحث على دراسة أخرى جامعة أشد عناية^(١) . وقد حاولت من جانبي أن أتناول رمزية الحلم بمزيد من التفصيل في « محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي » (١٩١٦/١٩١٧)^(٢) .

وأضرب الآن بضعة أمثلة على استخدام أمثال هذه الرموز في الحلم ، أمثلة تبين كيف يستحيل الوصول إلى تفسير الحلم إذا استبعد المرء رمزية الحلم ، وكيف يضطر المرء في حالات كثيرة إلى التسليم بهذه الرمزية تسليماً لا منازعة فيه . غير أنني أود في الوقت عينه أن أحذر من المغالاة في تقدير أهمية الرموز في الحلم حتى نقصر ترجمة الحلم على ترجمة الرموز تاركين منهج الاستناد إلى مستدعيات الحالم . فالواجب هو أن

(١) إنه مهما كان الفرق بين رأي شرفر في رمزية الحلم وبين الرأي الذي أجرته على هذه الصفحات فن الواجب أن أنه إلى أن شرفر يجب أن يعد المكتشف الحقيقي للرمزية في الحلم ، وأن الأبحاث التحليلية قد استرجعت لكتابه مكانته بعد أن ظل هذا الكتاب الذي نشر منذ عهد طويل (١٨٦١) يعد أثراً من آثار خيلة جامعة .

(٢) [نقله إلى العربية الدكتور عزت راجح .]

تكمل كلتا الطريقتين الأخرى ، ولكن المحل الأول يظل دائماً - سواء من حيث العمل أو النظر - للطريقة التي بدأت بوصفها ، بينما تظل ترجمة الرموز في متناولنا من حيث هي منهج مساعد .

١ - القبعة من حيث هي رمز إلى الرجل

(أو إلى أعضاء الرجل التناسلية)^(١)

(نبذة من حلم امرأة في مقتبل العمر تشكو مخافة الأماكن الطلقة نتيجة الخوف من الفواية)

« أسير في شارع والفصل فصل الصيف حاملة قبعة من القش كان لها شكل غريب ، فقد مال جزؤها الأوسط متجهاً إلى أعلى بينما تدلت حافتها إلى أسفل (تلتكأ في الوصف ههنا) ، وتدلتنا بحيث صار أحد الجانبين منخفضاً عن غيره . وكنت في مزاج ملؤه المرح والشفة ، فلما مررت بجماعة من الضباط الشبان ، حدثت نفسى قائلة : ليس بينكم أحد يستطيع إيدائي . »

لما رأيت القبعة لا تستدعى شيئاً في ذهن الحاملة ، قلت لها : « لا شك في أن القبعة ترمز إلى عضو الرجل بجزئها الأوسط المتجه إلى أعلى وبحافتها المتدليتين . قد يبدو عجباً أن تكون القبعة رجلاً ولكنك تعلمين كيف تقول : وَقَعَتْ تحت القبعة [وهو تعبير ألماني بمعنى تَزَوَّجَتْ] . » وامتنعت عامداً عن أن أفسر لها تدلى حافتي القبعة تدلياً غير متساو ، مع أن أمثال هذة التفاصيل هي التي يجب أن تحدد اتجاه التفسير . ولكنني مضيت أقول : إنها وقد أصبح لها بذلك زوج له هذه الأعضاء الفاخرة لم تعد بحاجة إلى أن تخشى شيئاً من هؤلاء الضباط ، أي لم تعد بحاجة إلى أن ترغب في شيء منهم ؛ فقد كان ما تتخيله من إمكانية إغوائها هو السبب الجوهرى الذى يحول بينها وبين الخروج من غير حام أو صحبة . وكنت قد استطعت مراراً من قبل أن أفسر هيلتها هذا التفسير الأخير استناداً إلى مادة أخرى .

وكان مسلك الحاملة عقب هذا التفسير مسلكاً ملحوظاً إلى أبعد مدى : ذلك أنها استردت وصفها للقبعة وأصرت على أنها لم تقل قط : إن حافتها كانتا تتدليان . ولكننى كنت موقناً مما سمعت يقينا يستحيل معه التضليل ، فثبت على موقفي . وظلت هي صامته برهة تم وجدت الشجاعة الكافية لكي تسأل : ما معنى أن تتدلى إحدى الحصيتين عند

(١) من " إضافات إلى تفسير الأحلام " فرويد ١٩١١ .

زوجها دون الأخرى ، وهل الأمر كذلك عند جميع الرجال ؟ وبهذا اتضح تلك الخاصة العجيبة في القبة ولقي التفسير كله قبول الحاملة .
لقد كنت أعرف رمز القبة منذ زمن طويل حين روت لى الحاملة هذا الحلم . وكانت هناك حالات أخرى ، لكنها أقل شفافية ، جعلتني أعتقد أن القبة قد تنوب كذلك عن عضو المرأة التناسلي^(١) .

٢ - الطفل الصغير رمز إلى عضو التناسل

السقوط تحت العربة رمز إلى الجماع

(حلم آخر للمريضة السابقة)

أرسلت أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث اضطرت إلى أن تذهب وحدها . تركب بعد ذلك قطاراً مع أمها وتلمح صغيرتها وهي تسير على سكة الحديد بحيث لا يصبح مفر من وقوعها تحت عجلات القطار . تسمع قعقة عظامها (ويحدث ذلك في نفسها شعوراً غير مريح ولكنه لا يبلغ مبلغ الارتياح الحق) . تدير نظرها خارج نافذة العربة لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف ثم تنحى على أمها باللاممة لأنها تركت صغيرتها تخرج وحدها .

التحليل : ليس من السهل أن نورد التفسير الكامل لهذا الحلم ؛ فهو قد جاء بين أحلام تتابعت حلقاتها ولا يمكن فهمه إلا موصلاً بسائره ؛ وإن لمن الصعب أن نعزل المادة اللازمة لإثبات رموزه عزلاً كافياً . - رأت الحاملة أولاً أن رحلة القطار ينبغي تفسيرها تفسيراً تاريخياً ؛ فهي تشير إلى رحلة قامت بها حين غادرت مصحة للأمراض العصبية لانتحاج إلى أن نقول : إنها قد أغرمت بمديرها . وكانت أمها قد ذهبت إليها لتصطحبها وجاء الطبيب إلى المحطة وأسلمها باقة من الزهور ، هدية فراق ، وكان يخرجها كل الحرج أن تشهد أمها هذه التقدمة . وأمها - إذن - تظهر في هذا الموضع في صورة شخص يعكر صفو جهودها من أجل أن تحب ، وهو دور لعبته هذه السيدة الصارمة حقيقة والمريضة لا تزال فتاة . - وتدور مستدعياتها بعد ذلك حول هذه الجملة : تدير نظرها لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف . إن مظهر الحلم يحملنا بالطبع على أن نظن أن المعنى هو أجزاء فتاتها الصغيرة التي جرى القطار فوقها وطحنها . ولكن مستدعياتها تذهب

(١) أنظر مثالا من هذا النوع رواه كرشجراير (١٩١٢) . وروى شتيكل (١٩٠٩ ، ٤٧٥) . حلما ترمز فيه قبة ثبتت في وسطها ريشة مقوسة إلى رجل (عاجز عجزاً جنسياً) .

بها في اتجاه آخر : فهي تذكر أنها رأت والدها عارياً في غرفة الاستحمام مرة ، ورآته من الخاف . وتمضى المريضة فتحدثت عن الفروق بين الجنسين ، وتلح على كون الأعضاء التناسلية للرجل تمكن رؤيتها من الخلف بينما الحال مع المرأة خلاف . وفي هذا السياق تفسر المريضة بنفسها « الصغيرة » بكونها تعنى أعضاء التناسل و « صغيرتها » بمعنى أعضائها هي - وكانت لها طفلة في الرابعة . وهي تنحى باللائمة على أمها لأنها أرادت لها أن تحيا كما لو لم تكن لها أعضاء تناسل ، وتنبه إلى أن هذا اللوم متضمن في جملة الحلم الأولى : ترسل أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث تضطر إلى أن تذهب وحدها . فأن تذهب وحدها في الطريق يعني في مخيلتها أن تكون بغير رجل ، أى بغير حياة جنسية (Coire = سار مع)^(١) ، وإنما لتكره ذلك . ويخلص من كل رواياتها أنها - وهي فتاة - قد عانت الأمرين حقيقة من جراء غيرة أمها منها ، غيرة مبعثها إيثار أبيها لها .

فأما التفسير الأعمق لهذا الحلم فيتضح من حلم آخر أتاها في الليلة عينها ، وهو حلم عينت فيه ذاتها بأخيها . والحق أنها كانت فتاة كالولد ، ولكم سمعت أنه كان أولى بها أن تكون صبيا . هذا التعيين بالأخ قد أضفى وضوحا خاصا على ما تشير إليه « الصغيرة » من معنى عضو التناسل ؛ فالأم كانت تهدد الأخ (أى تهددها) بالخصاء ، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا عقاباً على اللعب بأعضاء التناسل ، وتعيينها ذاتها بأخيها يدل بذلك على أنها قد مارست هي نفسها الاستمناء - وهو أمر لم تعد تذكره اليوم إلا عن أخيها وحده . ويخلص من معطيات هذا الحلم الثاني أن المريضة لا بد قد حصلت على بعض المعرفة بأعضاء الذكر التناسلية في ذلك الوقت المبكر ، معرفة آلت بعد ذلك إلى النسيان . أضف أن هذا الحلم يشير إلى النظرية الجنسية التي يعتقد الأطفال بمقتضاها أن الفتيات صبيان محصيون . وإن حين أشرت إلى هذا الاعتقاد الطفلي أيدته على الفور بقصة تحكى عن ولد صغير يسأل فتاة صغيرة : مقطوع ؟ فتجيبه الفتاة : كلا ، كان كذلك دائماً .

وعلى ذلك فإرسال الصغيرة (عضو التناسل) إلى الشارع يتعلق في الحلم الأول أيضاً بوعيد الخصاء ، وهي في النهاية حانقة على أمها لأنها لم تلدها ولداً .

فأما أن « السقوط تحت العرية » يرمز إلى الجماع فلا يتضح من هذا الحلم ، وإن كان قد تأيد من مصادر أخرى متعددة .

(١) [coire فعل لاتيني بمعنى جامع ، وترجمته الحرفية سار مع أو ساير .]

٣ - تصوير أعضاء التناسل بوساطة

المباني والسلام والمغاوير

(حلم شاب كتمه مركب الأب)

يتمشى مع والده في مكان لا شك في أنه منتزه براتر^(١)؛ لأنه - أعني الحلم - يرى مبنى الروتوندا وقد تقدمه بناء صغير شد إليه منطاد بجبال ، غير أن المنطاد بدأ متراخياً بعض الشيء . يسأله والده لم كل هذا ؟ ويمعجب الحلم لسؤال أبيه غير أنه يشرح الأمر له . يجيبان بعد ذلك إلى فناء طرح على أرضه لوح من الصفيح . يريد والده أن ينتزع جزءاً منه ، ولكنه يدير البصر نحوه قبل الإقدام على هذا الفعل لكي يرى هل هناك عين ترقبه . يقول لأبيه : إنه لا يحتاج سوى إلى مصارحة الحارس وله بعد ذلك أن يأخذ ما أراد وهو خالي البال . ينحدر من الفناء درج إلى مغارة في جوف الأرض نجدت حوائطها تنجيداً وثيراً كما يكون للمقاعد الجلدية ، وفي نهاية المغارة دهليز طويل تبدأ بعده مغارة ثانية . . .

إن هذا المريض ينتسب إلى طائفة من المرضى لا يبشر العلاج معهم بخير كثير ؛ فهم يماشون التحليل مسافة معينة دون أن تظهر منهم مقاومة ما ثم بعد ذلك ينقلبون فلا يكاد يكون ثمت مجاز إليهم . ولقد استقل المريض بتفسير حلمه هذا استقلالاً كاد أن يكون تاماً ، فقال : « إن الروتوندا هي أعضاء التناسل عندي والمنطاد المشدود قدامها قضيبى الذي أرى في ارتخائه مدعاة إلى شكائى . » ولنا إذن أن نزيد كلامه تفصيلاً فنترجم الروتوندا بالردفين - اللذين يدخلهما الطفل بين أعضاء التناسل عادة - ونترجم المبنى الصغير الذى يتقدم الروتوندا بكيس الخصيتين . ويسأله أبوه في الحلم ما معنى هذا كله ، أى ما الغرض من أعضاء التناسل وما عملها ، ولكن لا يخفى أن العكس هو الصحيح بحيث يكون المسئول سائلاً . ولما كانت الحقيقة هي أنه لم يسأل والده مثل هذا السؤال قط فعلينا أن نقدر أن فكرة الحلم رغبة أو شيء أشبه بجملة شرطية : « لو أننى سألت والدى بعض الإيضاح الجنسي . . . » وستكشف لنا بقية الجملة عاجلاً .

وأما الفناء الذى طرح لوح الصفيح على أرضه فلا ينبغي أن نبدأ بأخذه مأخذاً رمزياً ، بل هو مستمد من محل عمل والده . ولقد اقتضى داعى الأمانة على السر أن أستبدل الصفيح بالمادة الأخرى التى يتجر فيها والد الحلم دون أن أغير شيئاً من نص الحلم فيما خلا ذلك . وكان الحلم قد التحق بمؤسسة أبيه واحتج احتجاجاً عنيفاً على ما

(١) [منتزه معروف في ضواحي فيينا ، ورد ذكره من قبل في ص ٢١٣ .]

رآه من تصرفات مشبوهة بعض الشيء كانت تعتمد عليها أرباح المؤسسة إلى حد ، ومن هنا جاز أن نكمل فكرة الحلم المذكور في الفقرة السابقة على هذا النحو : « (لو أنني سألته) لغشني مثلما يصنع بعمالته . » فأما الانتزاع الذي أفاد في تصوير غش الأب فيورد الحالم من تلقاء نفسه تفسيره الثاني : إنه يعنى الاستمناء - وهو تفسير عرفناه منذ زمن طويل (أنظر ص ٣٥٦) . ولكن يؤيده هنا آتم التأييد أن يُعْرَبَ عن السر الذي يحوط الاستمناء عادة بضده (من الممكن أن يؤقَى ذلك علانية) . ويتفق وتوقعنا بعد ذلك كل الاتفاق أن ينقل الاستمناء إلى الأب مثل السؤال في المشهد الأول من الحلم . وأما المغارة فيبادر الحالم - وهو يفكر في حشو حوائطها الوثير - إلى تفسيرها بالمهبل . وأضيف مستنداً إلى ما تعلمته من تحليلات أخرى أن النزول - مثل الصعود في بعض الحالات - يصف الاتصال الجنسي في المهبل (أنظر ملاحظاتي في ١٩١٠ د ، وانظر الهامش الذي في ص ٣٦١ من هذا الكتاب) .

وأما أن يتبع المغارة الأولى دهليز طويل ثم مغارة ثانية فيفسره الحالم أيضاً تفسيراً مستمداً من تاريخ حياته : فهو قد عرف الجماع حيناً ثم انقطع نتيجة للكف ويرجو اليوم أن يعينه العلاج على استرجاع قدرته . بيد أن الحلم يغمض مع ذلك قرب النهاية ، ولا شك في أن كل عارف سوف يرجح أن موضوعاً آخر قد أخذ يتطرق إلى المشهد الثاني من الحلم ويؤثر فيه تأثيره ، وهو موضوع يشير إليه عمل الوالد وتصرفاته المحتملة والمهبل الأول المصور في صورة المغارة ، وهكذا يستطيع المرء أن يفترض أن لهذا الموضوع صلة بالأم .

٤ - الرمز إلى أعضاء التناسل عند الرجل
بوساطة الأشخاض وعند المرأة بمنظر طبيعي
(حلم امرأة من عامة الشعب كان زوجها من رجال الشرطة)
(رواه ب . داتنر)

... وعندئذ اقتحم البعض الشقة فصاحت - وقد امتلأت رعباً - تستنجد رجلاً من رجال الشرطة ولكن رجل الشرطة هذا يخل في هدوءه كنيسة [Kirche] (١) كانت تسلم إليها علة من الدرجات (٢) ، وكان يصعبه أفاقان .

(١) أو كنيسة صغيرة [Kapelle] = مهبل .

(٢) رمز إلى الاتصال الجنسي .

كان يشمخ من وراء الكنيسة جبل (١) تعلوه غابة كثيفة (٢) . وكان رجل الشرطة يرتدى خوذة وصداراً معدنياً وعباءة (٣) وكانت له لحية سمراء ، وأما الأناقان اللذان كانا يصحبانه فقد شد كل منهما إلى حقه إزاراً أشبه بالفرازة (٤) . كان هناك طريق يبيل من الكنيسة إلى قمة الجبل وعلى جانبي هذا الطريق نبتت حشائش وشجيرات كانت تزيد على طول الطريق كثافة حتى صارت فوق قمة الجبل غابة حقيقية .

٥ - أحلام الخصاء عند الأطفال

(أ) استيقظ طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات وخسة أشهر - وكان من الجلي أنه لا يرتاح إلى فكرة رجوع والده من جبهة القتال - استيقظ ذات صباح متزعجاً ، سائلاً ، ملحاً في السؤال : لم كان بابا يحمل رأسه على طبق ؟ كان بابا يحمل رأسه على طبق في الليلة الماضية .
(ب) ويذكر طالب يعاني اليوم عصباً قهرياً شديداً أن الحلم الآتي قد عاده مرات متكررة وهو في السادسة من عمره : ينهب إلى الحلاق لكي يقص شعره . تدخل عندئذ امرأة ضخمة صارمة الملامح وتقطع رأسه . يعرف أن المرأة أمه .

٦ - رموز البول

إن الرسوم التي يراها القارئ هنا قد اكتشفها فرنسي في صحيفة هزلية هنغارية (هي صحيفة « فيديبوس ») فلم يفته أن يرى كيف يمكن استخدامها في تصوير نظرية الحلم ، ولقد سبق أوتو رانك إلى نقلها في مقال له (١٩١٢ أ) .

كانت هذه الصور تحمل العنوان الآتي : « حلم مربية فرنسية » ولكن الصورة الأخيرة التي ترينا المربية وهي تستيقظ على صراخ الطفل هي وحدها التي تجعلنا ندرك أن الصور السبع السابقة إنما تصور مراحل في حلم واحد . فالصورة الأولى تبين المنبه الذي كان ينبغي أن يؤدي إلى اليقظة : فالطفل يستشعر حاجة ويطلب معاونته على قضائها . ولكن الحلم ينحلي إلى الحاملة أنها تصطحب الطفل في نزهة وليست نائمة في غرفته . وهي في الصورة الثانية قد أخذته إلى جانب الطريق حيث نراه يتبول - ولها إذن أن تمضي في نومها . ولكن المنبه يستمر ، بل يزداد ؛ فالطفل إذ لا يجد أحداً يسارع

(١) Mons veneris [جبل الزهراء .]

(٢) Crines pubis [شعر العانة .]

(٣) في رأى خبير أن الشياطين المكتسية بعبآت وطراير ذات طبيعة قضيبية .

(٤) نصفاً كيس الخصيتين .

إليه يرفع صوته بالصراخ . وكلما ألح في إيقاظ مربيته وفي طلب عونها أكد لها الحلم أن كل شيء على ما يرام وأنه لا داعي يدعوها إلى الاستيقاظ . وفي هذا الوقت عينه يصور الحلم الزيادة في المنبه بالزيادة في أبعاد الرموز الرامزة إليه : فحجرى الماء الذى يحدثه التبول يزيد عنفوانا ، فما أن تأتى الصورة الرابعة حتى تصير منه الكفاية لقارب ذى مجداف ، ثم لجنادل ، فركب ذى شراع ، وفي النهاية باخرة . وهكذا استطاع رسام ماهر أن يصور الصراع بين حاجة عنيدة إلى النوم ومنبه لحوح يدفع إلى اليقظة تصويراً حاذقاً .

٧ - حلم سلم

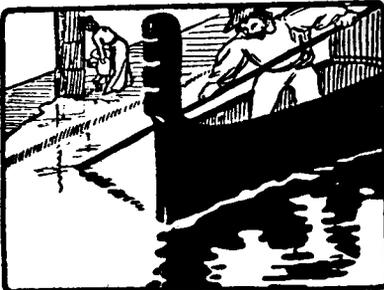
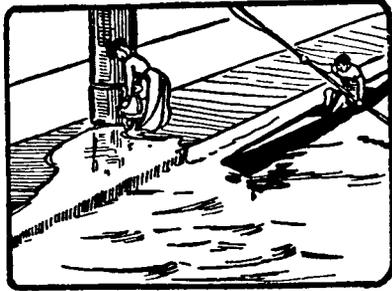
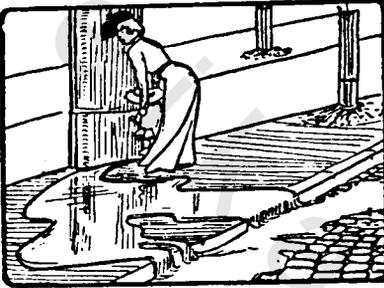
(رواه أوتو رانك وفسره)

« وأشكر أيضاً هذا الزميل الذى أدين له بحلم المنبه السنى (وهو حلم مذكور هنا فى ص ٣٩٢ وما بعدها) على حلم آخر من أحلام الإيماء لا يقل عنه شفافية :

« أنهب السلم ملاحقاً فتاة صغيرة ارتكبت فى حق شيئاً ما أريد عقابها عليه . يوقفها لى عند نهاية السلم شخص ما (أهو امرأة راشدة ؟) أمسك بالفتاة ، ولا أعلم هل ضربتها ، لأذى وجدتنى فجأة على منتصف الدرج أجامع الطفلة (كما لو كان ذلك فى الهواء) . لم يكن ذلك جماعاً حقيقياً ، بل كنت أحك بمضوى أعضائها الخارجية التى كنت أراها فى هذه الأثناء متميزة غاية التميز كما كنت أرى رأسها الذى ارتد إلى الوراء بميل إلى أحد الجانبين . وبينما كنت أخذاً فى الفعل الجنسي رأيت صورتين معلقتين فوق عن يسارى (كما لو كان ذلك أيضاً فى الفضاء) ، وكانت كلتاهما تصور منزلاً تحيط به الأشجار وكان اسمى مكتوباً بأسفل أصغر الصورتين فى موضع توقيع الرسام ، كما بما أريد بالصورة أن تكون هدية عيد ميلاد لى . وعلقت أيضاً أمام الصورتين لافتة كتب عليها : الصور الأرضى يمكن الحصول عليها أيضاً (وعندئذ أراى كما لو كنت نائماً فى سرير على فسحة السلم رؤية مبهمة إلى أبعد حد) ثم يوقفنى شعور بالبلل الذى أحدثه الإيماء .

« التفسير : ذهب الحالم فى مساء يوم الحلم إلى إحدى المكاتب وبينما كان ينتظر تلبية طلبه أجال بصره فى صورة كانت تعرض هناك وكانت تصور موضوعات أشبه بما رآه فى الحلم . وراقته بنوع خاص لوحة صغيرة فاقترب منها ليتبين اسم الرسام ، فكان اسماً لا يعرفه على الإطلاق .

« وحدث بعد ذلك فى هذه الأمسية عينها أنه كان فى رفقة جماعة من الأصدقاء ، فسمع قصة تحكى عن خادم بوهيمية كانت تفاخر بأن ابنها غير الشرعى قد صنع على السلم . واستفسر الحالم عن تفاصيل هذه القصة غير المألوفة فعلم أن الخادم اصططحت عاشقها يوماً إلى منزل والديها فلم يجدا هناك فرصة للاجتماع وغلب الشبق الرجل فأتى فعله



obeikandi.com

معها على السلم . وعندئذ لمح الحلم تلميحاً مازحاً إلى تعبير خبيث يطلق في وصف الأنثى المخلوطة : إن هذا الطفل قد جاء حقيقة ' من كرمه زرعت في بئر سلم ' .

« تلك هي وشائج الحلم باليوم السابق ، وهي وشائج ظهرت في محتوى الحلم بشيء من الإلحاح وسردها الحلم دون أن يلاقى في سردها صعوبة ما . ولكنه ذكر أيضاً بمثل هذه السهولة طرفاً من إحدى ذكريات طفولته ، ذكرى لقيت هي الأخرى في الحلم وجه استخدامها : فالسلم قد أخذ من المنزل الذي قضى فيه الحلم معظم طفولته وفيه - على الأخص - حصل أول معرفته الشعورية بالمسائل الجنسية . وكان الحلم كثيراً ما يلعب على هذا السلم ، ومن صنائعه في هذا المضمار امتطاء الجملتي والترحلق عليه وهو فعل كان يطلق عنده أحاسيس ذات طابع جنسى . وإنه في الحلم كذلك يتدفع على الدرج في سرعة خارقة حتى أن قلميه - على حسب تعبيره - لم تكونا - والحق يقال - تلمسان السلم درجة فدرجة ، بل كانتا « تطيران » طيراناً - كما نقول . فإذا حسبنا لهذه الخبرة الطفلية حسابها ، بدا أن بداية الحلم تصور عامل الهياج الجنسي . - غير أن الحلم قد عبث أيضاً مع أبناء الجيران عبثاً جنسياً فوق هذا السلم وسلم البيت المجاور وكثيراً ما أشبع رغباته الجنسية في خلال هذا العبث على نحو مماثل نحو إشباعها في الحلم كل المماثلة .

« فإذا تذكرنا أن أبحاث فرويد (أنظر ١٩١٠ أ [وانظر ص ٣٦٣ فيما سبق]) قد بينت أن السلام وصعودها تقوم في الحلم مقام الجماع قياماً لا يكاد يكون له استثناء ، غدا الحلم شفافاً كل الشفافية . فالدافع إليه - كما يظهر في الحقيقة من خاتمته ؛ وهي الإنزال - كان دافعاً ليبيدياً محضاً . فقد استيقظ الهياج الجنسي للحلم أثناء نومه - وهو ما تصور في الحلم باندفاعه على السلم - وكان في هذا الهياج عنصر سادى يرجع تكونه إلى عبث الطفولة ودلت عليه مطاردة الحلم للطفلة وسبقه إياها . وزاد الهياج الليبيدى شدة حتى حث على الفعل الجنسي - وهو ما تصور في إطباق الحلم على الطفلة وحمله إياها إلى منتصف السلم . وإلى هنا لم يكن الحلم جنسياً إلا على نحو رمزى ، ولعل الحلم كان يستغلق كل الاستغلاق على من لا مراس له بتفسير الأحلام . بيد أن مثل هذا الإشباع الرمزي لم يكف لأن يكفل للحلم رقوداً هادئاً ؛ لشدة التهييج الليبيدى . فكان أن أدى التهييج إلى الإنزال ، وبذا انكشف أن رمزية الحلم بمخاديفها كانت تصور الجماع . - وإذا كان

فرويد يذهب إلى أن أحد الأسباب الداعية إلى استخدام صعود السلم رمزاً جنسياً هو الطابع التوقيعي الذي لكلا الفعلين ، فهذا الحلم شاهد يؤيد كلامه في وضوح خاص ؛ لأن الحلم قد ذكر صراحة أن أبرز عناصر حلمه جميعاً كان توقيع الفعل الجنسي وحده صعوداً وهبوطاً .

« تبقى ملاحظة خاصة بالصورتين اللتين ظهرتا في الحلم بمعنى رمزي ، بمعنى 'صور نساء' (١) إلى جانب المعنى الموضوعي : إن ذلك ما يشهد به وجود صورة كبيرة وأخرى صغيرة مثلما جاءت في الحلم من قبل امرأة كبيرة (أو راشدة) وطفلة صغيرة . كما أن إمكانية الحصول على الصور الأرخص تؤدي إلى مركب البغايا . هذا بينما يلح إلى المركب الوالدى ظهور اسم الحلم في الصورة الصغرى ثم تفكيكه في أن هذه الصورة يراد إهداؤها إليه يوم عيد مولده (ولد على السلم = جاء نتيجة الجماع) .

« فأما المشهد الأخير غير المتميز - حين يرى الحلم نفسه راقداً في سريره على فسحة السلم مع إحساس بالبلل - فيبدو أنه يشير إلى عهد من عهود الطفولة يسبق عهد الاستمنااء الطفلي أيضاً . وأغلب الظن أنه مشهد يستمد مثاله المحتذى من مشاهد مشبعة أيضاً باللذة تتعلق ببلل القراش . »

٨ - حلم سلم معدل

كان بين مرضاي مريض ينفر من الحياة الجنسية نفوراً أملاًه عصاب شديد وكانت تخييلاته مثبتة على أمه وكان يحلم مراراً بأنه يصعد السلم في صحبتها . واتفق أني ذكرت له أن الاستمنااء مع شيء من القصد لن يضره في أغلب الظن ضرر امتناعه القهري هذا ، فكان من أثر هذه الملاحظة أنه حلم السلم الآتي :

« يؤخذ معلم البيانو على إماله المزف ولأنه لم يجد 'دراسات' ، موشليس ولا 'مراق البارناس' ، لكليمنى . »
ويعقب المريض على هذا الحلم فيلاحظ أن المراق أيضاً درجات وأن المزف نفسه درج لأنه يحتوي على سلام .

(١) ["Weisbilder" ، تعبير ألماني دارج بمعنى : نساء .]

إن المرء لا يجانب الحق إذا قال : إنه ما من طائفة من الأفكار إلا أمكن استخدامها في تصوير حقائق الحياة الجنسية ورغباتها .

٩ - الشعور بأن ما يرى في الحلم حقيقة وتصوير التكرار

قص رجل يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره حلماً يتذكره تذكراً واضحاً ويدعى أن هذا الحلم قد أتاه وهو في الرابعة من عمره : أحضر مسجل العقود المكلف بإنفاذ وصية والده - وكان والده قد مات وهو طفل في الثالثة - كثيرين كبيرتين ، أعطى إحداها إياكلها ووضعت الثانية على عارضة النافذة التي في حجرة الجلوس . واستيقظ الحلم وهو مقتنع بحقيقة ما رأى حتى أنه ألح على أمه في طلب الكمثرى الثانية مؤكداً أنها ما زالت بعارضة النافذة مما أثار ضحك أمه .

التحليل : كان مسجل العقود سيداً متقدماً في السن مرحح الطبع ، واتفق ذات مرة أنه أحضر حقيقة بعض الكمثرى - كما يعتقد الحلم تذكره . وأما عارضة النافذة فكانت كما رآها في الحلم ، ولم يخطر بباله خاطر آخر بصددتها - سوى أن أمه كانت قد روت له حلماً منذ زمن قريب : رأت طائرتين يقبعان فوق رأسها ، فسألت نفسها ، متى يطيران بعيداً عنها ؟ ولكنهما لم يطيرا بعيداً ، بل طارا أحدهما إلى فيها وأخذ يحسو منه .

وكان وقوف مستدعيات الحلم يخول لنا الحق في أن نحاول تفسير حلمه بترجمته الترجمة الرمزية : إن الكمثرين - تفاح وكمثرى^(١) - هما ثديا الأم اللذان غذياه ، وأما عارضة النافذة فهي بروز صدرها ، مثل الشرفات في أحلام المنازل [أنظر ص ٣٦٢] . وهو محق في شعوره بعد اليقظة بحقيقة ما رأى ؛ فقد أرضعته أمه حقيقة ، بل تبادت في ذلك إلى ما يعدو الحد المألوف كثيراً وكان صدرها إذ ذاك لا يزال مباحاً له . فالحلم تنبغى ترجمته : يا أمها ، اعطني (أو أريني) مرة ثانية صدرك الذي نهلت منه مرة من قبل . . و « المرة التي من قبل » قد ترجمت في الحلم بالكمثرى التي أكلت ، وترجمت « المرة الثانية » بسؤاله عن الأخرى . فالتكرار الزمني للفعل ينقلب في الحلم بانتظام إلى تكرار عددي للموضوع .

(١) [pommes et poires - رموز دراجة إلى الأثناء في اللغة الفرنسية .]

ولأن تأخذ الرمزية بنصيب في حلم طفل ما زال في الرابعة أمر بالطبع من أشد الأمور جذبا للنظر . ولكن ذلك ليس استثناء بل هو القاعدة . وما نجانب الصواب إذا قلنا : إن الحالم يجد لغة الرموز في متناوله منذ البدء .

وها هي ذى ذكرى خالية من كل تأثير غريب تقصها سيدة تبلغ اليوم السابعة والعشرين من عمرها ، وإنها لترينا بأى سن مبكرة يصطنع الإنسان لغة الرموز خارج الحياة الحاملة كما في داخلها : كانت منها بين الثالثة والرابعة حين أخذتها مربيها إلى مرفق المياه مع أخيها الذي يصغرها بأحد عشر شهراً وفتاة قريبة تتوسطهما في العمر ، لكي يقضى الجميع حاجاتهم قبل أن يخرجوا للزفة . وكانت هي أكبر الثلاثة فجلست على مرحاض الكبار في حين جلس الطفلان الآخران على الأصص المخصصة للأطفال . وهنا سألت الراوية قريبتها : أنت أيضاً تملكين كيساً ؟ إن فائز يملك صحناً صغيراً ، وأما أنا فكيس . فأجابت القريبة : نعم ، أنا أيضاً أملك كيساً . وسمعت المريية حديثهما ضاحكة ثم نقلته إلى سيدتها ، فكان جوابها تقريراً محمداً .

وأورد في هذا الموضع حلماً مكتنتنا رموزه البديعة المتقاة من تفسيره بغير كبير استعانة بمستدعيات الحاملة :

١٠ - « مسألة الرمزية في أحلام الأصحاء » (١)

« هناك اعتراض يكثر منه خصوم التحليل النفسى - وردده هافلوك ليس أخيراً (٢) وهو يتلخص في أن رمزية الحلم قد تكون نتاجاً للنفس العصابية ولكنها تفقد كل صدق فيما يتصل بالأشخاص السويين . وإن البحث التحليلي النفسى إذا كان لا يرى فارقاً أساسياً بين الحياتين السوية والعصابية ، بل كل الفرق عنده في الكم ، فإن تحليل الأحلام التي تعمل فيها المركبات المكبوتة عند المرضى والأصحاء على السواء يرينا عينية تامة بين الأحلام هنا وهناك ، سواء أمن حيث الميكانيكيات أم من حيث الرموز ، بل إن أحلام الأصحاء الساذجة كثيراً ما تحوى رموزاً أقل تعقيداً وأكثر شفافية ودلالة مما يرد

(١) عن ألفريد روبيتسك ، ١٩١٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) « عالم الأحلام » لندن ١٩١١ ، ص ١٦٨ .

في أحلام العصابيين ؛ فهذه قد تستغلق على التفسير وتتعدى نتيجة لفعل الرقابة الأشد وما ينجم عنه من تشويه أوسع نطاقاً . والحلم الذى أرويه ينفع في تصوير هذه الحقيقة . إنه حلم فتاة لا تشكو عصاباً ، يغلب على طبعها الخضر والتحفظ ، علمت وأنا أتحدث معها أنها قد خطبت ولكن تحول دون زواجها عقبات ربما ألحأت إلى إرجائه . ولقد روت لى الحلم الآتى من تلقاء نفسها :

« أمي^١ وسط إحدى الموائد بأزهار استعداداً لعيد ميلاد^(١) . وتقول الفتاة إجابة عن سؤال سألتها إياه : إنها بدت في الحلم كأنما كانت في بيتها (وهي لا تعيش فيه في الوقت الحاضر) . وأن شعوراً بالسعادة كان يخالجها .

« إن الرموز ' الشعبية ' تمكننى من ترجمة هذا الحلم وحدى . فهو يعرب عن رغبتها في العرس : فالماثلة المزدانة بالأزهار في وسطها ترمز إليها هي وإلى أعضاء التناسل عندها . وهي تصور رغبة المستقبل محققة : فها هي ذى تشغل بالتفكير في عيد ميلاد الطفل كأنما الزواج وراءها بينه وبينها أمد بعيد .

« وأقول لها : إن وسط إحدى الموائد^(٢) تعبير غريب بعض الغرابة (وهو أمر توافقى عليه) ولكننى بطبيعة الحال أحجم عن أن أوجه إليها سؤالاً مباشراً في هذا الصدد ؛ فقد كنت حريصاً على ألا أوحى إليها تفسير الرمز ، واكتفيت بسؤالها عما يدور بخلدتها فيما يتصل بأجزاء الحلم المتفرقة . ولم يلبث تحفظها أن انحسر في سياق التحليل ليحل محله اهتمام بالتفسير ومصارحة مكن لها ما اتسم به الحديث من طابع الجد . - سألتها أى الأزهار كانت ، فأجابت على الفور : أزهار غالية لا يتناها المرء إلا إذا دفع^(٣) ، ثم أردفت : زنايق الوادى وبنفسج وقرنفل^(٤) ، وتراءى لى أن كلمة الزنبق قد وردت في هذا الحلم بمعناها الشعبي من حيث هي رمز للطهارة ، فأيدت الفتاة كلامى لأن الزنبق يستدعى في ذهنها الطهارة . ولكن الوادى رمز أنثوى يشيع في الأحلام ، فكان رمزية

[I arrange the centre of a table with flowers for a birthday.] (١)

[the centre of a table.] (٢)

['Expensive flowers; one has to pay for them'] (٣)

['Lilies of the valley, violets and pinks or carnations' ?] (٤)

الحلم قد استغلت التقاء كلا الرمزين التقاء عارضاً في الكلمة الإنجليزية الدالة على هذه الزهرة^(١) من أجل توكيد نفاسة عندها - أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع - ومن أجل الإعراب عن أملها في أن يعرف رجلها كيف يقدر قيمتها حتى قدرها ولن نلبث دون أن نرى أن هذه الملاحظة : أزهار غالية . . . إلخ . كان لها معنى يختلف باختلاف الأزهار الثلاث الرامزة .

« ونخطر لي - وهو خاطر بدا لي غاية في الجرأة - أن أفسر 'violets' [بنفسج] الظاهرة الخلو من كل وجه جنسي بصلة بينها وبين الفرنسية 'viol' [اغتصاب] ، فشد ما كان دهشى إذ رأيت الحاملة تستدعى 'violate' وهي الكلمة الإنجليزية الدالة على : اغتصاب . فكأن الحلم قد استغل هذا الجناس العارض الكبير بين كلمتي 'violet' و 'violate' - والحق أنهما لا يختلفان في النطق الإنجليزي إلا من حيث نبرة المقطع الأخير - في الإعراب بـ 'لغة الأزهار' عن أفكار الحاملة حول القسوة التي في فص زهرة العناب (وهو تعبير آخر يستخدم لغة الرموز) ، ولعله استغله في الإعراب كذلك عن سمة ماسوشية من سمات طبيعتها - وهو مثال جميل على الجسور اللفظية التي يمر بها الطريق إلى اللاشعور . وأما قولها : لا ينالها المرء إلا إذا دفع فيعني - في هذا الموضع - حياتها التي يجب أن تدفعها لكي تصير زوجاً وأما .

« وأما كلمة 'pinks' [قرنفل] التي ألحقت بها مرادفها 'carnations' فقد ذهبت بخاطري إلى الصلة بينها وبين الكلمة الإنجليزية التي بمعنى "لحمي"^(٢) ولكن الحاملة فكرت في كلمة 'colour' (لون) ، ثم أضافت أن الـ 'carnations' [القرنفل] أزهار كان خطيبها يهديها إليها في مناسبات كثيرة وبمقادير كبيرة . غير أنها بعد أن فرغت من كلامها صرحت فجأة من تلقاء نفسها بأنها لم تقل الصدق : فالكلمة التي خطرت لها لم تكن 'colour' بل 'incarnation' (التجسد) [وبالحرف : الحلول في اللحم] - وهي الكلمة التي كنت توقعها . ونلاحظ بعد ذلك أن كلمة 'colour' ذاتها لم تكن جاءت عفواً ، بل ساقها معنى كلمة 'carnation' (لون اللحم)^(٣) ، وهي إذن كانت محتمة بالمركب .

(١) [قلنا : زنايق الوادي ، بترجمة حرفية لاسم هذه الزهرة في اللغة الإنجليزية تسهيلاً لمتابعة النص والمقصود نوع من الزينق أو السوسن .]

(٢) [المقصود كلمة carnal ويراد بها : حسي أو جنسي .]

(٣) [ويراد به الأحمر القرمزي .]

« وتريثنا هذه المواربة أن المقاومة قد بلغت في هذا الموضوع أقصى مداها وهو ما يتفق وكون الرمز كان ههنا أكثر ما يكون وضوحاً ، وأن الصراع بين الليبيدو والكبت قد بلغ أشده فيما يتصل بهذا الموضوع القضيبى . وملاحظة الحاملة أن خطيبها كان يهدى إليها هذه الأزهار كثيراً لم تكن تشير - إذن - إلى المعنى المزدوج الذى لكلمة 'carnation' وحسب ["قرنفل" و "في لون اللحم"] ، بل كانت تشير كذلك إلى مضمونها القضيبى فى الحلم . وهديّة الأزهار - وكانت هى الحدث اليومى الذى بعث على الحلم - قد استخدمت فى التعبير عن أفكار تدور حول تبادل العطايا الجنسية : إنها تهدي بكارتها وتنتظر فى مقابلها حياة من الحب الموفور . وهنا كان أيضاً لقولها : أزهار غالية ، لا ينالها المرء إلا إذا دفع - كان له معناه - ومعنى مالى ، حرفى ، من غير شك . - وهكذا اشتملت رمزية الزهور فى هذا الحلم على عذر الأنوثة ، ثم على الذكورة ، ثم على إشارة إلى فض البكارة عنوة . وإنه مما تنبغى الإشارة إليه فى هذا المجال أن الرمزية الجنسية للأزهار - وهى رمزية يكثر استخدامها من غير شك فى غير هذا المثال - ترمز إلى الأعضاء الجنسية للإنسان بالأزهار التى هى الأعضاء الجنسية للنبات . وربما كانت هدايا الزهور بين العاشقين تحمل بوجه عام هذا المعنى اللاشعورى .

« ثم إن يوم الميلاد الذى كانت الحاملة تعد له عدته يعنى ولا شك مولد طفل . فالحاملة تعين ذاتها بخطيبها وتصوره كما لو كان يهبها للميلاد ، أى يجامعها . والفكرة الكامنة يمكن إذن صوغها على هذا النحو : لو كنت إياه ما انتظرت ، بل كنت أفص زهرة خطيبى دون أن أسألها ، معملا العنف - وهى فكرة ألمعت إليها كلمة 'violate' وهكذا يبلغ المقوم السادى فى الليبيدو إلى الإفصاح عن نفسه .

« وربما كان لقولها : أهيبى . . . الخ . ، ربما كان له - فى طبقة أعمق من الحلم - مدلول العشق الذاتى ، أى مدلول طفلى .

« والحاملة حاصلة أيضاً على معرفة لا تتسنى إلا فى الحلم بتقصها الجسمى ؛ فهى ترى نفسها مسواة مسطحة مثل المائدة ، وهى لذلك تعلق من نفاسة الـ 'centre' [الوسط أو المركز] (وتسميه فى موضع آخر : جزءاً أوسط من الزهور) ^(١) ، أى عذرتها .

وهكذا شاركت أفقية المائلة بعنصر من عناصر الرمز . - وإنه لأمر حري بالملاحظة هذا التركيز في الحلم ؛ فما فيه من نافلة وكل كلمة رمز .

« وقد أتت الحالة من بعد بملمح لحلمها : 'أزين الأزهار بورق أخضر متجمد' ،^(١) ثم أضافت أنه كان 'ورق زينة' ،^(٢) من النوع الذى يستخدم فى تغطية أصوص الزهور المألوفة . ثم مضت تقول : 'إخفاء الأشياء القذرة ، كل ما قد تقع عليه العين ولا يلوح لها حسناً ؛ هناك فجوة أو فضاء صغير بين الأزهار' ،^(٣) . ثم : 'يبدو الورق مثل القطيفة أو الطحلب' ،^(٤) . ويذهب بها التداعى من كلمة 'decorate' (زين) إلى كلمة 'decorum' (اللباقة) - مثلما توقعت . واللون الغالب هو اللون الأخضر وهو يستدعى 'hope' (الأمل) - وهى إشارة أخرى إلى الحمل . إن السمة الغالبة فى هذا الجزء من الحلم ليست تعين ذاتها برجل ، بل الصدارة هنا لأفكار خجل ومصارحة : فهى تتجمل له وتسلم بما فى جسمها من معايب تثير خجلها وتحاول هى إصلاحها . ولقد كانت مستدعياتها فى صدد القطيفة والطحلب شاهداً واضحاً على أن الأمر يتعلق بشعر العانة .

« هذا الحلم يعرب إذن عن أفكار كانت الفتاة لا تكاد تعرفها فى حياتها المستيقظة أفكار تلور حول الحب الحسى وأعضائه : فهى كانت 'تهيأ للميلاد' أى تواصل بوصال جنسى . والحشية من أن تفض عنترتها تلقى هى الأخرى ما يفصح عنها ، وربما كان ثم ما يعرب كذلك عن ألم مشرب باللذة . والفتاة تصارح نفسها بمعاييبا الحسية وتعوض نفسها عنها بالمغالاة فى تقدير بكارتها . وحياءها يتلمس لها العنر على هذه النزعات الحسية ، وعندها أنها تهدف إلى الخلف . ثم بالإضافة إلى ذلك تدخل اعتبارات مادية ، غريبة عن ذهن الحب . كما أن الحالة الوجدانية المقترنة بهذا الحلم الساذج - وأعنى بها إحساس السعادة - تدل على أن مركبات عاطفية قوية قد وجدت فى هذا الحلم كفايتها . »

وما جانب فرنتسى الصواب - إذن - حين لاحظ (١٩١٧) أى سهولة نم بها

['I decorate the flowers with green crinkled paper.'] (١)

['fancy paper'] (٢)

['to hide untidy things, whatever was to be seen which was not pretty to the eye; there is a gap, a little space in the flowers.'] (٣)

['The paper looks like velvet or moss.'] (٤)

« أحلام الغافلين »^(١) بوجه التحديد عن معنى الرموز وعن تفسير الأحلام .

وفي هذا الموضوع أدرج حتماً لشخصية تاريخية معاصرة ؛ لأننا نرى فيه موضوعاً من الموضوعات التي تصلح بوجه عام لتمثيل عضو الذكر وقد أضيف إليه مجموع يرينا في وضوح ما بعده وضوح أن هذا الموضوع رمز قضيبي : فإن يطول سوط الفارس طولاً لا نهاية له - ذلك ما لا يسهل تفسيره بسوى كونه يعنى الانتصاب . يضاف إلى ذلك أن هذا الحلم يزودنا بمثال جميل يبين كيف يمكن أن تصور أفكار جديدة ، بعيدة كل البعد عن كل ما هو جنسى بوساطة مادة طفولية جنسية .

١١ - حلم لبسارك

(عن الدكتور هانس ساكس)

« يروى بسارك في كتابه «خواطر وذكريات» (الجزء الثاني من الطبعة الشعبية [١٨٩٨] ص ٢٢٢) خطاباً قصيراً كتبه إلى القيصر فيلهلم في ١٨ من ديسمبر عام ١٨٨١ . وكان الخطاب يتضمن تلك الفقرة: إن ما أفضت به جلالتهم إلي يشجعني على أن أروى حتماً أتاني ربيع عام ١٨٦٣ ، في أشد أيام ذلك الصراع الذي لم تكن تستطيع عين إنسان أن ترى منه مخرجاً : حلمت - وطلع الصباح فما لبثت حتى قصصت الحلم على زوجي وشهود آخرين - أنني أركب في طريق ضيق بين جبال الألب ، الهاوية عن يميني والصخور عن يساري والطريق تزيد ضيقاً بعد ضيق حتى أرى الحصان مواصلة المسير واستحال على أن أنزل أو أستدير ؛ لقلّة المتسع . عندئذ رفعت سوطي بيساري وهويت به على الصخرة الملساء وأنا أدعو الله ، فإذا السوط يطول إلى غير نهاية ، وإذا الصخرة تسقط مثل مشهد من مشاهد المسرح ، ويظهر طريق فسيح يشرف على تلال وغابات من قبيل ما نرى في بوهيميا ، ولاحت الفرق البروسية حاملة راياتها ، فأفكر - وأنا ما أزال بجملي - في أن أنبيء جلالتهم بالأمر من غير إهمال . ولقد صار هذا الحلم حقيقة واستيقظت منه مثلج الصدر ، مشدداً .

(١) [المراد بالغافلين من لا يعلمون شيئاً عن التحليل النفسى ومكتشفاته .]

« إن حركة هذا الحلم تنقسم قسمين : في الأول تضيق بالحلم السبيل ، ثم يخرج منها بأعجوبة في الثاني . وجلي أن الموقف الوعر الذى يقف فيه كلا الجنود وراكبه تصوير حلمي يصور الموقف الحرج الذى كان يلم برجل الدولة ، ولعله قد ذاق مرارة هذا الموقف بصفة خاصة وهو يفكر في مشكلات سياسته في ذلك المساء الذى سبق الحلم . ألا نرى بسمارك - في الفقرة التي أوردناها - يستعيد بنفسه تلك الصورة عينها في وصف ضائقته إذ ذاك؟ وهي إذن صورة مألوفة له كل الألفة ، قريبة من ذهنه كل القرب . ونحن - إلى جانب ذلك - نواجه مثالا بديعاً على ما يسميه سيلبرير ' الظاهرة الوظيفية ' ؛ فالعمليات التي تدور في ذهن الحالم - يلتبس الحلول فإذا عقبه كأداء تقف دون كل حل وهو مع ذلك لا يملك أن يجر نفسه من هذه المشاغل ولا يُحِل لها هذه الحرية - هذه العمليات تتمثل أوفق تمثل في الراكب الذي لم يعد يستطيع إقداماً ولا رجوعاً . وكبرياؤه التي تمنعه التفكير في أن يسلم أو أن يستعفى تتجلى في هذه الكلمات : استحال على أن أنزل أو أن أستدير . ولا بد أن بسمارك - وهو رجل العمل الذي لا ينقطع عن الكد ويهرق نفسه من أجل الغير - لم يكن بعيداً عن أن يشبه نفسه بالجنود . والحق أن بسمارك قد أتى بذلك التشبيه في مناسبات شتى ، مثال ذلك قوله المعروف : الحصاد الجيد ينفق وهو في زُنَاقَة . وعلى ذلك فقوله : أبي الحصان مواصلة السير ، لا يعني إلا أن رجل الدولة المنهك قد شعر بالحاجة إلى أن يتحول عن هموم الحاضر ، أو هو - إن شئت تعبيراً آخر - كان آخذاً في تحرير نفسه من قيود مبدأ الواقع بوساطة النوم والحلم . ولقد حوى الحلم من قبل - في قوله : طريق بين جبال الألب - بعض الإشارة إلى تحقيق الرغبة الذي يشتد في الجزء الثاني من الحلم كل هذا الاشتداد . فلا شك في أن بسمارك كان يعلم في ذلك الحين أنه سيمضي لإجازته المقبلة في جبال الألب ، في جاشتاين ، والحلم إذ ينقله إلى هذه الجبال يحله في دفعة واحدة من جميع أعباء الدولة .

« وأما الجزء الثاني من الحلم فيصور رغبات الحالم محققة ، ويصورها كذلك على نحوين : الأول سافر مفهوم ، والآخر رمزي . فأما التحقيق الرمزي ففي اختفاء الصخرة الكؤود وظهور الطريق الفسيحة - أي ' المخرج ' الذي كان يلتمسه - في أحسن صورها . وأما التحقيق السافر ففي تقدم الكتائب البروسية رافعة راياتها . ونحن لكي نفسر هذه الرؤيا

المتنبئة لا تحتاج إلى تشييد الفروض الصوفية ؛ ففي نظرية فرويد عن تحقيق الرغبة الكفائية كل الكفائية : لقد كان بسمارك إبان ذلك الحلم يرغب حقيقة في شن حرب ظافرة على النمسا تكون أحسن مهرب من المنازعات المتقدة في داخل بروسيا ، وهكذا يصور الحلم تحقق هذه الرغبة - متفقاً وفرض فرويد - حين يرى الحلم الكتاب البروسية رافعة راياتها في بوهيميا ، أى في أرض العدو . وكل القيمة الفردية في هذه الحالة هي أن الحلم الذى يشغلنا حلمه لم يكفه أن يحقق رغبته في حلم ، بل عرف كيف يفرضها حقيقة واقعة . وهناك لمحة لا يمكن إلا أن يلتفت إليها كل من له ألفة بالطريقة التحليلية النفسية في التفسير ، هي السوط الذى يطول إلى غير نهاية . إن السياط والعصى والرماح وما شابهها موضوعات نعرفها رموزاً قضيبية ، ولكن أن يملك سوط - فوق ذلك - أكبر الصفات التى تميز القضيب - قابلية الاستطالة - ذلك ما لا يكاد يترك مجالاً لشك . ويبدو أن المبالغة في الظاهرة ، من حيث الاستطالة ' إلى غير نهاية ' ، تدل على استثمار ليبيدى مفرط ، الطفولة مبدأه . وأن يمسك الحلم السوط بيده إشارة جلية إلى الاستمنا - وإن تكن الإشارة لا تتجه بالطبع إلى ملابسات الحلم المعاصرة بل إلى رغباته الطفلية المتمية إلى الماضى السحيق . ومن الكشوف الثمينة القيمة ههنا كشف شتيكل أن اليسار يعنى في الحلم الخطأ والمنوع والأثيم - وهو ما ينطبق كل الانطباق على الاستمنا الذى يزاوله الطفل رغم تحريره . وفى وسعنا أن نجد بين هذه الطبقة الطفلية العميقة والطبقة السطحية التى تخص مشاغل رجل الدولة الحاضرة طبقة وسطى كانت موصولة بكل منهما . ذلك أن جميع هذا الجزء المتعلق بخلاص من الحاجة يتم - فيما يشبه المعجزة - بسوط يضرب الصخر مع الدعاء إلى الله مؤيداً ونصيراً - يحمل شها ملحوظاً بمشهد من التوراة : حين يفجر موسى الماء من الصخر لأبناء إسرائيل الظماء . ولنا أن نفترض في غير تردد أن بسمارك كان يعرف هذه الفقرة وكل تفاصيلها ، وهو المنحدر من أسرة بروتستانتية حافظة للتوراة . ولا هو بالشئ المستبعد أن يكون بسمارك - بين أيام هذا الصراع - قد قارن نفسه بموسى ، موسى القائد الذى كافأه الشعب بالتمرد والبغضاء والجحود على ما أراد له من الخلاص . ومن هنا - إذن - كانت الصلة برغبات الحلم المعاصرة . ولكن فقرة التوراة قد حوت من التفاصيل ما ينطبق أيضاً على تخييل استمناى . فموسى يمسك العصا خارجاً على أمر الله ، ويعاقبه الرب فيعلنه أنه لا محالة مائت قبل أن يدخل أرض الميعاد . فالإمساك المحرم بالعصا - وهو ما يحمل في الحلم معنى قضيبيا لا لبس فيه - ثم

حدوث السائل من ضربتها ووعيد الموت ، كل أولئك يزودنا باللحظات الرئيسية في الاستمئاء الطفلي مجتمعة . ومن الطريف أن نلاحظ كيف لحمت - بوساطة فقرة التوراة هذه - هاتان الصورتان المتغايرتان الصادرة إحداهما عن ذهن رجل الدولة العبقري والنابعة أخراهما من نوازع النفس الطفلية لحماً أحرست في أثنائه كل العناصر الأئمة : فكون الإمساك بالعصا عملاً ممنوعاً عاصياً - ذلك ما لا يشار إليه إلا بإشارة رمزية ، باليد اليسرى التي أنقذته . والله يدعى في محتوى الحلم الظاهر كأنما أريد بذلك أن تستبعد استبعاداً ظاهراً كل فكرة في محرم أو مستور . ولقد أعلن الله موسى بأمرين : أنه سوف يرى الأرض الموعودة وأنه لن يدخلها ، فإذا الحلم يصور تحقق النبوءة تصويراً واضحاً (الإشراف على التلال والغابات) ويسكت عن الثانية البالغة نهاية مبالغ الألم . وأما الماء فلا يظهر ، وأغلب الظن أنه قد ضحى به من أجل المراجعة الثانوية التي جهدت جهداً موفقاً في أن تدمج هذا المشهد وسابقه في كل واحد ، وبدل الماء تسقط الصخرة نفسها .

« ولنا أن نتوقع عند انتهاء الاستمئاء الطفلي - وهو الذي ينطوى على فكرة المحظور - أن يرغب الطفل في ألا يعلم أولو الأمر في محيطه شيئاً مما صنع . وهذه الرغبة تصور في الحلم بضدها ، بالرغبة في أن يخطر الملك على الفور بما حدث . وهذا العكس يتسق اتساقاً حسناً طبعياً مع تخييل الانتصار المتضمن في طبقة أفكار الحلم السطحية وفي جزء من محتوى الحلم الظاهر . وكثيراً ما يكون الحلم بالانتصار والغزو - كما هو الشأن في هذا الحلم - غطاء يخفي الرغبة في النجاح في غزو عشق . وربما كان في بعض ملامح الحلم ما يشير إلى ذلك الاتجاه - كأن تعرض عقبة تقدم الحالم ثم تخلى مكانها لطريق فسيح بعد أن يعمل الحالم سوطه - ولكنها لا توفر أساساً كافياً نستطيع أن نستدل منه على أن الحلم قد ضم أفكاراً ورغبات تنج في هذه الوجهة المحددة . إننا نرى هنا مثلاً تاماً على تشويه حلمي نجاح كل النجاح . فكل محرقة قد صيغت صياغة جديدة بحيث لا تنبثق على الإطلاق من خلال الطبقة السطحية التي فرشت على الحلم كغطاء حام . وبذلك أمكن تجنب كل انطلاق للهيلة . والحلم حالة مثالية لرغبة حققت تحقيقاً ناجحاً دون مخالفة الرقابة ، بحيث نفهم أن الحالم قد خرج من مثل هذا الحلم مثلج الصدر ، مشدداً . »

وأختتم بهذا المثال :

١٢- حلم كيميائي

صاحب هذا الحلم شاب كان يبذل طاقته من أجل الإقلاع عن عادة الاستمناة لكي تكون له صلوات بالنساء .

تمهيد : كان الحلم في اليوم الذي سبق الحلم قد شرح لأحد الطلبة تفاعل جرينيارد - وهو ذوبان المغنيسيوم في الأثير المطلق النقاء بفعل اليود كعامل حافظ . وقبل ذلك بيومين كان هذا التفاعل قد أدى إلى انفجار كان من نتيجته أن احترقت يد أحد الطلبة .

الحلم : (١) عليه أن يحضر مركباً من البرومين والفانيل والمغنسيوم . إنه يرى الجهاز في وضوح شديد ولكنه قد استبدل بالمغنسيوم شخصه هو . إنه يجد نفسه الآن في حالة عجيبة لا تستقر ، ولا ينقطع عن التحدث إلى نفسه قائلاً : « كل هذا على ما يرام ، إن الأمور تسير سيراً حسناً ، فنامي قد أخذت بالفعل في الانحلال وركبتاي تلينان . » يديه بعدئذ ويتحسس قلبيه ، وفي هذه الأثناء يشد ساقيه من البوتقة (دون أن يدري كيف) ويحدث نفسه من جديد قائلاً : « إن ذلك مستحيل ، ومع هذا فالعمل يسير سيراً صحيحاً . » يستيقظ عندئذ استيقاظاً جزئياً ويعيد الحلم لنفسه لأنه يريد أن يقصه على . إنه يشعر بخوف من حل هذا الحلم ويشعر باحتياج شديد في أثناء غفوته هذه ولا يني يكرر : الفانيل ، الفانيل .

(٢) كان في ضاحية - بينج مع جميع أسرته ، وكان عليه أن يكون في الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة في شوتنتور (١) ليقابل سيبة معينة . ولكنه لا يستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة ، فيحدث نفسه قائلاً : « لقد فات الوقت ، لست تستطيع أن تكون هناك قبل الثانية عشرة ونصف الساعة . » وعلى أثر ذلك يرى الأسرة جميعها وقد جلست حول المائدة ، ويرى في وضوح خاص أمه والخادم التي تحمل وعاء الحساء . يحدث نفسه قائلاً : « لقد بدأنا نأكل ، فلست أستطيع الخروج بعد ذلك . »

التحليل : إن الحلم لا يشك في أن الجزء الأول من الحلم له أيضاً بعض الصلة بالسيدة التي كان يريد لقاءها (لقد أتاه الحلم في الليلة التي سبقت مواعده المنتظر) . إنه يعتقد أن الطالب الذي شرح له استجابة جرينيارد شخص ثقيل إلى أبعد حد . وهو يذكر أنه قد قال لهذا الطالب : « لقد أخطأت ، فليست هناك دلائل تدل على أن المغنسيوم قد تأثر . » فأجاب الطالب كأن الأمر لا يعنيه في شيء : « حقاً ، إنه لخطأ . » لا بد أن

(١) [« شوتنتور » مكان قريب من وسط فيينا . وأما « بينج » فالمراد بها ضاحية من ضواحي فيينا التي ينتهي اسمها بهذا المقطع . أنظر ص ٣١١ .]

هذا الطالب يمثله هو لأنه يستخف بالتحليل مثلما يستخف الطالب بالتركيب (الكيميائي) . والـ « هو » الذى يجرى العملية فى الحلم ليس إلا إياى . لا بد أنى أستقله لقلة مبالاته بالنتيجة .

والمريض من جهة أخرى هو المادة المستخدمة فى التحليل (التركيب فى الحلم) والأمر إذن يتعلق بنجاح العلاج . وإن الإشارة إلى ساقية لتذكره بحدث من الليلة السابقة : ذلك أنه كان يتلقى درسا فى الرقص والتقى بسيدة كان يحرص على غزوها . لقد ضمها إليه ضما شديداً حتى أنها صرخت مرة . فلما أرخى ضغطه أحس منها ضغطاً مقابلاً شديداً على أسفل فخذيه إلى ما فوق الركبتين ، فى الموضع المذكور فى الحلم . وفى هذا الموقف تكون المرأة التى تجرى الأمور معها أخيراً على ما يرام هى أيضاً المغنسيوم الذى فى البوتقة . إنه مؤث بالنسبة إلى كما هو مذكر بالنسبة إلى المرأة . والأمر تسير سيراً طيباً مع السيدة ، وهى إذن تسير سيراً طيباً فى العلاج . وأما تحسسه نفسه والأحاسيس التى شعر بها فى ركبته فتشير إلى الاستمنا ، ثم هى تتفق وتعبه المتخلف من اليوم السابق . وقد كان موعده مع السيدة فى الحادية عشرة ونصف الساعة حقيقة . وإن رغبته فى النوم والمكوث مع موضوعاته الجنسية المتزلية (أى فى المدوامة على الاستمنا) لتتفق ومقاومته .

أما فيما يتعلق برديده كلمة « الفانيل » فهو يروى أنه كان دائم الولوج بأصول الكلمات المنتهية بالقطع « يل » لأنها يسيرة الاستخدام غاية اليسر : بنزيل ، ، آستيل . . . إلخ . وكل هذا لا يفسر شيئاً . ولكنى أقترح عليه كلمة شليميل ^(١) فإذا هو يغرب فى الضحك ويقص على أنه قد قرأ كتابا للمارسيل بريفو جاء فيه فصل عن : « المبعدين عن الحب » ^(٢) حوى بعض الملاحظات عن « الخائنين » ^(٣) . فلما قرأه حدث نفسه قائلاً : تلك حالتى . — ولو أنه تخلف عن موعده ، لكان ذلك مثالا آخر على « خبيته » . ويبدو أن ورود الرموز الجنسية فى الأحلام قد لقي تأييدا تجريبيا مباشراً . ذلك أن

(١) [Schlemihl كلمة من أصل عبرى شاع استخدامها فى الألمانية للدلالة على شخص عاثر لا كفاءة

فيه ، أو كما نقول : خايب] .

(٢) ["Les exclus de l'amour"]

(٣) [يستخدم المريض هنا كلمة « شليميل » مصرفة تصريفاً فرنسياً : "les schlemiliés" .]

الدكتور شروتر قد أخذ في عام ١٩١٢ - استناداً إلى فكرة أوحاها هـ . شوبودا - بنوم بعض الأشخاص تنويماً مغناطيسياً عميقاً ، وكان في مقدوره أن يعلى عليهم جزءاً كبيراً من أحلامهم بإيحاءات كان يوحى بها إليهم وهم في نومهم . فكان إذا أوحى إلى النائم أن يحلم بجماع سوى أو غير سوى أنفذ المنوم هذا الإيحاء مستخدماً الرموز التي عرفناها بالتحليل النفسي بدل المادة الجنسية الصريحة . مثال ذلك أنه أوحى إلى فتاة أن تحلم بجماع جنسى مثلى مع صديقة لها ، فظهرت الصديقة في الحلم تحمل حقيبة بالية كتب عليها : « للسيدات فقط . » ويقال إن الحاملة كانت لا تملك أقل معرفة برموز الأحلام وتفاسيرها . وما يؤسف عليه أننا لن نتمكن من تقدير قيمة هذه الأبحاث الهامة تقديراً صحيحاً نتيجة لذلك الحادث المحزن ، وأعنى به انتحار الدكتور شروتر بعد القيام بها بزمن قليل . ولسنا نملك عن هذه الأبحاث سوى دراسة تمهيدية (شروتر ، ١٩١٢) .

وقد نشر ج . روفنشتاين كشوقاً مماثلة عام ١٩٢٣ . بيد أن التجارب التي أتاها بتلهايم وهارتمان (١٩٢٤) تحظى بأهمية خاصة ؛ لأن هذين الباحثين لم يلجأ إلى التنويم المغناطيسى . وإنما كان هذان المؤلفان يقصان قصصاً جنسية مكشوفة على المرضى المصابين بجنون كورساكوف وهم في حالة الهديان ، ثم يلاحظون ما يطرأ على هذه القصص من التشويه حين يعيد المرضى روايتها . فوجدنا أن الرموز التي عرفناها من تفسير الأحلام كانت تظهر في رواياتهم (صعود السلم والطعن وإطلاق النار رموزاً إلى الجماع ، والسكاكين ولفائف التبغ رموزاً إلى القضيب) . ويعلق المؤلفان قيمة خاصة على رمز السلم لأنه « ما من رغبة شعورية في التشويه كانت تستطيع أن تبتدع مثل هذا الرمز » كما يلاحظان بحق .

والآن بعد أن وزنا قيمة الرمزية في الأحلام ، نستطيع أن نعود إلى موضوع الأحلام النمطية الذي تركناه في ص ٢٩١ . إنى أعتقد أننا محقون حين نقسم أمثال هذه الأحلام قسمة إجمالية إلى طبقتين : أحلام تملك دائماً ذات المعنى ، وأحلام يجب تفسيرها على أنحاء تتباين غاية التباين وإن كان لها محتوى واحد أو متشابه . وقد سبق أن تناولت في شيء من التفصيل أحلام الامتحان بين أحلام الطبقة الأولى .

وتستحق أحلام فوت القطار أن تدرج في صف أحلام الامتحان . لما بينها وبين

هذه من التشابه في الحالة الوجدانية ، وإن تفسرها ليرينا أننا لا نجانب الصواب حين نفعل ذلك . فهي أحلام عزاء تطمئننا عن نوع آخر من الهيلة يتخالفنا في أثناء النوم ، هو هيلة الموت ؛ فإن « الرحيل » هو أكثر رموز الموت شيوعاً وأحسنها ثبوتاً . فهذه الأحلام تقول مرفهة : « لا تخف ، فأنت لن تموت (ترحل) » ، مثلما يقول حلم الامتحان مهوناً : « لا تخف سوف تسلم من الضر هذه المرة أيضاً . » ومرجع الصعوبة في فهم هذين النوعين من الأحلام هو أن شعور الهيلة يرتبط على التحديد بالعبارة عن العزاء .

ولقد خفي على حقبة من الزمن المعنى الذي للأحلام « ذات المنبه السني » - وهي أحلام كثيراً ما كان يجب على تحليلها عند المرضى - لأن مقاومة بالغة الشدة كانت تحول دائماً - لدهشى - دون تفسيرها .

وأخيراً أثبتت الدلائل في وضوح لا يترك مجالاً للشك أن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية في زمن المراهقة . وسأحلل حلمين من هذه الأحلام ، أحدهما هو في الوقت نفسه حلم طيران . وقد أتى كلا هذين الحلمين ذات الشخص ، وهو شاب ذو نزعات جنسية مثلية مشتدة ، ولكنها مكفوفة في الحياة الواقعية :

يشهد عرضاً لأوبرا « فيدليو » وهو جالس في قاعة الأوبرا وبجانبه شخص يستظره ويود لو كسب صداقته . يطير فجأة في القاعة حتى نهايتها ، ثم يضع يده في فمه ويجذب منه سنين .

إن الحلم يصف طيرانه قائلاً : إنه كان كمن « رى » في الهواء . وإذا كان المشهد أوبرا « فيدليو » فالبيت الآتي يطوف بالذهن :

« من ظفر بامرأة رشيقة . . . »

ولكن الظفر بامرأة - ولو كانت أرشقي النساء - لم يكن بين رغبات الحلم . وإنما الأنسب وهذه الرغبات هو البيتان الآتيان :

« من وفق إلى تلك الرمية الكبرى :
أن يكون صديقاً لصديق . . . » (١)

ولقد اشتمل الحلم حقاً على هذه « الرمية الكبرى » ، غير أن ذلك لم يكن يحقق رغبة وحسب ، بل كان يخفى كذلك تأملات أليمة للحالم : كم كان عاثر الحظ في مساعيه من أجل الصداقة ، كم من مرة « رى » فيها ، إنه ليخشى تكرار هذ المصير مع الشاب الذى يستمتع بمشاهدة « فيدليو » إلى جواره . يتبع ذلك اعتراف يخجل منه الحالم وهو على ما هو عليه من رفاهية الحس : ذلك أنه بعد أن نبذه أحد أصدقائه قد استمنى مرتين متعاقبتين مدفوعاً بشوقه .

وها هو ذا الحلم الآخر : يعالجه بدل أستاذان جامعيان يعرفهما . يصنع أحدهما شيئاً بقضيبه . إنه يخشى أن تجرى له عملية . يقرع الآخر فـه بقضيب من الحديد بحيث تسقط منه سن أو أستنان ، إنه مقيد بأربعة مناديل من الحرير .

إن الشك فى أن يكون لهذا الحلم معنى جنسى مثل يكاد أن يكون ممتنعاً . فنناديل الحرير تعين الحالم بشخص ذى جنسية مثلية يعرفه . والحالم لم يعرف الجماع قط ، ولم يعمل قط فى الحياة الواقعة على أن تكون له صلة برجل ، وكان يتمثل الرابطة الجنسية على غرار استمناء المراهقة الذى كان يألفه يوماً ما .

وأعتقد أن التعديلات المتعددة التى تطرأ على الحلم النمطى ذى المنبه السنى (كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر ، الخ - يمكن أيضاً فهمها فى ضوء التفسير الذى قدمناه (٢) . قد ندهش إذ نرى « المنبه السنى » وقد صار له هذا المعنى ، ولكننى أتبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه ، هذا النقل الذى يسخر لخدمة الكبت والذى يمكن لشتى الأفكار والمقاصد المسترية التى كان يجب - لولا الكبت - أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق فى أجزاء أخرى من الجسم على الأقل ، أجزاء لا اعتراض

(١) [هذان البيتان يعقبهما البيت الذى ذكر أولاً يأتیان فى قصيدة شيلر التى لحنها بيتهوفن فى السمفونيا التاسعة . ولكن البيت الذى ذكر أولاً : " من ظفر . . . إلخ . " قد جاء أيضاً وحده فى أوبرا فيدليو ، وهى لبيتهوفن لذلك .]

(٢) أن ينزع سن الحالم شخص آخر ، ذلك ما ينبغى تفسيره عادة بالخصاء (مثل قص الشعر عند الحلاق فى رأى شتيكل) . ولا بد من أن نفرق بوجه عام بين الأحلام ذات المنبه السنى وبين أحلام أطبة الأسنان كالتى يرونها كوريات (١٩١٣) .

عليها . ومن الأمثلة على هذا النقل أن يستبدل الوجه بأعضاء التناسل في رمزية التفكير اللاشعوري . والعرف اللغوي يحنو هذا الحنو حين يماثل بين الـ Hinterbacken ^(١) وبين الخدين ، وحين يوازن بين شفرتي العورة عند المرأة وبين الشفتين اللتين تضمان فتحة الفم . والمقارنات بين الأنف والقضيب أمر شائع ، ويزيد الشبه اكتمالا وجود الشعر في كل منهما . والعضو الوحيد الذي يخرجه تركيبه عن كل مقارنة ممكنة هو السن ، ولكن هذا الالتقاء على التحديد بين التشابه والاختلاف هو الذي يؤهل الأسنان لخدمة المقاصد التصويرية حين تشتد وطأة الكبت الجنسي .

ولست أدعى أننا حين نفسر أحلام المنبه السني بكونها أحلام استمناء - وهو أمر لا أستطيع التشكك في صحته - نأتي بتفسير يخلو كل الخلو من الغموض ^(٢) ، وإنما أعطى القدر الذي أستطيع من الإيضاح ، فأما الباقي فلا مناص من تركه على علته . بيد أنني لا أجد غنى عن الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوي ؛ ففي بلدنا يشيع تعبير غير مهذب يطلق على فعل الاستمناء هو : « شد [أو انتزع] واحداً إلى خارج » أو « شد واحداً إلى أسفل » ^(٣) . ولست أدري شيئاً عن منشأ هذين التعبيرين أو عن التخيل الذي أقبها عليه ، ولكن الأول منهما قد يناسب الحديث عن « السن » كل المناسبة .

وإذ كان الحلم بانتزاع السن أو سقوطه يعني موت أحد الأقرباء في زعم الاعتقاد الشعبي ، وكان التحليل النفسي لا يقر مثل هذا التفسير اللهم إلا بالمعنى المازح الذي أوامت إليه من قبل على أكثر تقدير ، فإنني أسوق هنا « حلماً ذا منبه سني » مدني به أوتو رانك :

« بعث إلى زميل بدأ يهتم منذ عهد قريب بمشكلات تفسير الأحلام بالمذكورة الآتية في موضوع الأحلام ذات المنبه السني :

« حلمت منذ زمن قريب بأنني في عيادة طبيب الأسنان الذي كان يحفر سناً خلفية في الفك الأسفل . وأعمل

(١) [ويعني الردفين ، وترجمته الحرفية هي : الخدين الخلفيين .]

(٢) تحمل الأحلام ذات المنبه السني عند النساء المعنى الذي لأحلام الوضع ، على حسب إفادة من يوفج . والعنصر المشترك بين هذا التفسير والتفسير المقترح فيما فوق هو أن الأمر يتعلق في كلتا الحالتين (الخشاء والولادة) بانفصال جزء من الجسم عن الكل .

(٣) أنظر ٥٢ الحلم « المؤرخ » في ص ٣٥٦ .

الطبيب الحفر بقوة حتى لم تدمد في السن جدوى ثم أمسكها بمقبض واقتزعتها في سهولة خلت من الجهد إلى حد أدهشني. يخبرني الطبيب ألا أكثرث لذلك ؛ فهذه في الحق ليست السن التي يعالجها . ثم وضع السن على مائدة حيث انقسمت (وقد بدا لي الآن أنها ذاب علوى) طبقات متعددة . نهضت من المقعد واقتربت من المائدة مستطلماً ، ثم سألت الطبيب سؤالاً طبيياً يهمني . فجعل الطبيب - بينما كان يفصل أجزاء السن التي لاحظت لي بالغة مبلغاً عجبياً من البياض وينقها بعملة من عدده (يحيلها إلى رماد) - جعل يشرح لي أن السن علاقة بالمراهقة وأن الأسنان لا تتخرج بمثل هذه السهولة إلا قبل المراهقة وأن العامل الحاسم في حالة النساء هو أن يولد طفل .

وعندئذ لاحظت (وأنا نصف نائم فيما أعتقد) أن الحلم قد اصطحب بالإنزال ، ولكنني لم أعرف بأى جزء من أجزاء الحلم ارتبط هذا الإنزال - وإن لاح لي أن الأرجح هو أن يكون حدوثه قد سبق خلع السن .

ثم بعد ذلك حلمت من جديد بمحادثة لم أعد أذكرها ولكنها انتهت على هذا النحو :
أترك سترتي وبقمتي في مكان ما (ربما كان حجرة نزع الثياب بعيادة الطبيب) أملاً أن يتبعني البعض بهما وأسرع ولست أرتدى غير معطى إلى الحاق بالقطار الذي كان آخذاً في الرحيل . أفلح في اللحظة الأخيرة في القفز إلى عربة خلفية حيث أجد أحد الناس واقفاً . ولكنني لا أتمكن من شق طريقى إلى داخل العربة بل أراى مضطراً إلى السفر في موقف غير مريح أحاول التخلص منه وأفلح في ذلك آخر الأمر . ندخل في نفق كبير ويأتى قطاران في الاتجاه المقابل لنا ثم ينفذان من خلال قطارنا - كما لو كان قطارنا هو النفق . أتق النظر إلى داخل إحدى العربات كما لو كنت ألقيه من خارجها .

إن المادة اللازمة لتفسير هذا الحلم تمدنا بها الخبرات والأفكار الآتية المستمدة من اليوم السابق :

(١) كنت حقيقة آخذاً في علاج أسناني منذ زمن قريب وكنت حين جاء هذا الحلم أعانى ألماً مستمراً في سن بالفك الأسفل هي التي كانت تحضر في الحلم ، وكان الطبيب قد حفرها كذلك في الواقع وقضى في حفرها زمناً أطول مما أحببت . وكنت قد ذهبت في صبيحة اليوم الذي سبق الحلم إلى طبيب الأسنان من جراء هذا الألم ، فأوحى لي أن من الضروري أن تخلع سن أخرى في ذات الفك قائلاً : إنها قد تكون السبب في هذا الألم . وكانت هذه السن الأخرى 'ضرس عقل' كان ينبت في ذلك الحين . ولقد أثرت بهذه المناسبة سؤالاً يتعلق بالضمير المهني للطبيب .

(٢) اضطررت إلى أن أعتذر في عصر ذلك اليوم إلى إحدى السيدات عما كنت

عليه من سوء المزاج من جراء هذا الألم. فأخبرتني السيدة عندئذ أنها تخشى أن تضطر إلى أن تخلع ضرساً لها كان طربوشه يتفتت كل التفتت. إنها تظن أن خلع الأسنان يزيد ألماً وخطراً في أسنان العين (١) بخاصة ، وإن يكن بعض معارفها قد أكد لها من جهة أخرى أن أسنان الفك الأعلى - مثل سنها - أسهل خلعاً . وروى لها هذا الشخص أيضاً كيف كان الخطأ مرة سبباً في أن تخلع له سن سليمة بعد التخدير ، فزاد ذلك ارتباها من العملية المحتومة . ثم بعد ذلك سألتني هل أسنان العين ضرورية أو أنياب ، فأشرت إلى ما تحويه هذه المعتقدات جميعها من عنصر خرافي ، وإن أكدت لها في الوقت عينه نواة الصدق المحتواة في بعض الآراء الشعبية . وعندئذ استطاعت أن تروى لي ما تظنه معتقداً شعبياً قديماً جداً واسع الانتشار : إذا أصاب حاملها ألم في أسنانها جاء المولود ولداً .

(٣) وأثار جوابها هذا اهتمامي نظراً لما يقوله فرويد في 'تفسير الأحلام' ، عن الأحلام النمطية ذات المنبه السنّي باعتبارها بدائل من الاستمنااء الطفلي ؛ إذ أن هذا المعتقد الشعبي يقيم أيضاً علاقة بين السن وبين أعضاء التناسل المذكورة (الولد) . وعلى ذلك أخذت في مساء ذات اليوم أقرأ الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع من 'تفسير الأحلام' ، فوجدت القضايا الآتية التي يسهل علينا أن نرى تأثيرها في حلمي مثل الخبرتين السابقتين : يتحدث فرويد عن الأحلام ذات المنبه السنّي قائلاً : إن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمناائية في زمن المراهقة [ص ٣٩٠] . ثم يقول : وأعتقد أن التعديلات المتعددة التي تطرأ على الحلم النمطي ذي المنبه السنّي - كأن ينتزع سن الحلم شخص آخر ، الخ. - يمكن أيضاً فهمها في ضوء التفسير الذي قدمناه . وقد ندهش إذ نرى المنبه السنّي وقد صار له هذا المعنى ، ولكنني أتبه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه (في هذا الحلم من الفك الأسفل إلى الأعلى) ، هذا النقل الذي يسخر لخدمة الكبت والذي يمكن لشئ الأفكار والمقاصد المسترية التي كان يجب - لولا الكبت - أن تلور حول أعضاء التناسل سبيل التحقق في أجزاء أخرى من الجسم على الأقل - أجزاء لا اعتراض عليها [ص ٣٩١] . ثم يقول : بيد أنني لا أجد غنى عن

الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوي؛ ففي بلدنا يشيع تعبير لغوي غير مهذب يطلق على فعل الاستمنا، هو: شد واحد إلى خارج أو شد واحداً إلى أسفل [ص ٣٩٢]. ولقد كنت أعرف هذا التعبير في صباى وأعرف دلالاته على الاستمنا، ومن هنا لن يصعب على الخبير بتفسير الأحلام أن يجد طريقه إلى المادة الطفلية التي تكمن وراء هذا الحلم. ولست أضيف إلا أن السهولة التي خرج بها السن التي تبين بعد خلوعها أنها من القواطع قد ذكرتني بمناسبة من طفولتي فيها شدت بنفسى - دون عناء أو ألم - سنا علوية واهية في مقدم النم. ولقد وقع هذا الحدث الذي ما زلت أذكره بمخافته أوضح الذكر في ذات الفترة التي ترجع إليها محاولاتي الأولى في الاستمنا (ذكرى ستارية).

وإن إشارة فرويد إلى رأى يونج في أن الأحلام ذات المنبه السنى تحمل عند النساء المعنى الذى لأحلام الوضع (تفسير الأحلام، ص ٣٩٢، في الهامش)، مع الاعتقاد الشعبي بمغزى ألم الأسنان عند الحامل - قد بعثا على المقابلة في الحلم بين المعنى المؤنث [الوضع] والمعنى المذكر (المراهقة). وأذكر في هذا الصدد حتماً سبق ذلك، جاءنى عقب زيارة إلى طيبب الأسنان، وفيه حلمت بسقوط الطرايش الذهبية التي لم يكدها بفرغ تبيتها، وأزعجنى ذلك في الحلم لإزعاجاً كبيراً؛ فقد كنت تورطت في نفقات كثيرة لم أكن تغلبت عليها بعد إذ ذاك. وإني لأفهم هذا الحلم الآن (بالإشارة إلى خبرة معينة مرت بها) من حيث هو مفاضلة بين المزايا المادية للاستمنا وبين الحب المتجه إلى موضوع، فهذا الحب أشد ضرراً من الوجهة الاقتصادية في كل صورة من صورهِ (الطرايش الذهبية)^(١). وأعتقد أن ملاحظة السيدة على معنى ألم الأسنان عند الحوامل قد أيقظت عندى هذه الحواطر من جديد.

ذلك تفسير زميلى، وهو تفسير واضح بذاته ولا أظن أننا نعرض عليه. ولست أجد ما أضيفه إليه سوى إشارة إلى المعنى المحتمل للجزء الثانى من الحلم. ذلك أنى أعتقد أن هذا الجزء يصور انتقال الحلم من الاستمنا إلى الجماع الجنسى انتقالاً يبلو محفوفاً بالصعوبات (النفق الذى تدخل فيه القطارات وتخرج منه فى اتجاهات مختلفة). كما

(١) [ويقال فى الألمانية Goldkronen أى الكرونات الذهبية. والكرونات أيضاً عملة.]

يصور مخاطر هذا الجماع (الحلم والمعطف [أنظر ص ٢٠٧]). وأما واسطة الانتقال إلى هذا الجزء الثاني من الحلم فكانت الجسر اللغوي الآتي : (Zahn-ziehen . Zug) و (Zahn-reissen (reisen)^(١)

ومن ناحية أخرى يلوح لي هذا المثال ذا أهمية نظرية من وجهتين : فهو أولاً يشهد بصحة ما اكتشفه فرويد من أن الإنزال في الحلم يصحب انتزاع السن . ونحن مضطرون — مهما كانت الصورة التي يظهر فيها الإماء — إلى أن نعده إشباعاً استمنائياً يتم بغير تنبيه ميكانيكي . أضف إلى ذلك أن الإشباع الإنمائي لم يتحقق في هذه الحالة — كما هو الشأن عادة — بإزاء موضوع من الموضوعات ، ولو كان موضوعاً متخيلاً ، بل كان — إن جاز التعبير — إشباعاً لا موضوع له ، كان يحمل طابع العشق الذني صرفاً ، أو هو على الأكثر كان يبدى أثراً لا يعتد به من الجنسية المثلية (طيبب الأسنان) .

وأما النقطة الثانية التي تبدو لي خليقة بأن نلح عليها فهي الآتية : قد نقول : إنه لا حاجة بنا إلى أن نرى في هذا الحلم تأييداً لوجهة نظر فرويد ؛ لأن أحداث اليوم السابق تكفي وحدها في جعل محتوى الحلم مفهوماً ، فزيارة الحالم إلى طيبب الأسنان وحديثه مع السيدة ثم قراءته 'تفسير الأحلام' تفسر كيف انتهى به الأمر إلى إحداث هذا الحلم تفسيراً كافياً ، وبخاصة أن نومه في تلك الليلة كان نوماً مضطرباً لألم أسنانه ، بل إن هذه الأحداث تفسر — إذا أردنا — كيف وضع الحلم حداً للألم الذي كان يزعج النوم بفكرة التخلص من السن الموجهة مع إغراق إحساس الألم الذي يخشاه الحالم بالليبدو . ولكن مهما كان تسليمنا بكل أولئك فمحال أن نذهب جادين إلى أن قراءة شروح فرويد كانت تكفي وحدها في أن تربط عند الحالم بين خلع السن وبين الاستمناء ، بل هي ما كانت تكفي في تحريك هذا الرباط إلى العمل لو لم يكن ذلك الرباط قد سبق له الرسوخ منذ زمن طويل ، كما يسلم به الحالم نفسه (في جملة : انتزع واحداً إلى الخارج) . ولعل الذي حرك هذا الارتباط لم يكن حديث الحالم مع السيدة وحسب ، بل ملابسة ثانوية ذكرها الحالم من بعد : ذلك أن الحالم حين قرأ 'تفسير الأحلام' قد وجد

(١) [الترجمة الحرفية للتعبير الأول هي : جر السن أو شداها ، وهو يذكر بالقطار لأن اسم القطار (Zug) في الألمانية مشتق من فعل ziehen (جر أو شد) . والتعبير الثاني ترجمته : انتزع السن أو اقتلمها وهو يذكر بالسفر لأن فعل انتزع (rcissen) لا يكاد يختلف في الألمانية من الفعل الذي يعنى سافر (reisen) .]

— لأسباب مفهومة — بعض الغضاضة في تصديق هذا المعنى النمطي للأحلام ذات المنبه السنّي . وشعر بالحاجة إلى أن يعرف هل يصدق هذا المعنى على جميع الأحلام التي من هذا الطراز . فكان أن جاءه هذا الحلم يؤيد له أن الأمر كذلك — فيما يتعلق به على الأقل — ويريه بهذا عينه لماذا كان تشككه أمراً محتوماً . فالحلم من هذه الناحية أيضاً يحقق رغبة ، هي الرغبة في أن يقتنع بمدى انطباق رأى فرويد وبصحته . »

وأما المجموعة الثانية من الأحلام النمطية فتشمل الأحلام التي يطير فيها الحلم أو يموج في الهواء أو يسقط أو يعوم ، إلخ . فما معنى هذه الأحلام ؟ إن من المستحيل أن نجيب عن هذا السؤال بجواب عام ؛ فهذه الأحلام — كما سنرى — تعنى شيئاً مختلفاً في كل حالة ، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هي وحدها التي تنشأ دائماً من ذات المصادر .

والدروس التي يتلقاها المرء من التحليلات النفسية تلجئه إلى تلك النتيجة . . أن هذه الأحلام كذلك تعيد انطباعات من الطفولة ، أو هي تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً . فمن هو هذا العم الذي لم يعن طفلاً على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة ، أو لم يتخذ من السقوط مادة للملاعبة ، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو يرفعه عالياً ثم يهبط إليه بمجرعة مفاجئة أنه يتخلى عنه . والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكفون من استعادة هذه الألعاب ، وبخاصة إن احتوت على ما يحدث بعض الخوف أو الدوار . وإنهم ليستعيدونها في أحلامهم بعد أن تمضي بهم السنون ، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التي تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطرون أو يسقطون أحراراً . وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب — كولعهم بالأراجيح بأنواعها — أمر معروف . فإذا رأوا في « السيرك » بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب . وقد لا تخرج النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدى في مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين . وليس من النادر أن تنبه هذه الألعاب الحركية — وإن كانت بريئة في ذاتها — مشاعر جنسية . وإذا جاز لي أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته قلت : إن « هيجان » الأطفال هو ما يستعاد في أحلام الطيران والسقوط والتأرجح وما شاكلها ، استعادة تنقلب في خلالها اللذة إلى هيلة . ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهي في الواقع كذلك بالشجار وبالعويل كما تعرفه كل أم .

وأنا إذن أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة : إن أحاسيسنا اللمسية في أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرثتين وما أشبهه ، هي التي تبعث على أحلام الطيران والسقوط . بل في رأي أن هذه الأحاسيس ذاتها تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التي يرتد الحلم إليها ، أى أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له (١) .

هذه المادة من الإحساسات المركبة المماثلة نوعاً المتفقة مصدراً تستخدم الآن في تصوير أفكار حلمية من كل ضرب ممكن . فأحلام الطيران والطواف في الهواء - وهي أحلام يغلب عليها عادة طابع اللذة - تقتضى تفسيرات متنوعة غاية التنوع ، خاصة كل الخصوص عند بعض الناس ، ثم ذات طابع نمطى عند البعض الآخر . فهكذا يتفق أن تحلم إحدى مريضاتى بأنها تسير على ارتفاع معين فوق الطريق دون أن تمس قدماها الأرض ، وكانت هذه المريضة قصيرة جداً ، وكانت تخشى العدوى من كل صلة بالناس ؛ فحلمها هذا يحقق لها رغبتين إذ يرفع قدمها دون الأرض وإذا بصعد رأسها إلى طبقة أعلى من الهواء - هذا بينما تعرب أحلام الطيران عند بعض الحاملات عن ودهن : « لو كنت طائراً صغيراً ! » وبينما تصير أخريات ملائكة في الليل لأنهن قد حرمن من أن يدعون كذلك بالنهار . وإن الصلة الوثيقة بين الطيران وبين فكرة الطير تجعلنا نفهم كيف صار لأحلام الطيران عند الرجال معنى حسي غليظ في غالب الأحيان (٢) . ولن يدهشنا أن نسمع أن هذا الحلم أو ذاك كان شديداً الفخر بقدرته على الطيران .

ولقد أعرب الدكتور پول فيلدن (من فيينا) عن رأى جذاب مؤداه أن جزءاً كبيراً من أحلام الطيران هو أحلام انتصاب ؛ لأن ظاهرة الانتصاب - تلك الظاهرة العجيبة التي شغل بها الخيال الإنساني من غير انقطاع - لا يمكن إلا أن تسترعى الانتباه لما يبدو فيها من إبطال لقوة الجاذبية (أنظر بهذه المناسبة القضيبي المجنح عند الأقدمين) . وإنه لأمر خليق بالانتباه أن نجد باحثاً تجريبياً ، متزناً ، صدوقاً عن كل ما هو تفسير ، مثل موري فولد ، يؤيد التفسير العشقى لأحلام الطيران أو التأرجح (فولد ،

(١) قد كررنا ههنا هاتين الفقرتين الخاصتين بأحلام الحركة لمقتضيات السياق .

(٢) [ههنا إشارة إلى كلمة عامية ألمانية بمعنى "جامع" (vogeln) اشتقت من الكلمة الدالة على

الطير (Vogel) .]

١٩١٠-١٩١٢ ، جزء ٢ ، ص ٧٩١) . فهو يصف الدافع العشقي بقوله : « إنه أقوى الدوافع إلى أحلام الطواف في الهواء » ويجذب الانتباه إلى إحساس الذبذبة الجسمية الشديدة التي تصحب أمثال هذه الأحلام ويشير إلى كثرة اقترانها بالانتصاب أو الإنزال .

فأما أحلام السقوط فيغلب أن تتسم بطابع الهيلة . ولسنا نجد صعوبة في تفسيرها عند النساء ؛ فهؤلاء يكدن يسلمن دائماً بأن الاستخدام الرمزي للسقوط يصف الاستسلام لدافع عشقي . ونحن لم نحصر بعد المصادر الطفلية لأحلام السقوط ؛ فلا يكاد يكون ثمت طفل إلا وقع في مناسبة أو أخرى ثم أقبل من عثرته ودلل ، فإن كان وقوعه من مهده في أثناء الليل حملته المعنية بأمره إلى سريرها .

وأما الأشخاص الذين يحملون كثيراً بالسباحة ويشقون الموج في انشراح عظيم فهم في العادة ممن كانوا يبللون فراشهم . وهم اليوم يعيدون في أحلامهم لذة تعلموا الإقلاع عنها منذ زمن طويل . وسنعلم قريباً من أكثر من مثال أي شيء يسهل استخدام أحلام السباحة في تصويره [ص ٤٠٣ .]

وأما أحلام الحريق فيؤيد تفسيرها هذا القانون التربوي الذي يحرم على الأطفال « أن يلعبوا بالنار » لكيلا يبللوا فراشهم في الليل . ذلك أن هذه الأحلام أيضاً يكمن وراءها أثر ذكروي عن بلل الفراش في فترة الطفولة . ولقد عرضت في مقال « طرف من من تحليل هستريا » (١٩٠٥) ^(١) تحليلاً وتركيباً كامليين لحلم حريق من هذا القبيل وذلك من حيث صلة هذا الحلم بتاريخ الحاملة ، كما بينت أي دوافع سن الرشد يمكن استخدام هذه المادة الطفلية في تصويرها .

وفي مقدورنا أن نذكر عدداً وفيراً من الأحلام « النمطية » إذا كنا نغني بهذا الحد أن ذات المحتوى الظاهر يكثر وروده عند حاملين مختلفين . نستطيع أن نذكر مثلاً الأحلام التي يسير فيها المرء في أزقة ضيقة أو يمشي عبر حجرات متعاقبة ، أو أحلام سراق الليل الذين يحنط منهم الأشخاص العصبيون حتى قبل أن يذهبوا إلى الفراش ،

(١) [١٩٠٥ ، القسم الثاني ، حلم دورا الأول .]

ثم هناك الأحلام التي يطارذك فيها وحش كاسر (أو ثور أو حصان) وتلك التي يهدد فيها الحالم بسكين أو خنجر أو رمح - والنوعان الأخيران من الأحلام يميزان المحتوى الظاهر في أحلام المصابين بعصاب الهيلة - وكثير غيرها . ولا شك في أن بحثاً يتدب لهذه المادة خاصة سوف يكون بحثاً مجزياً إلى أبعد مدى ، ولكنني - بدل ذلك - أدلى بملاحظتين وإن كانتا لا تنطبقان على الأحلام النمطية انطباقاً مانعاً .

كلما زاد المرء اشتغالا بكل مشكلة الأحلام زاد استعداده للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات عشقية . وأولئك الذي يخللون الأحلام فعلاً - أي يذهبون من محتواها الظاهر إلى أفكارها الكامنة - هم وحدهم الذين يستطيعون أن يقطعوا برأى في هذا الصدد ، ويعجز عن ذلك أبداً كل من قنع بتدوين المحتوى الظاهر (مثل ناكه في كتاباته عن الأحلام الجنسية) . ولنقل دون إهمال : إن هذه الحقيقة ليست بالأمر الذي يدهشنا ، بل هي تتسق والمبادئ التي يستند إليها تعليلنا للأحلام أكمل اتساق ؛ فما من غريزة لاقت منذ الطفولة مثل الكبت الذي لاقته الغريزة الجنسية في مقوماتها المتعددة ، وما من غريزة غيرها خلفت وراءها رغبات على هذا المدار من الكثرة والقوة تعمل اليوم على إحداث الحلم في حالة النوم . فواجبنا عند تفسير الحلم هو ألا ننسى أبداً هذه القيمة التي للمركبات الجنسية ، وإن وجب كذلك بالطبع أن نتجنب المغالاة إلى الحد الذي يمنع غيرها .

ونستطيع أن نقول عن أحلام كثيرة - إذا عينا بتفسيرها - : إنها أحلام تتسم بطابع الجنسية الثنائية ؛ لأنها تسلم من غير جدال إلى تفسير مضاعف تتحقق فيه للحالم رغبات جنسية مثلية ، أي رغبات تخالف نشاطه الجنسي السوى . ولكن أن نذهب إلى أن جميع الأحلام يجب تفسيرها على هذا النحو - مثلما يصنع شتيكل (١٩١١) وأدلر (١٩١٠) - ذلك ما يبدو لي تعميماً مجرداً من البرهان ومن الرجوع على السواء ، تعميماً لا أراي مستعداً لأن أنتصر له . ولست أدري بخاصة كيف أنكر تلك الحقيقة الواقعة ، وأعني بها أن هناك أحلاماً تلبى حاجات غير الحاجات العشقية - وإن أخذنا الكلمة بأوسع معانيها - : أحلام جوع وعطش ، أحلام سهولة ، الخ . ثم القضايا التي من قبيل : « يكمن طيف الموت وراء كل حلم » (شتيكل) أو أن في كل حلم « انتقالاً من

المؤنث إلى المذكر» (آدلر) - تلك أيضاً أقوال تبدو لي بعيدة كل البعد عما يجيز لنا تفسير الحلم الأخذ به أخذاً مشروعاً . - وإن القول بأن جميع الأحلام تستلزم تفسيراً جنسياً - وهو القول الذى ثارت عليه محاجة لا تكل - لقضية غريبة عن « تفسير الأحلام » ؛ فأنت لا تجده فى طبعات الكتاب السابع ، ثم إنه يتناقض وسائر محتواه تناقضاً ظاهراً .

وقد سبق أن بينا أن بعض الأحلام التى ظاهرها السداجة قد تضم رغبات غليظة ، وكان يسعنا أن نؤيد ذلك بأمثلة جديدة كثيرة . ولكن هناك كذلك أحلاماً ظاهرها اللامبالاة ، لا يستريك منها اتجاه ما أو شيء بعينه ، ثم إذا هى ترتد عند التحليل إلى رغبات جنسية لا شك فيها ، تكون فى أحيان كثيرة من نوع غير متوقع . من ذا الذى كان يستطيع - مثلاً - أن يحذر وجود نزعة جنسية فى الحلم الآتى قبل تفسيره ؟ لقد رواه حاله على هذا النحو : قصران عظيمان قام بينهما - إلى الخلف بعض الشيء - منزل صغير منلق الباب . تقودنى زوجى فى جزء من الطريق يؤدى إلى المنزل الصغير ثم تدفع الباب فأدلف فى سرعة ويسر داخل فناء يميل بزاوية صاعدة .

ومع هذا فإن من له ولو قليل دراية بتفسير الأحلام سوف يذكر على الفور أن النفاذ فى أماكن ضيقة وفتح الأبواب المغلقة بين أكثر الرموز الجنسية شيوفاً ، وسوف يدرك فى غير عناء أن هذا الحلم يصور محاولة فى الجماع من الخلف (بين الردفين العظيمين فى جسم المرأة) . والممر الضيق الصاعد بزاوية هو المهبل بالطبع . وأما المساعدة التى ينسبها الحالم إلى زوجه فلا تفسير لها سوى أن مراعاة الزوجة هى المانع الأوحد الذى يحول بين الحالم وبين الإقدام على مثل هذه المحاولات فى الحياة الواقعة . وها نحن أولاء نعلم أن خادماً صغيرة السن قد جاءت يوم الحلم منزل الحالم وأنها حسنت فى عينيه كثيراً ، وأنه قد خيل إليه أنها لن تمنع محاولة من هذا القبيل إلا قليلاً . والمنزل الصغير بين القصرين العظيمين أثر ذكرى من [قلعة] هارد شين فى پراج ، وهو بذلك يلمح إلى ذات الفتاة ؛ لأن پراج مدينتها .

وإذا أكدت لأحد مرضاى كثرة وقوع الأحلام الأوديبية التى يتصل فيها الحلم بأمه بصلة جنسية ، غلب أن يكون جوابه : لا أذكر أنى رأيت مثل هذا الحلم قط .
(٢٦)

ولكن تنبعث على أثر ذلك ذكرى حلم ممحو ، لا يستلفت نظراً ، جاء الحلم مراراً ، وعندئذ يبين التحليل أن ذلك في الحقيقة حلم له ذات المحتوى ، أى حلم أوديبى . وأستطيع أن أؤكد أن الأحلام المقنعة التى تدور حول الصلة بالأم تفوق السافرة فى كثرتها مرات ومرات (١) . وهناك أحلام بمشاهد من الطبيعة أو بمحال يكون أظهر ما فيها يقين الحلم – وهو ما زال بحلمه – بأنه قد كان بذلك المكان من قبل . ولكن هذه « الرؤى السابقة » (٢)

(١) لقد نشرت فى موضع آخر (فرويد ١٩١٠ ل) مثالا نموذجيا على حلم أوديبى مقنع من هذا القبيل (تجدد فى آخر هذا الهامش) ، كما نشر أتورانك (١٩١١ أ) مثالا آخر قرنه بتحليل مفصل . وانظر كذلك مقالة رانك (١٩١٣) فيما يتصل بأحلام أوديبية مقنعة تتجلى فيها رمزية العين . وإن القارئ ليجد فى ذات الموضوع الذى نشر فيه مقال رانك مقالات أخرى عن « أحلام العين » ورمزية العين كتبها ايدير وفرنسى ورايتار . وإن فقاً العينين فى أسطورة أوديب – كما فى غيرها – هو بديل من الخشاء . هذا ولم يكن القدماء يجهلون التفسير الرمزي للأحلام الأوديبية المقنعة ، وأقرأ فى ذلك رانك (١٩٠ ، ٥٣٤) حيث يقول : « وهكذا قيل : إن يوليوس قيصر قد حلم حلماً رأى فيه أنه يجماع أمه ، فأوله مفسرو الأحلام قائلين : إنه يبشر بأن قيصر سوف يمتلك الأرض (الأرض الأم) . ومن الأمور المعلومة كذلك النبوة المعطاة إلى التاركويينيين التى أعلنت أن السيادة على روما سوف تكون من حظ أول من يقبل أمه (osculum matri tulerit) – وهو ما يفسره بروتوس بمعنى الأرض الأم (قبل الأرض قائلاً : إنها الأم المشتركة لجميع المائتين . تبت ليف ١ ، ٥٦ [باللاتينية فى الأصل] . » وانظر بهذه المناسبة حلم هيبياس الذى يرويه هير ودوت (٦ ، ١٠٧) إذ يقول : « أما الفرس فقد كان هيبياس يرشدهم إلى ماراتون . وكان هيبياس قد زاره فى الليلة الماضية مقام رأى فيه أنه يضاجع أمه ، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته وأنه – فى شيخوخته – سيموت فى أرض وطنه . » هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة ؛ فقد رأيت أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضلون أو معززون لدى أمهاتهم يبدون فى حياتهم هذه الثقة الفريدة بالنفس وهذا التفاؤل الوطيد اللذين لا يندر أن يكون لهما مظهر البطولة وأن يطوعا النجاح لأصحابهما فعلاً .

مثال نمطى على حلم أوديبى مقنع : حلم رجل أن له علاقة مسترة بسيدة يريد شخص آخر زواجها ، والحالم يخشى أن يعلم الآخر بهذه الصلة وألا ينهى الزواج المقترح إلى نتيجة ، وهو لذلك يسلك تجاه هذا الرجل مسلكاً ملؤه التردد ، يعانقه ويقبله . إن واقع حياة هذا الحالم لا يتفق وحلمه إلا فى نقطة واحدة : فقد كانت له علاقة بسيدة متزوجة أتى زوجها يوماً – وكان صديقاً للحالم – بملاحظة ذات معنيين جعلته يشك فى أن يكون الزوج قد لحظ أمراً . ولكن الحقيقة كانت تتضمن شيئاً آخر لم يذكره الحالم مطلقاً ، وهو مع ذلك الشئ ، الذى يعطينا المفتاح إلى فهم الحالم : ذلك أن الزوج كان مهدداً بمرض عضوى ، وكادت الزوجة معدة لإمكانية موته فجأة ، وكان الحالم مشغولاً بالتفكير الشعورى فى الزوج من الأرملة الشابة بعد موت زوجها . وهذا الموقف الخارجى يضع الحالم فى جو الحلم الأوديبى : فرغبة الحالم قادرة على قتل الرجل من أجل الظفر بامرأته ، والحلم يعبر عن هذه الرغبة فى صورة مشوهة ملؤها النفاق ؛ فبدل أن تظهر المرأة متزوجة بالفعل نرى شخصاً غير الحالم يتقدم لزواجها – وهو ما يتفق وما للحالم نفسه من نيات مسترة – هذا بينما تختفى رغباته العدائية نحو الزوج وراء مظاهر من الود مستمدة من ذكرى الحالم عن علاقته بوالده فى أيام الطفولة .

لها في الحلم معناها الخاص : فهذا المكان يعنى دائماً أعضاء التناسل عند الأم ، والواقع أنه ليس ثمت مكان آخر يستطيع المرء أن يقول عنه بمثل هذه الثقة : لقد كنت فيه من قبل . ومرة واحدة هي التي حيرني فيها مريض بعصاب قهري إذ قال : إنه حلم حلماً رأى فيه أنه يزور منزلاً كان قد وجد فيه مرتين من قبل . ولكن هذا المريض على التحديد كان قد ذكر لي منذ زمن بعيد قصة ترجع إلى سنته السادسة ، حاصلها أنه شارك أمه سريها مرة ، فأساء انتهاز الفرصة بأن دس إصبعه في عضوها وهي نائمة .

وهناك طائفة كبيرة من الأحلام يغلب أن تصطحب بالهيلة وأن يكون محتواها المرور بأماكن ضيقة أو المكوث في الماء ، تقوم على تخييلات تدور حول الحياة الجنسية والإقامة في رحم الأم والولادة . والحلم الذي يلي كان حلماً لشاب انتهر في مخيلته فرصة الحياة الجنسية لمشاهدة جماع بين والديه .

« إنه في حفرة عميقة بها شباك كما في نفق سمرينج (١) . يرى أول الأمر من النافذة مشهداً مقفراً ، ولكنه يتخيل صورة تناسب المكان ، ولا تلبث الصورة أن تتحقق دفعة واحدة وأن تملأ الفضاء . إن الصورة تمثل حقلاً حرث حرثاً عميقاً بآلة من الآلات ، وكان الهواء اللليل مع فكرة العمل الشاق التي تصحب المنظر ومع المدر الأزرق الأسود ، كان كل أولئك مما يحدث في النفس تأثيراً جميلاً . يستمر بعد ذلك فيرى كتاباً في الرابية مفتوحة أمامه . . . ويدهش لكل هذه الأهمية التي تعلق على المشاعر الجنسية (للأطفال) ويذهب به ذلك إلى التفكير في . »

وها هو ذا حلم بديع لإحدى المريضات كان يخدم هدفاً بعينه في العلاج : إنها في مصيفها على شاطئ بحيرة . تقفز إلى الماء في ذات البقعة التي كان ضوء القمر الشاحب قد انعكس فيها على صفحة الماء .

إن الأحلام التي من هذا القبيل أحلام ولادة . ونصل إلى تفسيرها بقلب الحدث الذي يرد في الحلم الظاهر ، وهكذا يكون لنا « خروج من الماء » - أي ولادة - بدل « القفز فيه » (٢) . ونستطيع أن نعرف المكان الذي يخرج منه الإنسان إذا نحن فكرنا في الاستخدام الفكاهة لكلمة " la lune " ، [القمر] في اللغة الفرنسية [بمعنى مؤخر الجسم] فالقمر الشاحب هو - إذن - المؤخر الأبيض الذي يبادر الطفل فيخمن أنه قد خرج منه . ولكن ما معنى أن ترغب الحاملة في « أن تولد » في مصيفها ؟ أسألها ذلك فتجيب من غير تردد : ألم أكن بالعلاج كمن ولدت من جديد ؟ وعلى ذلك فالحلم دعوة إلى متابعة

(١) نفق يبعد نحو السبعين ميلاً من فيينا على سكة الحديد الجنوبية .

(٢) أنظر رانك (١٩٠٩) فيما يتصل بالمغزى الأسطوري الذي للولادة من الماء .

علاجها في ذلك المصيف ، أى إلى عيادتها هناك . وربما كان الحلم يحوى كذلك إشارة حية إلى رغبة المريضة في أن تكون هى نفسها أما (١) .

وأنتقل من مقال بلونز (١٩١٠ ب) حلاماً آخر من أحلام الولادة مع تفسيره :
« كانت تقف على شاطئ البحر وهى ترقب طفلاً هياً إليها أنه ولدها بينما كان يلعب فى الماء . وظل الولد يلعب حتى غمره الماء ، فلم تعد ترى لإرأسه وهو يقب ويغطس قريباً من سطح الماء . وعندئذ تغير المنظر إلى قاعة مزدحمة فى فندق . يتركها زوجها فتطرق حديثاً مع شخص غريب .

« يتبين عند التحليل أن الجزء الثانى من هذا الحلم إنما يصور رغبة الحاملة فى الفرار من زوجها والأخذ فى علاقة وثيقة بشخص ثالث . . . وأما الجزء الأول فتخييل ولادة مكشوف ؛ فمن المألوف فى الأحلام كما فى الأساطير أن يصور الخروج من مياه الرحم من طريق القلب - فى صورة الدخول فى الماء ، ومولد أدونيس وأوزوريس وموسى وباكوس ، كل هذه - والكثير غيرها - أمثلة معروفة على ذلك . وتذكرها حركة الطفل وهو يطفو فوق الماء ويغطس تحته بما عهدته من حركات الجنين فى بطنها أثناء حملها الوحيد . ويذهب بها تفكيرها فى الطفل وهو ينزل فى الماء إلى حلم يقظة ترى فيه نفسها وهى تتسلل الطفل من الماء وتحمله إلى محضنة حيث تغسله وتكسوه ثم تأخذه إلى دارها .

« وهكذا كان النصف الثانى من الحلم يصور أفكاراً خاصة بالفرار تتصل بالنصف الأول من أفكار الحلم الكامنة ، ويوافق النصف الأول من الحلم المحتوى الكامن لنصفه الثانى : تخييل الولادة . ثم كل نصف من نصفي الحلم ينطوى على قلب آخر فى الترتيب الزمنى إلى جانب القلب الذى ذكرناه : فى النصف الأول من الحلم ينزل الطفل فى الماء ثم تطفو رأسه وتغطس ، وأما فى أفكار الحلم الكامنة فيتحرك الطفل أولاً ثم يغادر الماء (قلب مزدوج) ، وفى النصف الثانى من الحلم يتركها زوجها ، بينما فى أفكار الحلم الكامنة تترك هى زوجها . » (عن ترجمة ألمانية بقلم أوتو رانك .)
ويروى أبراهام حلم ولادة آخر ، أتى امرأة شابة كانت تنتظر وضعها الأول . فى

(١) لقد ظلت زمناً طويلاً دون أن أقدر قيمة التخيلات والأفكار اللاشعورية التى قد تدور حول الحياة فى الرحم ؛ ففيها تفسير هذه الهيلة العجيبة عند الكثيرين من كونهم قد يدفنون أحياء ، وفيها أعق أساس لاشمورى يرتكز عليه الاعتقاد بحياة مستقبلية بعد الموت وهو اعتقاد لا يمدو أن يصور إسقاطاً فى المستقبل لهذه الحياة الغامضة التى تسبق الولادة . والولادة بالإضافة إلى ذلك - هى أول خبرة بالهيلة ، وهى بذلك منهل هذه الحالة الوجدانية ونموذجها .

هذا الحلم نرى مجرى يجرى تحت الأرض من أرض حجرتها إلى الماء مباشرة (القناة الرحمية - السائل النخطي) ، ثم ترفع الحاملة غطاء في أرض الحجره فيبرز على الفور مخلوق مغطى بفراء أسمر اللون ، أشبه بسبع البحر ، ثم يتبين أن هذا المخلوق الصغير هو أخو الحاملة الأصغر الذي كانت الحاملة تقف منه دائماً موقف الأم .

وقد بين رانك (١٩١٢ أ) بطائفة من الأحلام أن أحلام الولادة تستخدم ذات الرموز التي تستخدمها أحلام المنبه البولوي ؛ ففيها يصور المنبه العشي كما لو كان منبهاً بولياً ، وإن وجود طبقات من المعنى في هذه الأحلام ليوافق تحويلاً دخل على معنى الرمز من عهد الطفولة .

ومن المناسب - وقد بلغنا هذا الموضوع - أن نعود ثانية إلى موضوع تركناه (في ص ٢٥٨) وهو نصيب المنبهات العضوية المزعجة للنوم في تكوين الأحلام . فالأحلام التي تقع تحت تأثير هذا المنبهات لا يقف شأنها عند كونها تكشف علانية عن الميل إلى تحقيق الرغبة وعن طابع الأخذ بالأسهل وحسب ، بل هي - في أحيان كثيرة جداً - قد تكشف أيضاً عن رمزية شفافه كل الشفافية ؛ إذ ليس من النادر أن يوقظ منبه حالماً بعد أن يكون الحالم قد حاول سدى إرضاء هذا المنبه في الحلم تحت ستار رمزي . وينطبق ذلك على أحلام الإماء كما ينطبق على الأحلام التي تحرك إليها حاجة إلى التبول أو التبرز . ولكن الطابع الخاص لأحلام الإماء لا يمكننا فقط من أن نميط اللثام بطريقة مباشرة عن رموز بعينها كنا نعلم من قبل أنها رموز نمطية ولكنها كانت تلاقى مع ذلك إنكاراً عنيفاً ، بل هو يعيننا - فوق ذلك - على الاقتناع بأن بعض مواقف الأحلام الظاهرة البراءة لا تعدو أن تكون فاتحة رمزية لمناظر جنسية فظة - مناظر لا تلتقي في العادة تصويراً صريحاً إلا في أحلام الإماء النادرة ندره نسبية ، على حين يكثر ، إنقلابها إلى حلم هيلة يدفع كذلك إلى اليقظة .

وأما رموز الأحلام ذات المنبه البولوي فتتسم بشفافية خاصة ، كما أنها قد عرفت منذ أقدم الأزمنة ؛ فقد سبق هيپوقراط إلى القول بأن الينابيع والنوافير تدل على خلل في المثانة (هافلوك ليس) . ودرس شرزر رموز المنبهات البولوية الكثيرة ثم أكد أن « كل منبه بولي شديد بعض الشدة يستحيل من غير استثناء إلى تنبيه في المنطقة الجنسية وإلى صور ترمز إليها . . . وكثيراً ما يكون الحلم ذو المنبه البولوي ممثلاً في الوقت نفسه للحلم الجنسي . »

وإن أوتو رانك - الذى أتابع ههنا مقاله عن « التراص الطبقي للرموز في الأحلام المؤدية إل الاستيقاظ » (١٩١٢ أ) - قد جعل من الراجع كل رجوح أن يكون عدد كبير من الأحلام ذات المنبه البولي ناجماً في الحقيقة عن منبه جنسى بدأ بالتماس الإشباع من طريق النكوصى إلى صورة طفلية من العشق هي صورة العشق البولي . وإنا لنعلم الشيء الكثير بخاصة من تلك الحالات التى يؤدى فيها المنبه البولي - وقد استثير على هذا النحو - إلى اليقظة وإفراغ المثانة ، ومع هذا يتابع الحلم بعد ذلك إلى أن يتم الإعراب عن الحاجة في صور عشقية صريحة (١).

وأما الأحلام ذات المنبه المعوى فتلقى الضوء بطريقة مماثلة على الرمزية المتضمنة فيها ، ثم هي - في الوقت ذاته - تؤيد العلاقة بين الذهب والبراز - وهي علاقة تدعّمها كذلك شواهد وفيرة من علم المجتمعات الإنسانية (٢). « فهكذا تحلم امرأة كانت تعالج لمرض في أمعائها برجل يدفن كترّاً على مقربة من كوخ أشبه بمرفق مياه رينى معزول عن الدار ، ثم يتبع جزء ثان ترى فيه أنها تمسح است بنتها الصغيرة التى وسخت نفسها . »

وتتبع أحلام الإنقاذ أحلام الولادة : فالإنقاذ - وبخاصة الإنقاذ من الماء - له عند النساء معنى الولادة ، ولكن هذا المعنى يدخله التعديل إذا كان الحلم رجلاً (٣).

فأما اللصوص وسراق الليل والأشباح الذين يوجس منهم البعض خيفة قبل أن يتوجهوا إلى فراشهم والذين يتبعون أحياناً ضحاياهم هؤلاء حتى بعد نومهم فيخرجون جميعاً من طبقة واحدة من الآثار الذكورية لا تتغير : إنهم زوّار يعودون الأطفال في جنح الليل ويوقظونهم ويحملونهم لكيلا يبللوا فراشهم ، أو يرفعون عنهم الغطاء ليروا بأعينهم بأى موضع وضعوا أياديهم وهم نيام . ولقد مكنتى تحليل بعض أحلام الهيلة هذه من أن

(١) " إن ذات الصور الرمزية التى تحيى بمعناها الطفلى في الأحلام البولية تظهر بمعناها الحديث في أحلام جنسية لا مرية فيها : ماء = بول = السائل النخلى ، schiff [سفينة] = schiffen [شخ] = رحم (صندوق) ، البلبل = بلل الفراش أثناء النوم = الجعاع = الحمل ، العموم = امتلاء مجرى البول = مقر من لم يولد ، المطر = البول = الرمز إلى الإخصاب ، السفر (الرحيل أو الخروج من العربة) = النهوض من الفراش = الجعاع الجنسي (رحلة شهر العسل) ، تبول = أنزل " . (رانك ذات المرجع .)

(٢) أنظر فرويد ١٩٠٨ ب و رانك ١٩١٢ أ وداتنر ١٩١٣ و رانك ١٩١٥ .

(٣) لقد أورد فيستر حلماً من هذا النوع (١٩١٩ ح) . أنظر أيضاً رانك ١٩١١ ب و رايبك ١٩١١ .

ثم أيضاً رانك ١٩١٤ .

أمضى إلى أبعد من ذلك في إخراج شخص الزائر الليلي من مجهوليته: ففي كل حالة كان السارق يقوم مقام الأب بينما تنوب الأشباح عن الأشخاص الأثوية فيما يرتدينه ليلا من الغلل البيضاء.

و

أمثلة - عمليات الحساب والأقوال

في الحلم

قبل أن أحدد للعامل الرابع الذى يحكم تكوين الحلم موضعه الصحيح [القسم ط] ، أقترح أن أسرد بعض الأمثلة من مجموعتى . هذه الأمثلة سوف تفيد - من جهة - في تصوير التفاعل بين العوامل الثلاثة التى عرفناها ، وسوف تفيد - من جهة أخرى - في تزويدنا بدليل يؤيد بعض القضايا التى ظلت حتى الآن بغير سند أو في بيان نتائج تازم منها ضرورة . فقد كنت وأنا أشرح عمل الحلم أجد صعوبة بالغة في مساندة اكتشافاتى بالأمثلة ؛ فالأمثلة التى يراد بها تدعيم هذه القضية أو تلك لا تحمل على الاقتناع إلا إذا سبقت وسط تفسير كامل لحلم من الأحلام ، فإن انتزعت من محيطها فقدت أثرها- هذا بينما نجد من ناحية أخرى أن التفسير إذا عمق ولو قليلا لا يلبث أن يبلغ من الجسامة حدا نفقد معه حبل القضية التى كان يراد تصويرها . ولعل هذه الصعوبة الفنية تعذرني إذا أنا حركت الآن أشياء من كل صنف لا يربط بينها رابط مشترك سوى اتصالها بما ورد في الأقسام السابقة من هذا الفصل .

سأبدأ بأمثلة على طرائق في التصوير غريبة أو غير مألوفة . حلمت سيدة الحلم الآتى : تقف خادم على سلم كأنما كانت تمسح الشباك ، وكانت تحمل قرداً وقطاً من نوع الغوريلا (وتستدرك السيدة بعدئذ قائلة : من نوع الأنجورا) . ترى الخادم الحاملة بالحيوانين ، ويلصق القرد بها - وهو ما يثير في نفسها استنزازاً كبيراً . - لقد حقق هذا الحلم هدفه بطريقة غاية في البساطة : فهو قد استعار مجازاً من مجازات الكلام ثم أجرأه على حرفه ، « فالقرد » وأسماء الحيوان بوجه عام تستخدم على سبيل السباب ، ولا يعنى الموقف الذى عرض في الحلم شيئاً آخر سوى قولنا :

رماه بالسباب . ولن تلبث مجموعتي دون أن تأتي بأمثلة جديدة على استخدام هذه الحيلة البسيطة في عمل الحلم .

ونهج حلم آخر نهجاً يماثل السابق كل مماثلة : سيدة معها طفل شاه شكل جمجمته شوها ملحوظا ، تسمع الحاملة أن ذلك راجع إلى وضع الطفل في الرحم . يقول الطبيب : إن من الممكن تحسين شكل الجمجمة يضغطها ، إلا أن ذلك قد يؤذي مخ الطفل . تفكر في أن الطفل صبي فلن يضره ذلك كثيراً . — إن هذا الحلم يحوى تعبيراً مصوراً عن فكرة مجردة : « انطباعات الطفولة » ، وهي فكرة كانت الحاملة قد سمعتها في أثناء التوضيحات التي اقتضاها العلاج .

ولكن عمل الحلم قد سلك طريقاً مخالفاً بعض المخالفة في المثال الآتي ، وكان ينطوي على ذكرى رحلة إلى هيلمتايش^(١) بالقرب من جراتس : في الخارج عاصفة مروعة ، نزل حقير ، يقطر الماء من الجدران ، الأسرة مبتلة (هذا الجزء الأخير من الحلم قد روى في صورة أقل صراحة مما ذكرت) . إن هذا الحلم يعنى « نافلة » ؛ فهذه الفكرة المجردة المتضمنة في أفكار الحلم قد لاقت أول الأمر علاجاً متكلفاً صيرها إلى شيء من قبيل « فائض » أو « طانح » ، ثم تمثلت بعد ذلك في عدة من الصور المشابهة : ماء في الخارج ، ماء في الداخل على الحوائط ، ماء في أغطية السرير المنداة ، كل شيء يقطر أو « يطفح » . ولن يدهشنا أن نرى أن أصوات الكلمات تفوق تهجها بكثير من حيث أهميتها بالنسبة إلى التصوير الحلمى ، وبخاصة حين نذكر أن الشعر المقفى يستبيح لنفسه حرية مماثلة . فقد روى رانك (١٩١٠ ، ٤٨٢) في كثير من التفصيل حلاً أنه فتاة وحلله تحليلاً وافياً إلى مدى بعيد ، وفي هذا الحلم نسمع أن الفتاة قد سارت وسط الحقول وهي تقطع سنابل [Ahren] مثقلة بالقمح والشعير ، ثم أقبل عليها صديق في سنها ، فحاولت أن تتجنب لقاءه . ويبين التحليل أن الأمر يتعلق بقبلة ، « قبلة في شرف » [Kuss in Ehren]^(٢) . فالسنابل [Ahren] التي كان يجب اقتطافها لاقتطاعها

(١) [شعبة ماء .]

(٢) [Ahren (سنابل) = Ehren (شرف) في النطق ، فكأن معنى التعبير منطوقاً هو : قبلة في شرف أو قبلة بين السنابل . ومن المهم أن نلاحظ مع ستراشي أن هذا التعبير يشير إلى مثل الماني ترجمته الحرفية هي : ما من أحد يرفض قبلة في شرف ، كما أن الفتاة كانت في الحقيقة قد تلقت أول قبلاتها وهي سائرة في حقل قمح ، فكانت قبلة " بين السنابل " .]

قد أفادت من حيث هي كذلك ومن حيث تكثيفها بكلمة Ehren [شرف] في تصوير طائفة كاملة من أفكار أخرى .

وفي حالات أخرى نجد أن اللغة قد يسرت الأمور على الحلم تيسيراً كبيراً ؛ فاللغة تملك طوع يدها طائفة بأسرها من المفردات التي كانت تملك في الأصل معاني عيانية مصورة ثم صارت اليوم تستخدم استخداماً مجرداً لا لون فيه ، وكل ما يحتاج إليه الحلم هو أن يسترجع لهذه الكلمات معانيها السابقة المليئة وأن يرجع بعض المسافة إلى مرحلة متقدمة في تطور الكلمة . ومثال ذلك أن يحلم حالم بأن أخاه في صندوق ، ثم تذهب خواطر الحلم في أثناء التفسير من صندوق إلى « دولاب » [Schrank ويعني أيضاً الحد بالمعنى المجرد] ، فتكون فكرة الحلم الكامنة هي : أن على أخيه أن يلزم حده - أي أن يلزمه هو . وها هو ذا حالم آخر يعتلى جبلاً يشرف منه على منظر « قصي الأطراف » ، وهو بذلك يعين ذاته بأخيه الذي كان يشرف على تحرير باب عنوانه « نظرة على الشرق الأقصى » .

وفي حلم يرد في « هاينريخ البائع » [رواية ذائعة لجوتفريد كيللر] نرى فرساً جموحاً وهو يتقلب في حقل جميل من الحرطل كل حبة منه « لوزة حلوة وزيبية ودرهم جديد . الكل ملفوف في حرير قان ، معقود بسائب الخنزير » . ولا يلبث الكاتب (أو الحالم) أن يفسر هذه الصورة الحلمية ؛ إذ يشعر الحصان بدغدغة تطيب له ، ويهتف قائلاً : الحرطل ينغزني . [وهو من مثل ألماني بمعنى : أفسده الرغد] .

وفي رأى هنتسن أن الأحلام المشتعلة على توريات وجمل لفظية تكثر كثرة خاصة في الأساطير الشمالية القديمة ، فلا تكاد تخلو أسطورة منها من حلم ينطوى على بعض الاشتراك أو اللبب بالألفاظ .

وإنه ليكون عملاً قائماً بذاته أن يجمع المرء أساليب التصوير وأن يقسمها بحسب المبادئ التي تقوم عليها ، وإن منها لأساليب تكاد أن تكون خليقة بأن تسمى نكات ، أساليب يحس المرء إزاءها أنه ما كان ليحذر قط معناها لو لم يقض به الحالم إليه :

(١) حلم رجل بأن البعض يسأله عن اسم ما ولكنه لا يستطيع تذكره . إنه يقول : إن هذا يعنى أن ذلك لا يخطر لى ولو فى الحلم .

(٢) أخبرتنى مريضة بحلم بدا الناس فيه طولاً إلى حد يتجاوز المألوف ، ثم مضت تقول : إن هذا يعنى أن الحلم يتناول أحداثاً وقعت فى طفولتى ؛ فى هذا الوقت كان جميع الراشدين يبدون لى بالطبع طولاً ضخماً . هذا ولم يظهر شخصها هى فى ذلك الحلم .

ومن الممكن أن نعرب عن كون الحلم يشير إلى الطفولة بطريقة أخرى ، هى ترجمة الزمان إلى المكان ، فتبدو الأشخاص والمشاهد كما لو كانت على بعد عظيم ، فى نهاية الطريق ، أو كما لو كان ينظر إليها من منظار أوبرا معكوس الوضع .

(٣) حلم مرة رجل كان يتزع فى حياته إلى العبارات المجردة غير المحددة وإن كان — فيما خلا ذلك — قد وهب نكتة بارعة بأنه قد وصل إلى إحدى محطات السكة الحديدية وقت دخول القطار ، وإذا الرصيف يتحرك جهة القطار بينما القطار واقف بلا حراك — وهو عكس غير معقول لما يحدث فى الواقع . ولم يكن هذا القلب إلا إشارة تشير إلى أن الحلم لا بد مشتمل على قلب آخر فى محتواه [أنظر ص ٣٣٦] . فلما حللناه انتهى الحلم إلى أن تذكر كتاباً مصوراً حوى صور رجال وقفوا على رؤوسهم ومشوا على أيديهم .

(٤) وفى مرة أخرى روى هذا الحلم نفسه حلماً يذكر بطريقة الألبان المصورة ؛ فقد رأى أن عمه كان يقبله فى السيارة [Automobil] . وبادر الحلم إلى تفسير الحلم تفسيراً ما كنت لأحذره قط : إن ذلك كان يعنى العشق الذاتى [Autoerotismus] . وقد كان من الممكن أن يخرج محتوى هذا الحلم فى الحياة المستيقظة على صورة نكتة .

(٥) حلم رجل بأنه يجذب [hervorziehen] امرأة من وراء السرير ، وكان معنى ذلك أنه يؤثرها [vorziehen] .

(٦) حلم رجل أنه يجلس إلى إحدى الموائد فى مواجهة الإمبراطور . وكان معناه أنه يعارض أباه .

(٧) حلم رجل بأنه يعالج شخصاً ما أصيب بكسر فى أحد أطرافه . وأظهر التحليل أن

العظمة المكسورة [Knochenbruch] كانت تنوب عن الزواج المكسور [Ehebruch] ويقال بمعنى الزنا .

٨) ومن الشائع في الأحلام أن يمثل الوقت عمر الحالم في فترة معينة من فترات الطفولة . مثال ذلك أن « الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة » كانت تعني في أحد الأحلام « خمس سنوات وثلاثة أشهر » . وكان لذلك التاريخ أهمية ؛ إذ تلك كانت سن الحالم حين ولد أخوه الأصغر .

٩) وما هو ذا تصوير آخر للسن في الحلم : فقد حلمت امرأة بأنها تسير مع فتاتين صغيرتين فرق السن بينهما خمسة عشر شهراً . ولا تعرف الحاملة أحداً من أسرتهما يصدق عليه ذلك . ولكنها قد أتت بالتفسير حين قالت : إن كلتا الطفلتين تمثلها وإن الحلم إنما يذكرها بالصدامين اللذين عرفتهما في طفولتها ؛ فقد كانت تفصل بينهما هذه الفترة على التحديد ، وقع أحدهما حين كانت تبلغ من العمر السنة الثالثة ونصف السنة ووقع الآخر حين كانت في الرابعة والتسعة الأشهر .

١٠) ولسنا نعجب إذا رأينا أن الشخص الذي يتبع علاجاً تحليلياً نفسياً يحلم كثيراً بعلاجه هذا ويعرب عن أفكار وتوقعات متعددة يبعث العلاج عليها . والصورة التي يغلب اختيارها في تصوير العلاج هي صورة الرحيل ، والرحيل بالسيارة بنوع خاص ؛ لكونها عربة حديثة معقدة . وفي هذه الحالة تجد تهكمات المريض متنفساً بالإشارة إلى سرعة السيارة . وإذا أريد تصوير « اللاشعور » من حيث هو عنصر ورد بين أفكار اليقظة استبدلت به - استبدالاً جاد ملائم - أماكن تقع « تحت الأرض » - وهي أماكن تنوب عن جسم المرأة أو عن الرحم حين تجيء من غير علاقة بالعلاج التحليلي . ويكثر أن تشير « أسفل » إلى أعضاء التناسل ، بينما تشير « أعلى » - على العكس - إلى الوجه أو الفم أو الصدر . ويرمز عمل الحلم عادة بالحيوانات الوحشية إلى الانفعالات الاندفاعية التي يخشاها الحالم من نفسه أو من غيره على السواء ، وهكذا يستطيع - بنقل جد طفيف - أن يرمز بهذه الحيوانات إلى الأشخاص الذين تغلب عليهم هذه الانفعالات . والمسافة هنا قريبة بين ما نحن فيه وبين الحالات التي يصور فيها الأب الخوف بوساطة

وحش كاسر أو كلب أو حصان وحشى ، على نحو يذكر بالطوطمية . وفي مقدورنا أن نقول : إن الحيوانات الوحشية تستخدم في تصوير الليبدو – والليبدو قوة يفرع منها الأنا ويغالبها بالكتب . ومن الشائع أيضاً أن يُفصل العصاب في ذاته – « الشخص المريض » – من الحلم وأن يتمثل في الحلم في صورة شخص مستقل .

(١١) (عن هانس ساكس) «إننا نعلم من 'تفسير الأحلام' أن عمل الحلم يسلك طرقاً مختلفة من أجل الوصول إلى تصوير الكلمات أو الجمل في صورة حسية مرئية . فإذا اتفق – مثلاً – أن كان لتعبير معنيان استطاع الحلم أن يستغل هذا الاشتراك باعتباره منقطعاً يترك عنده أول المعنيين – وهو المعنى في أفكار الحلم – ليدرج الثاني بدلاً منه في محتوى الحلم الظاهر .

« ذلك ما قد وقع في الحلم القصير الآتي، ووقع بعد استغلال ماهر لانطباعات ملامحة من اليوم السابق باعتبارها مادة تصويرية :

« ذلك أتى كنت يوم الحلم قد عانيت بعض البرد، فعزمت في المساء على ألا أغادر الفراش في الليل بقدر المستطاع . وجاء حلم لا يبدو منه إلا أنه يجعلني أتابع في الليل عملاً من أعمال النهار : فقد كنت شغلت في أثناء النهار بلمصق قصاصات من الصحف في دفتر لدى ، وكنت أحرص في خلال ذلك على أن توضع كل قصاصة في موضعها الملائم ، وكان أن جاء الحلم هكذا :

أجهد في لصق إحدى قصاصات الصحف في الدفتر ، فلا يتمشى ذلك مع الصفحة (١) ، وهو ما يثير في نفسي الماء كبيراً .

« وأستيقظ فأجد أن ألم الحلم لا يزال مستمراً في صورة ألم جسمي حقيقي ؛ فقد أراد الحلم – من حيث هو حارس النوم – أن يهبي إلى أن رغبتى في المكث بالفراش قد تحققت متوسلاً إلى ذلك بتصوير عياني للجملة [الألمانية] المزدوجة المعنى . » [وتعني ولكنه لا يمشى الصفحة ، وأيضاً : ولكنه لا يمشى إلى المرحاض أو لا يذهب إليه .]

إننا لنستطيع أن نذهب إلى حد القول : إن عمل الحلم يتوسل إلى التصوير المرئي لأفكار الحلم بكل وسيلة في متناوله ، سواء أمقبولة لاحت لعين النقد المستيقظة أم

مرفوضة، وذلك هو ما يجعل عمل الحلم عرضة للتشكك والسخرية عند كل من لم يعدد
أن يسمع عن تفسير الحلم دون أن يزاوله . وكتاب شتيكل « لغة الأحلام » (١٩١١)
ثرى بالأمثلة التي من هذا القبيل ، غير أنني قد تجنبت مع ذلك الاستشهاد به ؛ لأن
افتقار المؤلف إلى الحكم النقدي مع اتسام منهجه بطابع التعسف يحملان الذهن على
التشكك حتى ولو خلا من كل فكرة سابقة .

(١٢) فأما الأمثلة الآتية فمقتبسة من مقال كتبه تاوسك (١٩١٤) عن استخدام
الثياب والألوان في التصوير الحلمى :

ا - حلم أ . حلماً رأى فيه مربيته القديمة وقد ارتدت رداء ذا بريق [Lüster] أسود، والتصق
برديها التصاقاً شديداً - وكان معنى ذلك أن تلك المربية كانت في رأيه امرأة شهوانية [Lustern] .

ب - حلم ج . أنه يرى فتاة تسير في طريق س . وقد غرها ضوء أبيض وارتدت صداراً أبيض .
كان الحلم قد بدأ في ذلك الطريق أول علاقاته الوثيقة بأنسة لقبها : أبيض .

ج - حلمت السيدة د . بأنها ترى Blasel المعجوز (وهو يمثل من قيينا بلغ الثمانين من العمر)
وقد رقد على ديوان وهو شاكى السلاح [in voller Rüstung] ثم أخذ هذا الممثل يشب فوق المواثد والمقاعد،
ثم استل خنجراً ونظر إلى نفسه في المرآة ملوحاً بالخنجر في الهواء كأنما يحارب عدواً موهوماً .

التفسير : كانت الحاملة تعاني ألماً مزمنياً في المثانة [Blase] ، ثم هي كانت تستلقى
على ديوان في أثناء التحليل ، وكانت إذا نظرت إلى نفسها في المرآة أسرت إلى نفسها أنها
على رغم سنها ومرضاها - لا تزال صحيحة معافاة [rüstig] .

(١٣) « عمل عظيم » في الحلم .

حلم رجل فرأى نفسه راقداً في السرير مثل امرأة حبل ويثير هذا الموقف في نفسه مضضاً شديداً .
يصيح قائلاً : لقد كنت أفضل . . . (في أثناء التحليل أكمل الرجل عبارته - بعد أن تذكر
شخص امرأة ممرضة - بتلك الكلمات . . . أن أكسر الأحجار .) كانت تعلقو سريره خريطة
ثبت شريط من الخشب بجافتها السفلى لكي يبقها منشورة . ينتزع الحلم الشريط الخشبي بأن يقبض على طرفيه
كليهما ، ولكن الشريط لا ينكسر عرضاً بل ينشق طولاً . يحس الحلم عندئذ أنه قد تخفف كثيراً وأن
هذا الفعل قد أعانه على الوضع .

يفسر الحلم من تلقاء نفسه انتزاع الشريط [Leiste] الخشبي بأنه يعنى إتيان

«عمل» [“Leistung”] عظيم . ذلك أنه يريد التخلص من موقفه غير السار (في العلاج) بأن يتترع نفسه من وضعه المؤث . . وأما تلك اللمحة غير المعقولة : ألا ينكسر شريط الخشب بل ينفلق شقين ، فتفسيرها ما يتذكره الحالم من أن هذا التضعيف مضافاً إلى التمزيق ينطوي على إشارة إلى الخصاء . ومن الأمور الشائعة غاية الشيوع أن يصور الحالم الخصاء بوساطة رمزين قضيين تصويراً صادراً عن رغبة مضادة فيها التحدى . أضف إلى ذلك أن Leiste [الشريط ، ويعني أيضاً « الحالب »] منطقة من الجسم قريبة من أعضاء التناسل . ويحمل الحالم تفسير حلمه بما معناه أنه – أعني الحالم – يغالب وعيد الخصاء الذى أحوجه إلى اتخاذ هذا الموقف المؤث (١) .

(١٤) وعرض مرة لتفسير – أثناء تحليل أجريته باللغة الفرنسية – حلم ظهرت فيه في صورة الفيل . ودعاني ذلك بالطبع إلى أن أسأل الحالم لم صورت هذا التصوير ، فكان جوابه “Vous me trompez” [أى « أنت تخدعنى »] (trompe = زلومة) .

وفى وسع عمل الحالم أن يصور مواد عَصِيَّةً إلى أبعد حد – مثل أسماء الأعلام – باستخدام متكلف لروابط جد مستبعدة . فقد جاء في أحد أحلامي أن بروكيه الشيخ كلفى القيام بعملية من عمليات التشريح وأنى فرغت من تحضير أحد المركبات ثم التقطت شيئاً لاج مثل روق الفضة المحمد (وهو حلم سأعود إليه فيما بعد [ص ٤٥١]) . وكان المستدعى الذى ورد على ذهنى بعد شيء من الصعوبة هو : « ستانيول » (٢) . وعندئذ عرفت أننى كنت أفكر فى اسم « ستانيوس » – وهو مؤلف كتب مقالا عن الجهاز العصبي لنوع من السمك أعجبت به إعجاباً شديداً فى شبابه . والحق أن أول عمل علمى كلفى به أستاذه (بروكيه) كان يتعلق بالجهاز العصبي لنوع من السمك اسمه : « Ammocoetes » [فرويد ١٨٧٧ أ] . ومن الواضح أن ذلك الاسم كان يستحيل استخدامه فى لغز مصور .

ولست أستطيع أن أمنع نفسى من أن أسرد فى هذا الموضع حلماً عجيباً فى محتواه ، ثم هو حلم جدير بأن يعار التفاتاً لأنه حلم طفلة ، كما أنه سهل استجلاؤه بالتحليل :

(١) أنظر فرويد ١٩١٤ . ٥

(٢) [ورق الفضة (واسمه عندنا ورق القصدير) عبارة عن شرائح مفضضة من الصفيح، و”ستانيول“

مشتق من ”ستانيوم وهو“ الصفيح .]

قالت سيدة : إننى لا أزال أذكر حلماً عاودنى مراراً فى طفولتى ، وكان فحواه أن الله يحمل قبعة مدبية فوق رأسه . ولقد كان من عادتى وأنا طفلة أن أرى هذه القبعة توضع كثيراً على رأسى حين أجلس إلى المائدة ؛ حتى لا أتمكن من التطلع إلى أطباق الأطفال الآخرين لأرى مقدار ما أخذوا . وإذ كنت سمعت من قبل أن الله علم بكل شىء ، فعنى الحلم أننى على علم بكل شىء رغم القبعة المدبية .

بيد أن طبيعة عمل الحلم والطريقة التى يتصرف بها فى مادته - وأعنى أفكار الحلم - تظهر على نحو حافل بالفائدة النظرية حين نبجىء إلى بحث ما يعرض فى الحلم من الأعداد وعمليات الحساب . أضف إلى ذلك أن للأعداد فى الحلم - على حسب معتقد خرافى - دلالة خاصة على الغيب . ولهذا أنتى من مجموعتى بضعة أمثلة من هذا الطراز .

(١) من حلم أنته سيدة قبل أن ينتهى علاجها بزمن قصير : تريد أن تدفع ثمن شىء ما ، تأخذ ابنتها ٣ فلورين و ٦٥ كرويتسر من كيسها . تقول الحاملة : ماذا تفعاين ؟ إن هذا لا يكلف سوى ٢١ كرويتسر . لقد بدا لى هذا الطرف من الحلم واضحاً مفهوماً دون معاونة ما من جانب الحاملة ، وذلك لما أعرفه من ملابسات حياتها . فالحاملة سيدة أجنبية أدخلت فئاتها فى أحد المعاهد التربوية بفينا ، ولم تكن تستطيع مواصلة علاجها إلا إذا بقيت ابنتها فى فيينا . ولم يكن باقياً غير ثلاثة أسابيع تنتهى بعدها السنة الدراسية وينتهى معها العلاج . واتفق يوم الحلم أن ناظرة المعهد سألتها : هل تستطيع أن تقرر بقاء ابنتها عاماً آخر ؟ ولا شك فى أن خاطرها قد ذهب بها عندئذ إلى أنها سوف تتمكن فى هذه الحالة من الاستمرار فى علاجها سنة أخرى . وذلك هو محور الحلم : فى السنة ٣٦٥ يوماً ، والأسابيع الثلاثة الباقية من السنة الدراسية تعدل ٢١ يوماً (وإن يكن عدد ساعات العلاج أقل من ذلك) . فالأرقام التى كانت تشير فى أفكار الحلم إلى فترات زمنية قد ترجمت فى الحلم إلى مبالغ من النقود - دون أن يخلو ذلك من معنى أعمق ؛ فإن « الوقت من ذهب »^(١) . ولا تعدل ٣٦٥ كرويتسر سوى ٣ فلورين و ٦٥ كرويتسر . وإن ضالة المبالغ المذكورة فى الحلم لتحقيق رغبة مكشوف ؛ فرغبة الحاملة

قد خفضت تكاليف العلاج وأقسط المدرسة على السواء .

(٢) وتسوقنا الأرقام المتضمنة في حلم آخر إلى علاقات أشد تعقداً . فقد سمعت سيدة في مقتبل العمر - وإن تكن تزوجت منذ سنوات متعددة - أن صاحبة من صواحبها تكاد تكون في مثل سنها - هي إيليز ل . - قد خطبت حديثاً ، فحلمت على أثر ذلك الحلم الآتي : إنها في المسرح مع زوجها وقد خلا أحد جوانب القاعة خلواً تاماً . يقول لها زوجها : إن إيليز ل . وخطيها كانا يريدان الهجى أيضاً ، ولكنهما لم يجدا سوى مقاعد رديئة - ثلاثة مقاعد قيمتها فلورين ١ و ٥٠ كرويتسر - فلم يرضيا بها بطبيعة الحال . فتحدثت نفسها قائلة : وما هناك ضرر لو قد فعلا .

ما منشأ هذا الرقم : ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ؟ منشؤه حدث من أحداث اليوم السابق كان في الحقيقة خالياً من كل وزن : ذلك أن أخت زوجها قد أهدي إليها زوجها ١٥٠ فلورين ، فسارعت إلى تبديدها بأن اشترت بها حلية . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ١٥٠ فلورين تعادل ١ فلورين و ٥٠ كرويتسر ١٠٠ مرة . والرقم ٣ - وهو عدد تذاكر المسرح - من أين أتى ؟ الرباط الوحيد الذي نجده هنا هو أن صديقها المخطوبة تقل عنها في السن بمثل هذا العدد من الشهور - ٣ .

وقادنا بعد ذلك إلى حل الحلم أن نكتشف إلام كانت تلمح المقاعد الشاغرة : فتلك كانت تشير إلى واقعة صغيرة هيأت لزوجها فرصة طيبة لمعاكستها ؛ ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن ترى مسرحية أعلن أنها ستمثل في أسبوع مقبل ، وتكلفت الذهاب لا بتياع التذاكر قبل الموعد بأيام متعددة - مع دفع ما يجره ذلك من فرق الحجز . فلما دخل المسرح ألقيا أحد جوانب القاعة وقد كاد أن يكون شاغراً : لم تكن هناك حاجة إلى أن تتعجل كل هذا التعجل .

والآن أبدل بالحلم أفكاره الكامنة : « لقد كان جنونا مني أن أتزوج في مثل هذه السن المبكرة ، وما كانت بي حاجة إلى كل هذه العجلة . وها هو ذا مثال إيليز ل . يريني أنني كنت مستطبعة دائماً أن أجد زوجاً ، بل لقد كنت أجد زوجاً أحسن مائة مرة (زوج ، كتر) لو أنني انتظرت بعض الشيء (على خلاف عجلة أخت زوجها) ، وبنقودي (الدوطة) كان يسعني أن أشتري ثلاثة رجال على هذه الشاكلة ! » إننا نلاحظ أن معنى الأعداد والسياق الذي سبقت فيه قد نالهما في هذا الحلم تحريف يفوق كثيراً

نظيره في الحلم السابق . فعمليات التعديل والتشويه قد ضربت هنا بسهم أوفر ، ومعنى ذلك أن أفكار هذا الحلم كانت مكروهة على أن تتخطى مقداراً ذا شدة خاصة من المقاومة النفسية الداخلية قبل أن تبلغ إلى تصويرها في الحلم . ولا نحن ننسى أن هذا الحلم قد تضمن عنصراً غير معقول ، وأعنى به أن يستأجر شخصان اثنان ثلاثة مقاعد . وهنا أستبق مبحث اللامعقولة في الحلم فأشير إلى أن هذه اللمحة غير المعقولة كانت تهدف إلى تصوير الفكرة التي كان يلح الحالم عليها أشد الإلحاح : لقد كان جنوناً مني أن أتزوج في مثل هذه السن المبكرة . والثلاثة المحتواة في علاقة جد ثانوية بين الشخصين اللذين تنعقد بينهما المقارنة (ثلاثة الشهور فرق السن بين الحاملة وإيلزل) . قد استغلت استغلالاً حاذقاً في إحداث اللمحة غير المعقولة التي كان يتطابها الحلم . ثم خفض المائة وخمسين فلورين إلى فلورين وخمسين كرويتسر يوافق القيمة المنخفضة التي تضيفها الحاملة في أفكارها الكامنة إلى زوجها (أو الكثر) .

(٣) وأما المثال الآتي فيسوقنا إلى طرق الحلم في الحساب ، تلك الطرق التي كان لها أكبر الأثر في الاستهانة بالحلم : حلم رجل فرأى أنه كان يجلس في مقعد لدى آل ب . (وهي أسرة سبقت له معرفتها) وأنه يتحدث قائلاً : لقد كان خطأ كبيراً منكم ألا تعطون Mali . ثم يواصل كلامه فيسأل الخادم : إذن ما عمرك ؟ فتجيبه قائلة : لقد ولدت في ١٨٨٢ . - وأنت إذن في الثامنة والعشرين .

وإذ كان الحلم قد وقع عام ١٨٩٨ فمن الواضح أن ذلك كان حساباً خاطئاً ، وإن ضعف الحالم في الحساب لحرى بأن يُقَرَّبَ من ضعف المريض بعته الشلل إذا لم نجد له له تعليلاً آخر . لقد كان مريضاً ينتمى إلى هذه الطبقة من الرجال الذين لا يريجون من تفكيرهم امرأة وقع عليها ناظرهم . وكانت تاليتها المنتظمة في الدخول إلى حجرة استشارتي خلال بضعة شهور سيدة في مقتبل العمر ، فكان يقابلها في خروجه ويدأب على الاستعلام عنها ويتكلف التأدب معها . وكانت هي من يقدر عمرها بثمان وعشرين عاماً - وفي هذا الكفاية في تحليل نتيجة الحساب المزعوم . وأما ١٨٨٢ فكانت السنة التي تزوج فيها هذا الحالم . وأذكر بعد أنه كان من بين الأمور التي لا يطيقها هذا الحالم ألا يفيض في الحديث مع الشخصين المؤنثين الآخرين اللذين كان يلتقي بهما في منزلي ، وأعنى بهما خادمين - كلتاها على أبعد ما يكون من الصبا - كانتا تتناوبان (٢٧)

فتح الباب له ، فلما لم يجد منهما استرسالا كبيراً علل ذلك لنفسه بأنهما تحسبانه سيئاً تقدم في السن و « استقر » .

وها هو ذا حلم آخر يتميز بوضوح حتمه أو - بالأحرى - حتمه المضاعف ، وهو حلم أدين به وبتفسيره للدكتور ب . داتر .

« حلم صاحب المنزل الذى أسكن فيه - وهو من رجال الشرطة - بأنه يقوم بالخدمة فى أحد الشوارع - وهو ما يحقق له رغبة . ويمر به مفتش حملت بنيقته الرقم ٢٢ يتبعه الرقم ٦٢ أو ٢٦ ، وعلى أية حال كان الرقم يحوى العدد ٢ مكرراً .

« إن كون الخالم قد قسم الرقم ٢٢٦٢ قسمين فى أثناء رواية الحلم ظاهرة تجعلنا بذاتها ندرك أن لكل من شطريه معناه المستقل . ولقد خطر للخالم أن الحديث قد دار بالأمس فى مقر الشرطة حول طول مدة الخدمة ، وكانت مناسبة الحديث أن مفتشاً قد أحيل على المعاش بعد أن بلغ من العمر ٦٢ عاماً . والخالم قد قضى ٢٢ عاماً فى الخدمة ويلزمه الاستمرار فيها عامين وشهرين لكى يكون له الحق فى معاش قدره ٩٠ ٪ . فالخالم يحقق أولاً رغبة داعبت فكره زمناً طويلاً وهى الرغبة فى أن يرقى إلى درجة المفتش ؛ لأن الرئيس الذى يحمل الرقم ٢٢٦٢ على بنيقته ليس إلا الخالم نفسه . وإنه ليقوم بالخدمة فى الشارع - وهى رغبة أخرى أثيرة عنده . ثم هو قد استمر فى الخدمة المدة المتبقية : ٢ سنة و٢ شهر مثل المفتش القديم ذى ال ٦٢ عاماً ، وصار فى وسعه الآن أن يحصل على معاش كامل . » (١)

إذا ألقينا نظرة شاملة على هذه الأمثلة وأخرى تشبهها (أروها فيما بعد [ص ٤٤٧]) ، صرنا فى حل من أن نقول : إن عمل الحلم لا يعرف الحساب على الإطلاق سواء أكان صحيحاً أم كان غير صحيح . كل الأمر أنه يلتقط أعداداً ماثلة فى أفكار الحلم ويتخذ منها إشارات يلمع بها إلى مادة لا يمكن تصويرها بغير ذلك ، واضعاً إياها - هذه الأعداد - فى صورة العملية الحسابية . وهو فى ذلك يعامل الأعداد كما لو كانت مادة يتوسل بها إلى الإعراب عن مقاصده ، على نحو يطابق كل المطابقة أسلوب معالجته لكل فكرة أخرى بما فى ذلك أسماء الأعلام والأقوال الواردة صراحة فى هيئة صور لفظية .

(١) أنظر عند يونج (١٩١١) ومارسينوفسكى (١٩١٢ ب) وغيرهما تحليلات لأحلام أخرى كانت تشتمل على أرقام ، وكانت هذه الأحلام تتضمن فى أحيان كثيرة عمليات معقدة جداً أجراها الخالم فى دقة مذهلة . وانظر أيضاً جونز (١٩١٢) .

ذلك أن عمل الحلم عاجز في الحقيقة عن أن يخلق الكلام خلقاً . فهما ورد في الحلم من الأقوال والردود - سواء كانت معقولة في ذاتها أم كانت هراء - فالتحليل يثبت في كل حالة أن الحلم لم يعد أن يلتقط من أفكار الحلم نبذاً من أقوال قيلت بالفعل من قبل أو سمعت ، وأنه قد عالج هذه الأقوال معالجة طابعها التعسف إلى أقصى الحدود : فهو لم يقف عند انتزاعها من محيطها وتمزيق أوصالها ، يأخذ أجزاء ويترك أخرى ، بل هو في أحيان كثيرة ينظمها في نسق جديد ، حتى ترى الكلام يبدو في الحلم كلاً مترابطاً فإذا التحليل يبين أنه قد تركز من ثلاث نبذ متفرقة أو أكثر . والحلم في خلال هذا الصوغ الجديد يترك في أحيان كثيرة المعنى الأول الذي كان للكلمات في أفكار الحلم ويضيف إليها معنى جديداً كل الجدة ^(١) . وإذا أمعنا النظر في الكلام الذي يشتمل عليه

(١) إن الأعصية تسلك من هذه الناحية مسلكاً لا يختلف مطلقاً من مسلك الحلم . فأعرف مريضة كانت شكايتها أنها تسمع (أي تهلوس) أغنيات أو فقرات من أغنيات بدون إرادتها وعل رغم هذه الإرادة ، وذلك دون أن تستطيع أن تدرك معنى هذه الأغنيات بالنسبة إلى حياتها النفسية - هذا ولم تكن حالتها قطعاً بالبارانويا . لقد بين التحليل أنها كانت تستخدم نفس هذه الأغنيات في غير ما وضعت له بأن تستطيع لنفسها إدخال بعض التعديل عليها . مثال ذلك هذا السطر [من لحن أجاتا في أوبرا فيبير "فرايشوتس"]

"Leise, Leise, fromme Weise"
[رفقا ، رفقا ، أيتها النعمة الخاشعة]

إنه كان يعني بالنسبة إلى لاشمورها : "Leise, leise fromme Weise" [ولا تختلف "Waise" من "Weise" في التعلق ، ولكن المعنى يختلف ، فيصبح السطر : " رفقا ، رفقا ، أيتها اليتيمة الخاشعة "] - وما اليتيمة بالطبع إلا إياها . أو هذا السطر :

"O du selige, O du frohlich"
[أيتها الليلة المباركة ، أيتها الليلة السعيدة]

إنه مطلع أنشودة من أناشيد الاحتفال بليلة مولد يسوع ، ولكن المريضة إذ تسكت عن بقية السطر : " يا ليلة ولد فيها يسوع " تحيل الأنشودة إلى أغنية عرس ، إلخ . . . ومن الممكن كذلك أن يعمل هذا التشويه عمله في أفكار لا تعدو أن تكون أفكاراً ، غير مصحوبة بهلوس . لم كانت تلاحق أحد مرضاى ذكرى قصيدة حفظها في صباه :

"Nachtlich am Busento lipseln..."
[في الليل على همس البوزنتو ؟]

لأن مخيلته كانت تقنع بهذا القدر من البيت :

"Nachtlich am Busen"

[أى : في الليل على الثدي . والبيت من قصيدة ذاعت أوسع ذبوع للشاعر الرومانسى بلاتن فون هالرمونده =

الحلم ، أمكننا أن نفرق بين أجزاء واضحة مركزة نسبياً ، وأخرى كل نفعها أنها أداة وصل ، وأرجح الظن أنها قد أضيفت من بعد على سبيل التكملة ، كما يحدث حين نكمل عند القراءة حروفاً أو مقاطع اتفق سقوطها عند الطباعة . وهكذا يكون للأقوال في الحلم التركيب الذى لبيان مرصوص تألف من كتل ضخمة من أحجار مختلفة النوع شد بعضها إلى بعض بمادة مقواة .

وإذا أردنا الدقة فالوصف الذى قدمناه لا ينطبق إلا على الأقوال التى تحمل شيئاً من الطابع المحسوس للكلام التى يصفها الحلم نفسه بأنها كانت « كلاماً » . فأما سائر الأقوال التى لا يشعر الحلم – كما يقع أحياناً – بأنها قيلت أو سمعت (أى التى لا تفتقرن فى الحلم بمصاحبات سمعية أو حركية) فهذه لا تعدو أن تكون أفكاراً من بين ما يلدو بخلدنا فى أثناء نشاطنا الفكرى المستيقظ ، وهى فى العادة تنقل إلى الحلم كما هى . ويبدو أن القراءة مصدر آخر غزير ترد منه الأقوال غير المتميزة التى من هذا القبيل ، وإن تكن مصدراً يصعب تأثره . وعلى أية حال ، فكل ما يخطر فى الحلم متخذاً صورة الكلام على نحو ملحوظ من الأنحاء يقبل رده إلى أقوال حقيقية فاه بها الحلم أو سمعها . وقد رأينا من قبل أمثلة تشهد بأن ذلك هو مصدر الأقوال فى الحلم ، رأيناها بينما كنت أحل أحلاماً سردتها لمقاصد أخرى . مثال ذلك الحلم « البريء » الذى ذكرته فى ص ٢٠٤ حيث كانت جملة « لم يعد الحصول على ذلك فى حيز الإمكان » تفيد فى

= (١٧٩٦ - ١٨٣٥) وأما البوزنتو فظهر فى إيطاليا . [

ومن المعروف أن الكتاب الهزليين لا يجمعون عن الالتجاء إلى هذه الحيلة الفنية . فقد نشرت " الصحائف الطائرة " [الصحيفة الهزلية المعروفة] فى بابها المعنون " عيون الأدب الألمانى مصورة " ، نشرت ربما يصور قصيدة شيلر " Sieges fest " [عيد الظفر] ، وألحقت بالرسم هذين البيتين :

"Und des frisch erkampften Weib
Freut sich der Atrid und strickt..."

[« وبأنشاء الغنضة المفتصبة

يفرح ابن أتروس ويعقد . . . »]

ثم سكتت عن البقية ، والبقية هى :

"Um den Reiz des schonen Leibes
Seine Arme hochbeglückt".

[« حول سحر جسمها المبدع

ساعده الشايد المؤيد . »]

تعييني بشخص الجزائر ، بينما أفادت تلك النبذة المقتبسة من سياق آخر : « لست أعرف ذلك ، لا آخذه » - أفادت على التحديد في جعل الحلم حلماً بريئاً . فنحن نذكر أن الحاملة كانت في اليوم الذي سبق الحلم قد ردت على مطلب لطاهاها بالعبرة الآتية : « لست أعرف ذلك ، الزم خلودك ! » والجزء الأول من هذا القول - الجزء الذي يلوح بغير شائبة - هو الذي انتقل إلى الحلم لكي يتحقق به التلميح إلى الجزء الثاني - وهو الجزء الذي كان يلائم نوع التخيل الكامن من وراء الحلم أكبر الملائمة ، ولكنه كان أيضاً كفيلاً أن يفضحه .

وها هو ذا مثال يغني عن أمثلة أخرى كثيرة تفضي جميعها إلى ذات النتيجة :

الحالم في فناء كبير أحرقت فيه بعض الجثث . يقول : إني ماض ، لست أطيق منظرها (لم يكن ذلك كلاماً متميزاً .) يقابل الحالم بعدئذ صبي جزار فيسألها : حسناً . هل كان مذاقها لذيذاً ؟ فيجيبه أحدهما : كلا ، كلا على الإطلاق . كأنما كان اللحم لحمياً آدمياً .

إن المناسبة البريئة للحلم هي الآتية : ذهب الحالم وزوجه ذات مساء في زيارة بعض الجيران ، وكانوا من طيبة الناس ولكنهم لم يكونوا بحال من الأحوال من النوع الذي « يفتح النفس » . وكانت ربة البيت العجوز المضيفة لا تزال تتناول عشاءها فحاولت أن ترغمه على أن يذوق بعض طعامها (هناك كلمة أخرى يستخدمها الرجال فيما بينهم على سبيل المزاح للإعراب عن فكرة الإرغام^(١)) . فاعتذر متعللاً بتقص شهيته ، ولكنها أجابته قائلة : « امض ، امض ، إن هذه الكسرة لن تعجزك » أو شيئاً من هذا القبيل . فكان أن اضطر إلى تنويعها ثم أطرى السيدة قائلاً : « إن طعامها لذيذ جداً . » فلما خلا إلى زوجه من جديد تدمر من إلحاح الجارة ومن مذاق طعامها كذلك . وأما فكرة « لا أطيق منظرها » - وهي الفكرة التي لا تخطر حتى في الحلم في صورة الكلام بالمعنى الصحيح - فتلمح إلى الفتن البدنية للسيدة الداعية ، ولا ترجمة لها سوى أن الحالم لا يطيق النظر إليها .

غير أننا نجني المزيد من الفائدة النظرية من حلم آخر أرويه في هذا الموضوع لما اشتمل عليه من كلمات جد متميزة كانت تكون نقطته الرئيسية ، وإن كان هذا الحلم

(١) [أرغم] = "notigen" ، والكلمة المجرى إليها هي "notzuchtigen" وتعني الإرغام بالمعنى الجنسي

أو الاعتصاب .]

لن يتضح إلا حين نعرض للحديث عن الحالات الوجدانية في الحلم . حلمت الحلم الآتى في وضوح تام : ذهبت ليلا إلى معمل بروكه . وقرع الباب قرعاً رقيقاً ففتحته للأستاذ (المتوفى) فلايشل الذى جاء يصحبه بعض الغرباء ثم جلس إلى مائدته بعد كلمات قليلة . وأعقب ذلك حلم ثان : جاء صديق ف . (فليس) إلى قريتنا في شهر يولييه على غير توقع . أقابله في الطريق وهو يتحدث إلى صديق (المتوفى) ب . ، ثم أذهب معهما إلى مكان ما حيث يجلسان الواحد قبالة الآخر كأنما يجلسان إلى مائدة صغيرة ، وأجلس في الصدر عند جانب المائدة الضيق . يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت في خمس وأربعين دقيقة ، ثم يضيف بضغ كلمات من قبيل : تلك كانت العتبة . ولا يفهم ب . مراده ، فيتحول ف . إلى ويسألنى : إلى أى حد أطلعت ب . على أخباره ؟ حينئذ تتولانى انفعالات غريبة وأحاول أن أشرح لصديق ف . أن ب . ما كان بالطبع ليستطيع أن يفهم شيئاً على الإطلاق ؛ لأنه ليس حياً . ولكن التعبير الذى أستخلمه بالفعل - وأنا ألحظ خطئى - كان Non Vixit (لم يعيش) ثم بعد ذلك أصوب نظرة ثاقبة إلى ب . فإذا هو يمتقع أمام نظرك ، وتختلط صورته ، وتحول عيناه إلى زرقة مريضة ، وفى النهاية يذوب ويختفى . أطرب لذلك طرباً لا حد له وأدرك الآن أن إرنست فلايشل لم يكن هو الآخر إلا طيفاً ، شبحاً عائداً ، وأرى أنه من الممكن غاية الإمكان أن يكون أشبال هؤلاء الأشخاص إنما يوجدون بمقدار ما يريد لهم المره أن يوجدوا وأن فى الوسع أن يتبددوا لو شاء الغير ذلك .

إن هذا الحلم البديع قد حوى عدة من الخصائص المحيرة لمحتوى الحلم [الظاهر] : كأن أمارس ملكة النقد فى أثناء الحلم نفسه فألحظ خطئى حين أقول : Non vixit [لم يعيش] بدل : Non vivit [ليس حياً] ، ثم هذه الصلة الحالية من كل كلفة بموتى أعرف فى الحلم أيضاً أنهم كذلك ، ثم فساد استنتاجى الأخير وما أثاره هذا الاستنتاج من الطرب فى نفسى ! إني « لأبذل حياتى طواعية » لو قد استطعت بذلك أن أورد حل هذه الألغاز كاملاً . ولكن الحقيقة أنى لا أستطيعه : إنى لأعجز عن أن أتى ههنا ما أتية فى الحلم من التضحية بأشخاص أكن لهم أكبر التقدير فى سبيل مطامحى . بيد أن كل استخفاء سوف يهدم مع هذا ما أعلم حق العلم أنه معنى الحلم . وعلى ذلك أقنع هنا ثم فى الموضوع الآخر [ص ٤٧٨] بأن أنتنى قلة من عناصره لأفسرها .

لقد كان محور الحلم مشهداً أعدم فيه ب . بنظرة ، وتحول عيناه فى أثناءه إلى أزرق غريب يفارق كل مألوف ، ثم يذوب هو ويختفى . وما من خطأ فى أن هذا المشهد إنما ينسخ آخر قد عشته حقيقة . فقد عملت ممرنا فى المعهد الفيزيولوجى وكان الواجب يقتضى أن أبدأ للعمل فى الصباح الباكر . ونمى إلى سمع بروكه أنى كنت أصل متأخراً

إلى معمل الطابة في بعض الأحيان ، فتوجه إلى المعمل ذات صباح ساعة البدء في العمل وانتظرنى : كانت كلماته موجزة وكانت في الصميم . ولكن الذى هنى لم يكن كلماته وإنما اكتسحتنى عيناه الزرقاوان الرهيبتان اللتان سددهما إلى فأحالتانى إلى عدم - شأن ب . في الحلم ، حيث انعكس الدوران بما يخفف عنى . وإن من يذكر عيني الأستاذ الجليل - هاتين العينين اللتين ظل لهما جمالهما العجيب وهو بعد شيخ طاعن - ويذكر أنه رآه في سورة من الغضب ليستطيع في غير عناء أن يتخيل ما ولى إذ ذاك الفى الآثم من الانفعالات .

بيد أنى لبثت وقتنا طويلا لا أفلح في العثور على مأتى جملة "Non vixit" التى صغت فيها ذلك الحكم على ب ، . إلى أن خطر لى أن هاتين الكلمتين لم تحظيا في الحلم بتلك الدرجة الشديدة من الوضوح لأننى سمعتهما من قبل أو فهت بهما ، بل لأننى رأيتهما . وحينئذ علمت على الفور من أين أتتا : فعلى قاعدة التمثال المقام للقيصر جوزيف في القصر الإمبراطورى بقيينا نقرأ تلك الكلمات الجميلة :

Saluti patriae vixit
non diu sed totus^(١)

لقد أخذت من هذه الكلمات ما يلائم الخواطر للعداثية التى كانت تتضمنها أفكار الحلم ، وما كان معناه : «ليس لهذا الشخص رأى يعتد به ؛ إنه ليس حيا على الإطلاق» . وإنى أذكر الآن أنى رأيت هذا الحلم أياماً قليلة قبل أن يرفع الستار عن نصب تذكارى أقيم لفلايشل في ساحة الجامعة . وكنت آنذاك قد رأيت نصب بروكه مرة ثانية ، ولا بد أنى فكرت أسفاً (تفكيراً لا شعورياً) كيف كان الموت المبكر سبباً في أن يفقد صديقى ب . الذى ندب حياته لخدمة العلم حقه المشروع المستحق في نصب يقام له في هاته الحرمات . وهكذا كان أن أقمت له في الحلم هذا النصب - وأذكر بعد أن صديقى ب . كان اسمه الأول جوزيف^(٢) .

(١) [لخير الوطن عاش بكل نفسه وإن لم يعيش طويلا .] الكلمات الصحيحة هي :

Saluti Publicae vixit
non diu sed totus.

وأكبر الظن أن فيتلز قد ضمن السبب الصحيح للخطأ الذى جعلنى أضع patriae بدل publicae [أى "لخير الوطن" بدل "للخير العام"] .
(٢) وأضيف - كثال على الحتم المضاعف ، أن معدوق عن الوصول إلى المعمل متأخرا كانت أنى =

بيد أن قواعد تفسير الحلم لا تبرر حتى الآن كوني بدأت بـ "non vivit" التي أحتاج إليها "non vixit" المستمدة من ذكرى نصب القيصر جوزيف . لا بد أن أفكار الحلم قد حوت عنصراً كان له أثره في جعل هذا التبديل أمراً ممكناً . وهأنذا أنتبه الآن إلى أن هذا المشهد من الحلم قد حوى مجريين من المشاعر نحو صديقي ب . : الأول عدائي ، طاف على السطح والثاني ملؤه الود ، مستر ، ولكنهما يبلغان جميعاً إلى التمثل في تلك الجملة الواحدة : « non vixit » . لقد استحق ب . أطيب الجزاء من العلم ، فله أشيد نصباً ، ولكنه تذبذب على برغبة شريرة (أعرب عنها في نهاية الحلم) ، ولهذا أعدته . إنني ألاحظ أن هذه الجملة الأخيرة قد أجريت على وتيرة خاصة ، ولا بد أني كنت متأثراً فيها بنموذج احتديته . أين نجد مثل هذا التقابل ، مثل هذا التجاور جنباً إلى جنب بين استجابتين متضادتين تجاه شخص بعينه ، استجابتين تدعى كل منهما أن لها ما يبررها كمال التبرير دون أن تعمل مع ذلك على أن تغير شيئاً من الأخرى ؟ نجده في فقرة واحدة ولكنها فقرة تترك في النفس أثراً عميقاً ، في الخطاب الذي يلقيه بروتوس لكي يبرر فعله في « يوليوس قيصر » لشكسبير : « أحبني قيصر ، فعليه أبكي ، وكان مجوداً ، فله أسر ، وكان مقداماً ، فإياه أبجل ، لكنه كان طموحاً ، لهذا قتلته . » أليست بنية العبارة هنا وأليس التقابل في المعنى هما هما اللذان رأيناها في فكرة الحلم التي كشفت عنها . وإذن كنت ألعب بروتوس في الحلم . لو استعطت أن أجد في محتوى الحلم أثراً آخر يؤيد هذه الرابطة الجانبية المدهشة ! إنني أفكر في أن ما يأتي ربما كان شاهداً ممكناً : « جاء صديقي ف . إلى فيينا في شهر يولييه . » إن هذه النبذة من الحلم لا أساس لها في الحقيقة الواقعة ؛ فصديقي ف . - بقدر ما أعلم - لم يأت قط إلى فيينا في شهر يولييه . ولكن يولييه شهر سمي باسم يوليوس قيصر ، وهو إذن قد يمثل حقيقة هذه الإشارة التي أبحث عنها إلى تلك الفكرة المتوسطة ، فكرة القيام بدور بروتوس ^(١) والشئ العجيب هو أني قد لعبت بروتوس حقيقة يوماً ما : فقد مثلت مرة أمام جمهور من الأطفال مشهداً من شيللر يدور بين بروتوس وقيصر . كنت أبلغ من العمر

كنت مضطراً - بعد العمل حتى ساعة متأخرة من الليل - إلى أن أقطع في الصباح المسافة الطويلة بين شارع القيصر جوزيف وشارع فارينجر .

(١) ثم أيضاً هذه الرابطة : قيصر [يوليوس] - قيصر [جوزيف] .

إذ ذاك أربعة عشر ربيعاً وكان يشاركني المشهد ابن أخ يكبرني بعام واحد ، وكان قد وفد حديثاً من إنجلترا ؛ فكان هو الآخر عائداً ! إنه كان رفيق السنوات الأولى من طفولتي يُبعث بمجيئه إلى الوجود من جديد . فقد كنا حتى نهاية السنة الثالثة من حياتي صنوين لا يفترقان ، أحب كلانا الآخر وناصبه العدا ، وكان لهاته العلاقة الطفلية - كما ألمعت إليه من قبل - أثر حاسم في جميع علاقاتي التالية بمن كانوا في مثل سني . ومنذ ذلك الحين وابن أخي - جون - يجد له متقصبين عديدين يبعثون - على حسب الأطوار - هذا الجانب أو ذلك من شخصه المثبت في ذاكرتي اللاشعورية تثبيتاً لا يتزعزع . ولا بد أنه - بين الحين والحين - قد أذاقني شر المعاملة ، ولا بد أني أظهرت شجاعة جمّة في وجه طاغيتي ؛ فكثيراً ما سمعت في مستأنف السنين عن خطاب قصير ألقته دفاعاً عن نفسي إذ سألتني والدي - وهو جد غريمي - الحساب : سألتني : لم تضرب جون ؟ فأجبت في لغة الطفل لما يبلغ العامين : ض (ل) بته ؛ لأنه ض (ل) بني . ولا بد أن هذا المشهد الطفلي هو الذي حرف non vivit إلى non vixit ؛ فالضرب في لغة سنوات الطفولة اللاحقة يسمى wixhen [فيكسن] ، وما يترفع عمل الحلم عن التوسل بأمثال هذه الروابط . والحق أن عدائي تجاه صديقي ب . لم يكن له من الحقيقة الواقعة إلا أقل المبررات ، وكان إذن يرجع يقينا إلى علاقتي الطفلية المعقدة بجون ؛ لقد كان صديقي ب . يفضلي أضعافاً ، وهو - لهذا - كان مهيباً لأن يبدو لي مثل نسخة جديدة من رفيقي في اللعب .

وقد قلت : إن لي عوداً إلى هذا الحلم .

ز

الأحلام اللامعقولة - النشاط العقلي

في الأحلام

لقد صادفنا عنصر اللامعقولة مراراً من قبل بينا كنا نفسر الأحلام التي سبقت ولسنا نستطيع بعد الآن أن نرجح البحث في منشأ هذا العنصر وفي المغزى الذي قد يكون

له ، فما زلنا نذكر أن لا معقولية الأحلام قد زودت أولئك الذين ينفون قيمة الحلم
بمحتمهم الرئيسة في أن الأحلام يجب أن تعد نتاجاً لا معنى له تولد عن نشاط عقلي منقوص
متقطع .

وأبدأ بتقديم أمثلة قليلة ليست اللامعقولية فيها إلا شيئاً ظاهرياً ، ولكنها لا تلبث
أن تختفي حين تقرب النظر إلى الحلم . وها هي ذى بضعة أمثلة تتصل بالأب الميت
(وهي صلة قد تلبو للوهلة الأولى وليدة الصدفة) .

حلم مريض كان قد فقد والده قبل الحلم بستة أعوام الحلم الآتي :

زلت بوالده نكبة بالغة : ذلك أنه كان يسافر ليلاً فخرج القطار عن السكة وانطبقت المقاعد بعضها
فوق بعض وانضبط رأس والده حتى انطبق جانباً على جنب . يراه الحالم بعد ذلك راقداً في سريره وفوق حاجبه
الأيسر جرح ذو اتجاه رأسى . يعجب الحالم من أن يتزل بوالده مكروه (ويزيد فيقول وهو يروى : لأنه
كان قد مات) . ما كان أفتح لون عينيه !

لو اتبعنا النظرية السائدة عن الأحلام لفسرنا محتوى هذا الحلم على ذلك الوجه :
إن الحالم وهو يتخيل هذه الحادثة التي ألمت بأبيه قد نسى أول الأمر أن أباه هذا راقد
في قبره منذ سنوات متعددة ، فلما استمر في حلمه استيقظت الذكري وكانت النتيجة
أنه عجب لحلمه وهو ما زال بنومه . بيد أن التحليل يعلمنا أن التماس أمثال هذه التعليلات
لا يجدى شيئاً . لقد كان الحالم أوصى أحد الفنانين بصنع تمثال نصفي لأبيه ، ولم يكن
رأى التمثال للمرة الأولى إلا قبل الحلم بيومين . وإن تكن من نكبة ، فالنكبة إنما حلت
بهذا التمثال ؛ ذلك أن التمثال لم يكن رأى والد الحالم قط وكان يعمل غير مستعين إلا
إلا بالصور الشمسية وحدها . وحدث في اليوم الذى سبق الحلم أن الحالم - مدفوعاً بتقواه
البنوية - أرسل خادماً من خدم الأسرة القدماء ليرى بعينه هل كان الحالم محقاً في حكمه
على الرأس المرمرية - وكانت تلبو له شديدة الضيق فيما بين الجانبيين عند الصدغين . ثم
يمضى الحالم فيأخذ في تذكر المادة التي شاركت في تكوين هذا الحلم : لقد كان من عادة
الوالد حين تعذبه هموم العمل أو متاعب الأسرة أن يضغظ جانبي الجبهة بكلتا يديه
كأنما كان يحس انبساطاً مفراطاً في رأسه ويود لو ضمها . - وحدث مرة أن المريض -
وهو في الرابعة من عمرة - كان حاضراً حين انطلق مسدس اتفق أنه كان مليئاً

بالرصاص فاسودت عينا والده (ما كان أفصح لون عينيه !) - وأما تلك البقعة فوق الجبهة حيث مكان الجرح في الحلم فكانت - ووالده على قيد الحياة - تحمل خطأ غائراً يظهر كلما ولى الوالد فكر أو حزن . فأما أن يرتفع هذا الخط ويحل جرح في موضعه فهذا ما يشير إلى المناسبة الثانية للحلم : ذلك أن الحلم التقط صورة شمسية لابنته الصغيرة وانزلت اللوحة بين أصابعه ، فلما التقطها رأى بها شرحاً جرى فوق جبهة الفتاة الصغيرة في اتجاه رأسى حتى حاجبها . ولم يملك الحلم إلا أن يتطير ؛ لأنه قبل أن تموت أمه بأيام قلائل قد كسر لوحة شمسية كانت تحمل صورتها .

وهكذا لا تخرج اللامعقولية في هذا الحلم عن أن تكون نتاجاً لما في التعبير اللغوي من إهمال يقعه عن التفرقة بين التمثال أو الصورة وبين الشخص الحقيقي ؛ فكلنا قد نقول [ونحن نتحدث عن صورة] « ألا ترى أن الوالد غير مضبوط ؟ » وقد كان من السهل تجنب ظهور اللامعقولية في هذا الحلم ؛ فلو جاز للمرء أن يحكم مستنداً إلى مثال واحد لأغريتنا بالقول : إن مظهر اللامعقولية هذا مظهر لاقى موافقة - إن لم يكن جاء عمداً .

(٢)

وما هو ذا مثال ثان يشبه السابق غاية الشبه ، أنتخبه من أحلامي (تقدمت والدى عام ١٨٩٦) :

قام والدى بعد موته بدور سياسى كبير بين المجرىين ، ووجد بينهم سياسياً . وهنا أرى صورة صغيرة غير واضحة : حشد من الناس كأنهم في الراشحتاج ، يقف شخص على مقعد أو مقعدين وقد أحاط به آخرون . أذكر عندئذ كيف كان والدى - وهو على فراش الموت - شديد الشبه بفاريبالدى ، وأسر لأن هذا الورد قد صار حقيقة .

لنى هذا من اللامعقولية الكفاية ! إن هذا الحلم قد جاعنى في وقت آل فيه المنغاريون إلى حال انعدم فيها القانون من جراء العرقلة البرلمانية ، وكانوا يجتازون هذه الأزمة التى

خلصهم منها كولومان سُل^(١) . ولم تكن تلك الملابس التافهة : أن المشهد المرئي في الحلم قد تكون من صور صغيرة كل الصغر - خالية من الأهمية فيما يتعلق باستجلاء هذا العنصر من الحلم . ذلك أن الحلم يصور أفكارنا عادة في صورة تقارب الحجم الطبيعي ، ولكن الصورة التي رأيتها في حلمي إنما كانت تردد صورة محفورة من الخشب رأيتها منقولة في كتاب مصور عن تاريخ النمسا ، وكانت هذه الصورة تمثل ماريا تيريزا في رايششتاج برسبورج إبان المشهد المعروف [حين هتف نبلاء المجر بمبايعتهم] : « موت فداء مليكنا »^(٢) . وقد وقف والذي محاطاً بالجموع مثل ماريا تيريزا ، ولكنه وقف على مقعد [Stuhl] أو مقعدين ، أى أنه كان قاضياً [Stuhlrichter] وترجمته الحرفية هي : قاضى الكرسي بمعنى القاضى المترس [. ثم هو قد وحدهم : إن الرابطة هنا هي هذا التعبير [الألماني] الدارج : لن نكون بحاجة إلى قاض [أى سنكون متحدين لا متنازعين] . فأما أن والذي وهو على فراش موته قد لاح شيئاً بغاربالدى كل الشبه فذلك أمر لاحظناه جميعاً نحن الذين اجتمعنا من حوله في هاته الساعة ؛ فقد ارتفعت درجة حرارته عقب الوفاة واحمرت وجنتاه حمرة زادت عمقاً بعد عمق . إن الخاطر لينساق هنا طواعية إلى تلك الكلمات : « ومن ورائه يجثم - في مظهر خلو من كل حقيقة - هذا القيد الذى يغلنا جميعاً : الأمور المشتركة [أو المشاعة المتبدلة] . »^(٣)

إن هذا العلاء في أفكارنا يجعلنا نتوقع أننا لا بد آتون إلى هذا « المتبدل » على التحقيق فارتفاع درجة حرارة والذي « عقب الوفاة » هو المضمون الذى يقابل قول الحلم : « بعد موته » ، وقد كان أقسى ما لاقاه والذي من العذاب شلل الأمعاء شللاً تاماً (العرقلة) في خلال الأسابيع الأخيرة . وترتبط بذلك أفكار لا توقير فيها من كل صنف . من ذلك

(١) [رئيس الحكومة الائتلافية التى تألفت عام ١٨٩٨ فأنقذت المجر من أزمة سياسية عنيفة .]

(٢) ["moriamur pro rege nostro"] - لست أدري أين قرأت عن حلم ازدحم بصور صغيرة على خلاف المألوف ثم تبين أن مصدرها كان صوراً بماء الفضة من صنع چاك كالمو ، رأها الحلم في خلال النهار . ولوحات كالمو هذه تحتوى فعلاً على عدد كبير من صور صغيرة جداً ، وتمثل طائفة منها أهوال حرب الثلاثين .

(٣) [من قصيدة جوته المعنونة "Epilog zu Schiller's Glocke" .]

أن أحد أقراني - وكان قد فقد والده ونحن لا نزال بالمدرسة الثانوية وكنت قد تأثرت له كثيراً إذ ذاك وبذلت له من صداقتي - قد قصص على مستهزئاً أي ألم أصاب إحدى قريباته إذ سقط والدها ميتاً في الطريق ، وأحضر إلى المنزل محمولاً ، فلما نزعَت الثياب عن جسده تبين أن عمود البراز [Stuhl] قد نزع منه في لحظة الوفاة أو عقب الوفاة . وكانت الابنة تشعر بتمس عميق إذ ترى هذه اللمحة الكريهة تنغص ذكراها لأبيها . ههنا نلمس الرغبة التي تجسمت في هذا الحلم : أن يقف الأب بعد مماته طاهراً عظيماً في أعين أبنائه - ومن ذا الذي لا تجول بصدرة هذه الرغبة ؟ ولكن ماذا عن لا معقولة الحلم ؟ إن مظهرها إنما يرجع إلى أن تعبيراً جارياً يستسيغه الجميع كل استساعة وألفنا أن نغض النظر عن اللامعقولة المتضمنة في التناقض الذي بين مقوماته قد صور في الحلم بخاديفه . وهنا أيضاً لا نستطيع أن نتجنب الشعور بأن مظهر اللامعقولة في الحلم مظهر مقصود ، مستثار عمداً .

إن الكثرة التي يخطر بها الموتى في أحلامنا ويعملون ويتصلون بنا كما لو كانوا أحياء كانت مثاراً لعجب لا داعي إليه وسبباً في نظريات غريبة تبرز سوء فهمنا للأحلام إبرازاً قوياً . وتعليل هذه الأحلام قريب مع ذلك منا كل القرب . فكم من مرة نرانا في موقف نتساءل معه : « ترى ماذا كان يقول الوالد لو كان حياً ؟ » ولا يستطيع الحلم أن يصور « لو » هذه بغير الحضور الفعلي في موقف بعينه . مثال ذلك شاب ترك له جده ميراثاً كبيراً ، فلما أخذ يؤنب نفسه لأنه أضاع قدراً لا يستهان به من المال حلم بأن جده يناقشه الحساب . وإن ما نعتقد أنه نقد موجه إلى الحلم إذ نحتاج استناداً إلى معرفتنا الوثقى بأن الرجل ميت مطمور بعد كل شيء ، ليس في الحقيقة إلا عزاء يقول لك : إن الميت قد أغناه الموت عن أن يرى هذا كله ، أو ارتياح إلى ما آل إليه من العجز عن أن يتدخل بخير أو بشر .

وهناك نوع آخر من اللامعقولة يظهر في أحلام الأقارب المتوفين ولكن دون أن يعرب عن سخرية أو زراية^(١) ، وإنما عن استنكار بلغ منهاه ، وبذلك يفيد في تصوير فكرة مكبوتة يؤثر المراء أن ينظر إليها نظرتة إلى أمر يستحيل مجرد التفكير

(١) [يفهم من هذه الجملة أن اللامعقولة في الحلم تمرب عن سخرية أو زراية متضمنة في أفكار الحلم وهي

النتيجة التي يتخلص إليها فرويد فيما بعد .]

فيه . وتبدو الأحلام التي من هذا النوع مستعصية على كل حل ما لم تنتبه إلى أن الحلم لا يفرق أقل تفرقة بين ما هو حقيقى وما هو موضوع رغبة . مثال ذلك رجل غنى بأبيه فى أثناء مرضه وألم لموته ألماً بالغاً ثم بعد أن انقضى زمن على موته حلم هذا الحلم غير المعقول : كان أبوه حياً من جديد وكان يتحدث إليه كسابق عهده ولكنه (وهذا هو الشيء العجيب) كان مع ذلك ميتاً ، سوى أنه لم يكن يعلم أنه كذلك . إننا نفهم هذا الحلم حين نضيف إلى « كان مع ذلك ميتاً » : « نتيجة ارغبة الحالم » ، وحين نكمل « دون أن يعلم » ب : « أن تلك رغبة الحالم » . ذلك أن الحالم قد اشتى الموت لوالده مراراً بينما كان يقوم بتمريضه ، وهذا يعنى أنه قد ساورته تلك الفكرة التي كانت فى الحقيقة مشربة بالرحمة : أن يضع الموت حدا لعذاب أبيه . فلما جاء الحداد فى أعقاب الموت أصبحت هذه الفكرة عينها مثاراً لتأنيب لا شعورى ، كأنما كان من أثرها أن قصرت بالفعل حياة المريض . ولقد أمكن الإفصاح عن هذا التأنيب فى صورة حلم ، لأن أقدم الدوافع الطفلية العداثية نحو الأب قد أثرت ثاثرتها ، إلا أن الفرق الساحق بين الحافز إلى الحلم وبين أفكار اليقظة - هذا الفرق على التحديد - هو الذى حتم خروج الحلم على تلك الصورة اللامعقولة . (أنظر فرويد ١٩١١ ب .)

والحق أن الأحلام المتعلقة بمن ماتوا من أحياء الحالم تثير فى وجه التفسير مشكلات صعبة ليس من المستطاع فى كل حالة الوصول إلى حلها حلاً مرضياً . والسر فى ذلك ينبغى التماسه فيما يسيطر على علاقة الحالم بالشخص الميت من ازدواج عاطفى ذى شدة خاصة ملحوظة . ومن الشائع فى الأحلام التي من هذا القبيل أن يعامل الشخص الميت فى المبدأ كما لو كان حياً ، ثم ينقلب فإذا هو ميت ، ثم يعود إلى الحياة فى جزء نال من الحلم . وكل هذا سبب فى أن تختلط الأمور علينا . ولقد خطر لى فى النهاية أن هذا التداول بين الموت والحياة قد يكون القصد منه استواء الطرفين عند الحالم (« سواء عندى أن يكون حياً أو ميتاً ») . وهذا الاستواء بالطبع ليس حقيقة بل موضع رغبة وحسب ، والقصد منه هو مساندة الحالم على أن ينبذ مواقفه العاطفية ذات الشدة المفرطة والتي يكثر تناقضها ، وهو لهذا يصير وسيلة يصور بها الحلم الازدواج الذى فى عاطفة الحالم . وهناك أحلام يتواصل فيها الحالم والميت ، وهنا تعيننا القاعدة الآتية على أن نجد طريقنا : إذا لم يذكر فى الحلم أن الميت ميت ، فالحالم يساوى نفسه بالميت ، أى أنه يحلم بموته نفسه ،

فإن صاح فجاءة في دهش : « ولكنه قد مات يقينا منذ زمن طويل ! » فالحلم يطرح هذه المساواة وينبذ ما يحمله الحلم من معنى موته . بيد أنني أعترف بشعوري بأن تفسير الأحلام ما زال بعيداً عن أن يفض جميع الأسرار التي تنطوي عليها الأحلام التي لها هذا المحتوى .

(٣)

ولقد أمكنني في المثال الذي سأرويهِ الآن أن أفاجئ عمل الحلم وهو يعمل عن عمد على خلق مظهر من مظاهر اللامعقولية دون أن تكون في مادة الحلم أقل مناسبة لذلك . والمثال مأخوذ من الحلم الذي أثاره التقاؤى بالكونت تون وأنا أهم بالإجازة [ص ٢٢٨] : « أركب عربة وأمر السائق بالتوجه إلى المحطة . أقول له بعد أن أثار اعتراضاً ما - كان أكون أرقته : إنني بالطبع لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها : وهنا يبدو الأمر كأنما كنت قد ركبت معه بالفعل المسافة التي يقطعها المرء عادة بالقطار . » إن التحليل يزودنا بما يلي في توضيح هذه القصة المشوشة غير المعقولة : أجزت في اليوم السابق عربة لكي تحملني إلى شارع ناء في دورنباخ [من ضواحي فيينا] ، ولم يكن الحوذي يعلم مكان الشارع ، ولكنه مع ذلك أخذ يسوق ويوغل على ما نعلم من عادة هؤلاء القوم الأماجد ، إلى أن انتهت أخيراً فأعلمته أين الطريق الصحيح دون أن أبخل عليه ببعض الملاحظات الساخرة . وكانت هناك رابطة فكرية - سألتني بها مرة أخرى فيما بعد - تقود من الحوذي إلى النبلاء . وأما الآن فلم تكن إلا تلك الفكرة العابرة ، وهي أن أشد ما يدهشنا نحن عامة البورجوازيين من النبلاء هو غرامهم بالجلوس في مقعد السائق ؛ فقد كانت الكونت تون في الحقيقة يقود عربة الدولة النمساوية . بيد أن أن الجملة التالية كانت تشير إلى أخي الذي عينته - إذن - في الحلم بسائق العربة ؛ فقد حدث في هذا العام أنني عدلت عن رحلة كنا عزمنا على القيام بها سوياً إلى إيطاليا (« إنني لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») ، ولقد كان هذا العدول نوعاً من العقاب على ما كنت أسمع من شكاياته : فأنا في أمثال هذه الرحلات لا أكف عن إرهابه (وهو ما ورد في الحلم من غير تحريف) بالإصرار على الانتقال العاجل من مكان إلى آخر وعلى مشاهدة عدد لا يحصى من الأشياء الجميلة في اليوم

الواحد . وكان أخى قد صحبني ذلك المساء إلى المحطة ، ولكنه قفز قبلها بمسافة قصيرة عند محطة خطوط الضواحي الملحقة بمحطة الخطوط الرئيسة لكي يركب الخط الذاهب إلى پوركسدورف [على سبعة أو ثمانية أميال من فيينا] . وكنت في حديثي إليه قد لاحظت أنه كان يستطيع أن يمكث معي فترة أطول أو أنه سافر إلى پوركسدورف بالخط الرئيس بدل السفر بخط الضواحي . ومن هنا جاء في الحلم أنى ركبت بالعربة جزءاً من المسافة التي يقطعها المرء عادة بالسكة الحديدية . ولقد كان ذلك عكس ما وقع في الحقيقة (و « الركوب المعكوس هو أيضاً ركوب ») (١) ؛ فقد كنت قلت لأخى : تستطيع أن تركب معي على الخط الرئيس تلك المسافة التي تريد أن تقطعها في خط الضواحي . وكنت أنا مبعث كل الخلط في الحلم بأن وضعت « العربة » بدل « خط الضواحي » - وهو ما أفاد على أية حال فائدة طيبة في الربط بين الحوذى وأخى . وهكذا أخلق في الحلم شيئاً لا معنى له ، يبدو مختلطاً اختلاطاً يكاد يتعذر معه كل حل ، ثم هو يكاد يناقض ملاحظتي السابقة في الحلم (« إننى لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها ») كل المناقضة . وإذ لم تكن هناك أية ضرورة تدعونى إلى أن أخلط بين سكة حديد الضواحي والعربة ، فلا مناص من التسليم بأن كل هذه الأشغولة الملغزة إنما جاءت لغرض في نفسى .

ولكن أى غرض؟ إن علينا الآن أن نكتشف معنى اللامعقولية في الحلم والدوافع التي تدفع إلى قبولها أو خلقها خلقاً . وحل اللغز في الحالة التي نحن فيها هو ما يأتي : إننى كنت محتاجاً إلى أن أحيك مظهراً من مظاهر اللامعقولية ، شيئاً غير مفهوم مرتبطاً بكلمة "fahren" (٢) لأننى كنت أضمر بين أفكار الحلم معنى لم يكن بد من تصويره . وبيان ذلك أنه حدث ذات مساء أنى كنت في منزل سيدة كريمة عالية الذكاء - هي التي ظهرت في صورة « مدبرة المنزل » في أحد مشاهد هذا الحلم عينه - وهناك سمعت أحجبتين طلب منى أن أجد

(١) "Umgekehrt ist auch Gefahren" (أى أن الركوب أو السوق الذي يتمكس اتجاهه فيصير إلى الخلف هو أيضاً ركوب أو سوق) . تعبير "مسمى لطيف بمعنى : والعكس أيضاً يصدق . والمراد هنا هو : لم يركب أخى تلك المسافة في الحقيقة ، إذ أن ركبتها أنا في الحلم ، وكله ركوب برغم العكس .]

(٢) [إن كلمة "fahren" التي ترجمناها حتى الآن ترجمة منتظمة بكلمة "ركب" تعنى في الحقيقة : ركب العربة أو ساقها أو ركب القطار أو سافر .]

حلهما . وكانت بقية الجماعة تعرف هاتين الأحجيتين ، فكان منظري وأنا أحاول سدى العثور على الإجابة باعتماداً على الضحك . وكانت الأحجيتان تقومان على تورية في معنى كلمتي "Nachkommen" و "Vorfahren" ، وكان نصهما - فيما أعتقد - هو الآتي :

Der Herr befiehlt's,
Der Kutscher tut's.
Ein jeder hat's,
Im Grab ruht's.

[السيد يطلبه]

الحوذى ينفذه .

الجميع يملكه

في القبر مرقدته .]

الجواب : "Vorfahren" [وهو فعل بمعنى « تقدم بعربته » واسم بمعنى « السلف » أو « المتقدمون » .]

وكان مما يبعث على الارتباك أن النصف الأول من الأحجية الثانية كان مشتركاً بينها وبين الأولى :

Der Herr befiehlt's
Der Kutscher tut's.
Nicht Jed r hat's
Im der Wiege ruht's

[السيد يطلبه]

الحوذى ينفذه .

ليس الكل يملكه

في المهد مرقدته .]

الجواب : "Nachkommen" [ويعنى « تبع » وأيضاً « الخلف » أو « النرية » أو « اللاحقون » .]

فلما رأيت الكونت تون تتقدم عربته على هذا النحو الفخم وتولاني عندئذ مزاج فيجارو بملاحظته عن طيبة السادة الذين كلفوا أنفسهم عناء الحجىء إلى الحياة (أن يكونوا خلفاً) ، اقتبس عمل الحلم هاتين الأحجيتين متخذاً منهما فكرتين متوسطتين^(١) .

(١) [لتأدية من فكرتى النبلاء والحوذية من ناحية إلى فكرتى السلف والخلف من ناحية أخرى .]

وإذ كان من السهل أن نخلط بين النبلاء والحوزية [أو السائقين] وكان هناك زمان في بلدنا كنا نسمى فيه الحوزى : "Herr Schwager" ["Schwager"] يعنى « صهر » أو على الأدق « أخ بالمصاهرة » ، فقد وسع التكيف أن يدرج أخى في ذات الصورة . وكانت فكرة الحلم التى تعمل عملها وراء هذا كله هى الفكرة الآتية : إن من الحرق أن يتيه المرء بسلفه ، إنى أوثر أن أكون أنا نفسى سلفاً ورأس سلالة .

ومن أجل هذا الحكم : « إن كذا حرق » ظهر الحرق في الحلم . وهكذا يحل آخر لغز في تلك الفقرة المعتمة من الحلم : أنى تقدمت مع الحوزى [على تلك المسافة] ، أنى كنت متقدماً [أو سابقاً ، أى سلفاً] .

الحلم – إذن – يُجعل لا معقولاً أو فاسداً إذا كان بين العناصر المتضمنة في أفكار الحلم حكم فحواه : إن ذلك حرق ، أى إذا كان بين أفكار الحلم اللاشعورية فكرة دافعها النقد أو الزراية . واللامعقولة على ذلك أحد المناهج التى يتوسل بها عمل الحلم إلى تصوير التناقض بجانب المناهج الأخرى : كأن تقلب علاقة بين المواد عند الانتقال من أفكار الحلم إلى محتوى الحلم [ص ٣٣٦] أو مثل استخدام إحساس الحركة المكفوفة [ص ٣٤٦] . غير أن اللامعقولة في الحلم لا تنبغى ترجمتها بـ « كلا » وحسب ، بل المراد من ورائها هو استعادة ما يصحب أفكار الحلم من حالة مزاجية تجمع النقد أو الزراية إلى جانب المناقضة . فإن جاء عمل الحلم بما يجلب الضحك فهذا الغرض وحده ، أى أنه – هنا أيضاً – إنما يضفى صورة ظاهرة على محتوى الحلم الكامن^(١) .

والحق أننا مررنا من قبل بمثال مقنع من حلم غير معقول كان له مثل هذا المعنى : الحلم الذى فسرتة من غير حاجة إلى تحليل ، حلم أوبرا قاجنر التى طالت حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، وكانت الفرقة الموسيقية تقاد فيه من برج ، إلخ .

(١) وهكذا يسفه عمل الحلم الفكرة المعطاة له على أنها فكرة مضحكة بأن يخلق هو شيئاً مضحكاً في صدها . ولقد نهج هينه نهجاً شبيهاً بذلك حين أراد أن يسخر من الأشعار الفثة التى كان ينظمها ملك بافاريا ، فقد صاغ بخريته في شعر أغث منها وأردأ :

السيد لودفيج شاعر فحل ، من الفحول
ما أن ينشد حتى يخر أبوللو على ركبتيه
ساجداً أمامه ، راجياً ، متضرعاً إليه :
" كفى ، وإلا أصابنى مس من الجنون "

(أنظر ص ٣٥١) . فقد كان واضحاً أن هذا الحلم كان يعنى : « إنه لعالم مخبول ومجتمع مجنون ؛ فمن استحق شيئاً لم ينله ، ويناله من كان فى غنى عنه » - وكانت الحاملة إذ ذاك تقارن بين حظها وحظ قريبها . وما كان على الإطلاق بالاتفاق المحض أن جاءت أمثلتنا الأولى على اللامعقولية فى الحلم متعلقة بأب ميت ؛ فى أمثال هذه الحالات تجتمع الشروط الضرورية لخلق الأحلام اللامعقولية على نحو مثالى . فالسلطة التى خص بها الأب تثير نقد الأبناء منذ سن مبكرة ، ووطأة المطالب التى يقتضها منهم تجعلهم يعيرون كل ضعف يبدو منه انتباها ؛ لكى يتخففوا . غير أن الخشوع البنوى الذى يغمر به الأب نفوسنا - وخاصة بعد مماته - يشحذ الرقابة التى تقف دون كل إفصاح شعورى عن مثل هذا النقد .

(٤)

وها هو ذا حلم آخر غير معقول يدور حول أب ميت :

تلقيت من مجلس البلدة التى ولدت فيها رسالة تتعلق بمبلغ يجب سداه ؛ فى سنة ١٨٥١ احتجرت المستشفى رجلاً لنوبة كانت قد حلت به وهو فى منزلى . ويشير ذلك ضحكى : فأولاً لم أكن ولدت سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة تتعلق به قد صار فى عداد الأموات . أذهب إلى والدى فى الحجرة المجاورة حيث كان يرقد فى سريره وأسأله الخبر ، ولشد ما يكون دهشى حين يتذكر أنه قد سكر مرة فى سنة ١٨٥١ وأن الأمر قد أدى إلى حبسه أو إحتجازه ، وكان ذلك فى الوقت الذى كان يعمل فيه لحساب شركة ت . أسأله : « إذن السكر أيضاً كان من عاداتك ؟ هل تزوجت عقب ذلك ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أننى ولدت فى سنة ١٨٥٦ ويلوح لى أن تلك هى السنة التى أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة .

إننا إذ نرى إمعان هذا الحلم فى نشر مظاهر لا معقوليته سوف نخلص فى ضوء المناقشة السابقة إلى أن هذا الإمعان لا يمكن إلا أن يكون دليلاً على أن أفكار الحلم قد انطوت على مجادلة بلغت مبلغاً خاصاً من المرارة وشدة الانفعال . ونحن إذ لن نزيد إلا دهشاً حين نلاحظ أن المجادلة قد دارت فى هذا الحلم علانية وأن والدى كان الهدف الصريح للسخرية ؛ فمثل هذه العلانية تبدو شيئاً يتناقض وفروضنا المتعلقة بأثر الرقابة فى عمل الحلم . ولكن هذا الغموض لا يلبث أن يتجلى حين نعلم أن الأب فى هذا المثال لم يكن يعدو أن يكون حجاباً وأن رضى المنازعة إنما تدور مع شخص آخر لا يظهر أثره فى الحلم إلا فى إشارة

مفردة . فبينما المألوف هو أن يدور الحلم حول التمرد في وجه شخص آخر يستر الأب من ورائه ، إذا العكس هو الصحيح هنا : فالأب رجل من قش قصد من ورائه إلى تغطية البعض ، وللحلم أن يتعرض على هذا النحو المكشوف لشخص يلقي منه في العادة تنزيهاً لأنني أعلم علم اليقين أن والدي ليس الشخص المعنى حقيقة . وتبين لنا مناسبة الحلم أن الأمر كذلك ؛ فقد جاءني هذا الحلم بعد أن سمعت أن زميلاً يكبرني ، كان حكمه يوضع فوق كل نقد ، قد أعرب عن استيائه ودهشه لأن أحد مرضاى قد شارف علاجه التحليلي السنة الخامسة^(١) . والجمل الأولى من الحلم تشير من خلال قناع شفاف إلى تلك الحقيقة : وهي أن هذا الزميل كان قد أخذ على عاتقه بعض الزمن التبعات التي لم يعد والدي يستطيع القيام بها (المبلغ الواجب السداد ، دخول المستشفى) ، وأني حين أخذت آصرة الصداقة بيننا في الوهن صرت أراني فريسة هذا الصراع العاطفي الذي ينشأ حقاً حين تسوء العلاقة بين الأب والأبن ؛ للموضع الذي يشغله الأب ولسالف مآثره . وإن أفكار الحلم لتحتمج احتجاجاً مرا على ما الأم عليه من التلكؤ - وهو لوم يجيء أول الأمر في صدد علاج هذا المريض ولكنه يمتد بعد ذلك إلى أمور أخرى : أيعرف شخصاً آخر يستطيع أن يسرع عني ؟ ألا يعلم أن أمثال هذه الحالات - إذا تركنا علاجى - لا تجد لها براءً وأنها تدوم أبد الحياة ؟ وما أربع سنوات أو خمس بالقياس إلى العمر بأجمعه ، خاصة أن عبء الحياة قد يسر على المريض في خلال العلاج يسراً كبيراً ؟ وقد كان جزء كبير من طابع اللامعقولية في هذا الحلم يرجع إلى أن جملاً مستعارة من أنحاء شتى في أفكار الحلم قد أجريت معاً من غير وصل أو واسطة . مثال ذلك جملة : « أذهب إليه في الحجرة المجاورة . . . إلخ . » إنها ترك الموضوع الذي كانت تدور من حوله جمل الحلم السابقة لتستعيد الملابس التي أعلمت فيها والدي بنياً خطبتي دون سابق استشارته استعادة أمنية . وهذه الجملة ترمي - إذن - إلى تذكيري نا أظهره الرجل الشيخ إذ ذاك من إثارة رفيع وتقارن مسلكه هذا بمسلك شخص آخر ، شخص جديد . وإني لألحظ هنا أن الحلم قد استباح لنفسه هذه السخرية بالأب لأنني

(١) [ذلك هو المريض الذي يشير إليه فرويد في رسائله إلى فليس (فرويد ١٩٥٠ أ) بحرف E ولقد وردت في إحدى هذه الرسائل (الخطاب ١٢٦) إشارة إلى هذا الحلم . وفي الرسالة ١٣٣ أعلن فرويد انتهاء علاج هذا المريض بنجاعة مرضية .]

في اعتراف كامل بسموه قد نصبته قدوة للآخرين ؛ فن طبع الرقابة - كل رقابة - أن تُحل لك كذب الكلام في المحظورات مؤثرة إياه على الحق صراحاً . فأما الحملة التالية - عن كونه تذكر أنه قد سكر مرة واحتجز من جرائها - فقد انقطع فيها كل ما يمت في الحقيقة بسبب إلى والدي . وإنما المستر وراءه في هذا الموضوع ماينيرت العظيم لأقل - ماينيرت الذي قفوت أثره في إجلال يعلو على الوصف والذي انقلب مسلكه إزائى - بعد فترة قصيرة من الرضى - إلى عداوة لا تقنع فيها . والحلم هنا يذكرني بأن ماينيرت - بنفسه - قد أخبرني يوماً أن شبابه لم يخل من فترة اعتاد فيها أن يدمن على تخدير نفسه بالكولوروفورم ، وأنه اضطر من جراء ذلك إلى النزول بإحدى المصححات .

ويذكرني الحلم أيضاً بمحادثة أخرى تتصل بماينيرت سبقت وفاته بزمن قصير : فقد كانت دارت بيننا في الصحف العلمية مناقشة حامية الوطيس حول موضوع الهستيريا عند الرجال (وهو الأمر الذي كان هو ينكر وجوده) ، فلما زرته في خلال العلة التي مات فيها واستفسرته عن صحته أفاض بعض الإفاضة في الحديث عن حاله ثم اختتم حديثه بتلك الكلمات : « أتعلم ؟ لقد كنت دائماً حالة من أجمل حالات الهستيريا عند الرجال . » وهكذا سلم ماينيرت - تسلياً أرضائي وأدهشني - بما أضر على إنكاره كل هذا الزمن الطويل . ولكن السبب الذي مكنتني من أن أتخذ من أبي حججاً يحجب ماينيرت في هذا المشهد من الحلم لم يكن يرجع إلى شبه اكتشفته بين كلا الشخصين ، بل إلى كون المشهد كان تصويراً موجزاً - ولكنه تصوير واف - لجملة شرطية تضمنتها أفكار الحلم ، هذا هو نصها الكامل : طبعاً ، لو كنت خليفة أستاذ أو عميد ، ابنا لهذا أو لذلك ، لكنك يقيناً قد أسرعت عن ذلك . وهكذا جعلت من والدي في الحلم عميداً وأستاذاً .

ولكن أنكر ما اشتمل عليه هذا الحلم من وجوه اللامعقولية وأشدّه إزعاجاً يقوم في معالجة تاريخ سنة ١٨٥١ الذي بدا لي لا يفترق من عام ١٨٥٦ كما لو كان فرق سنوات خمس أمراً لا يعتد به على الإطلاق . ولكن تلك على التحديد كانت إحدى أفكار الحلم التي كان يراد الإفصاح عنها ؛ فأربع سنوات أو خمس تلك هي مدة الزمن الذي حظيت فيه بتأييد الزميل الذي أشرت إليه من قبل ، وهي أيضاً مدة الزمن الذي تركت فيه خطيبي تنتظر زواجنا ، ثم هي كانت بعد ذلك - بصدفة عارضة حرصت أفكار الحلم على استغلالها - مدة الزمن الذي جعلت فيه أطول مرضاي تحليلاً ينتظر كامل شفائه .

فأفكار الحلم تسأل : « وما خمس سنوات ؟ إنها بقدر ما يعينني الأمر ليست زمناً على الإطلاق ولا يحسب لها حساب . وإني لأملك وقتاً كافياً أمامي ، وسأنجح أخيراً في هذا كما نجحت من قبل في ذلك - وإن لم تصدقوا . » هذا ، ثم إن الرقم ٥١ في ذاته ، مستقلاً عن رقم القرن ، قد حتمه معنى آخر يتجه يقيناً في وجهة مخالفة ، ومن هنا كان مجيئه في الحلم مرات متكررة : ذلك أن الحادية والخمسين - فيما يبدو - سن مفعمة بالخطر في حياة الرجل ، هي السن التي رأيت فيها كثيراً من الزملاء يقضون نحبهم ، وكان منهم زميل رقي بعد طول انتظار إلى منصب الأستاذية قبل موته بأيام معدودات (١) .

(٥)

وها هو ذا حلم آخر فاسد يتلاعب بالأرقام :

هوجم أحد معارفي - وهو السيد م . - في مقال ما مهاجمة كان من رأينا جميعاً أنها بلغت حداً من العنف لا مبرر له . وكان المهاجم جوته نفسه - لا أقل . ومن الطبيعي أن السيد م . قد سحقه هذا الهجوم . إنه يشتكي منه مر الاشتكاء إلى صحبة في إحدى الروايات ، بيد أن هذه المحنة الشخصية لم تنل شيئاً من إجلاله لجوته . أحاول أن ألقى بمض الضوء على المظلمات الزمنية التي بدت لي بعيدة عن الرجوع : لقد مات جوته عام ١٨٣٢ ، وطبعي أن هجومه هذا على السيد م . قد سبق هذا التاريخ ، ولا بد إذن أن السيد م . كان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل الشباب . يلوح لي أن من الراجح أنه كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره . غير أنني لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها ، بحيث تتبخر حسبي وتستهيم . هذا وقد وردت تلك المهاجمة في مقال جوته المعروف عن الطبيعة .

إننا لن نلبث طويلاً دون أن نجد السبيل إلى تبرير ما في هذا الحلم من البله . فالسيد م . الذي اتفقت لي معرفته بين صحبة في إحدى الروايات كان قد سألني منذ زمن غير بعيد أن أفحص أخاه لما بدا عليه من علامات الاضطراب العقلي الشللي . وكان السيد م . مصيباً فيما خمنه . وقد وقعت في خلال هذه الزيارة واقعة مؤسفة : ذلك أن المريض - لغير سبب مفهوم - قد أخرج أخاه في خلال الحديث بإشارة إلى حماقات شبابيه . هذا وقد كنت سألت المريض عن السنة التي ولد فيها ، كما جعلته يقوم - عدة مرات - بجمع أعداد صغيرة لكي أمتحن ضعف ذاكرته . وأذكر بعد

(١) [تلك من غير شك - على حسب ملاحظة ستراشي - إشارة إلى نظرية فليس عن الدورات البيولوجية .

فالرقم ٥١ = ٢٨ + ٢٣ وهما زمنا للدورتين المذكورة والمؤنثة .]

أنه كان لا يزال قادراً على القيام بها خير قيام . وهأنذا ألحظ أنني قد سلكت في الحلم كما يسلك مشلول (لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها) . وهناك جزء آخر من مادة الحلم اشتق من مصدر آخر حديث العهد : ذلك أن ناشراً لإحدى الصحف الطبية ، كانت تربطني به علاقات المودة ، قد نشر نقداً جارحاً إلى أبعد الحدود ، نقداً « ساحقاً » ، لكتاب صديقي ف . [فليس] الأخير ، وكان صاحب هذا النقد معلقاً في مقتبل الشباب ، ضعيف القدرة على الحكم ، وارتأيت أن لي حقاً في التدخل ، فناقشت الناشر الحساب . فأعرب لي إعراباً حاراً عن أسفه لنشر هذا النقد ، ولكنه لم يشأ الوعد بعلاج المسألة ، فقطعت صلتى بالصحيفة ، ولكنني أعربت في خطاب استقالتى عن أملى في ألا تتال هذه الحادثة من علاقاتنا الشخصية . فأما المصدر الثالث للحلم فرواية كانت لا تزال حية في ذهني سمعتها من مريضة وهي تصف مرضاً عقلياً أصاب أحاها ، وكيف أخذته الآخذه وهو يصرخ : « أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! » . ولقد اعتقد الأطباء أن النداء كان وليد قراءته مقالة جوته الرائعة ، وأنه — هذا النداء — كان يبين إلى أى حد أنهكت المريض قراءته في الفلسفة الطبيعية . ولكنني — من ناحيتي — كنت أفضل التفكير في المعنى الجنسي الذي تستخدم فيه كلمة « الطبيعة » عندنا حتى على السنة من هم أقل ثقافة . وكان أن فكرت في هذه لم تجد على الأقل ما يكذبها حين قطع الشاب العاثر أعضائه التناسلية . وكان عمر المريض ثمانية عشر ربيعاً حين وليته تلك النوبة .

فإذا أضفت أن كتاب صديقي الذي لقي كل هذا النقد القاسي (لقد قال عنه معلق آخر : « إن المرء ليعجب أهو المجنون أم المؤلف ») كان يعالج موضوع المعطيات الزمنية للحياة ويبين أن عمر جوته رقم مضاعف لعدد [من الأيام] له قيمته البيولوجية ، سهل أن نفهم أنني كنت في هذا الحلم أضع نفسي في موضع صديقي . (أحاول أن ألقى بعض الضوء على المعطيات الزمنية) . بيد أنني سلكت كما يسلك مشلول فجاء الحلم ركاماً من الأباطيل ، وهذا يعني أن أفكار الحلم تقول على سبيل التهكم : « طبعاً ، إن صديقي هو المجنون ، هو الملتاث ؛ وأنتم العباقرة الأحسن علماء . وكيف يكون العكس ؟ » وهذا العكس يتمثل بعد ذلك بإسهاب في محتوى الحلم : فجوته يهاجم شاباً في مقتبل العمر — وهو شىء غير معقول — في حين يستطيع اليوم يافع أن يقدح في جوته — وهو الخالد —

وأنا أجرى الحساب ابتداء من سنة موت جوته ، في حين أننى جعلت المشلول يحسب عمره ابتداء من سنة ميلاده .

غير أننى كنت قد أخذت من قبل في تبيان أن الحلم إنما تحركه دوافع الأثرة دون غيرها [ص ٢٨٢] ، وعلى ذلك فلا مفر من أن أبين كيف اتفق في هذا الحلم أننى جعلت قضية صديقى قضيتى ووضعت نفسى في موضعه . إن اقتناعى النقدى [بآراء صديقى] في حياة اليقظة ليس سبباً كافياً . ولكن ها هي ذى قصة المريض ذى الثمانية عشر ربيعاً والتفسيرات المختلفة في أمر ندائه « أيتها الطبيعة ! » ؛ فهذه إشارات إلى التعارض الذى أرانى فيه تجاه معظم الأطباء لما اعتقده من أن للأعصاب عللاً جنسية . ولى إذن أن أحدث نفسى قائلاً : هذا النوع من النقد الموجه إلى صديقك سوف تدور عليك دائرته يوماً ما ، لا بل أنت قد ذقته بالفعل إلى حد . وعلى ذلك يسعنا أن نضع « نحن » في أفكار الحلم بدل « هو » : « نعم ، أنتم العقلاء ونحن المجانين » . وفى الحلم أثر يذكرنى في وضوح كبير بأننى « ما أهاجتنى سوى أشجاني » (١) ، هذا الأثر المذكور هو تلك الإشارة إلى مقالة جوته الجميلة جمالاً لا يعدهل جمال (٢) : ذلك أننى سمعت هذه المقالة تقرأ بصوت عال في محاضرة عامة وكنت قد فرغت من الدراسة الثانوية حائراً لا أدرى ماذا أكون ، فكان هذا السماع دافعى إلى دراسة العلوم الطبيعية .

(٦)

وهناك حلم آخر كنت قد شرعت أبين في صفحات سابقة من هذا الكتاب أنه كان حلاًماً أناًياً وإن لم يظهر فيه أناى . فقد رويت في ص ٢٨٤ حلاًماً قصيراً كان مؤداه أن الأستاذ م . يقول : « يا بنى ، قصير النظر . . . » ثم قلت إن هذا الحلم لم يكن إلا مقدمة لحلم آخر كان لى فيه نصيب . وها هو ذا الحلم الرئيس الباقى الذى يطالعنا بصيغة لفظية غير معقولة ولا مفهومة ، يحتاج أمرها إلى بعض الإيضاح :

(١) [“mea res agitur”]

(٢) [هذا المقال يتألف من مجموعة من الخواطر الشعرية الفلسفية كتبها جوته حوالى عام ١٧٨٠ ثم بعث

بها إلى الموقفة آناً آمالياً . فلما ماتت هذه بعد ذلك بثلاثين عاماً ووقعت بين يدى جوته رسالته استطاع أن يعرف فيها

أثراً من آثار شبابه .]

وقعت في مدينة روما أحداث اقتضت نقل الأطفال إلى مكان أمين - وهو عمل تم. يجري المشجب أمام أحد مداخل المدينة ، مدخل ذى بايين على الطراز القديم (هو « الباب الروماني » الذى فى مدينة سينا - كما وعيته فى الحلم نفسه) . اجلس على حافة إحدى النوافير وأنا شديد الاكتئاب أكاد أبكى . يقبل شخص مؤنث - وصيفة أو راهبة - وتحضر معها طفلين وتسلمهما إلى أبيهما - وكان شخصاً آخر عدائى . الولد الأكبر هو من غير شك ابنى الأكبر ، لست أدرى وجه الآخر . تسأل المرأة التى أحضرت الطفل قبله وداع منه . إن لها أنفأ أحمر يلفت النظر . يابى الولد أن يقبلها ، ولكنه يقول لها وهو يمسك يدها مودعاً : Auf Geseres ، ثم يقول لنا كلينا (أو لأحدنا) : Auf Ungeseres . يدور بذهنى أن هذه العبارة الأخيرة تنفيذ التفصيل .

لقد بنى هذا الحلم على حزمة مختلطة من الأفكار أثارها مسرحية شهدتها ، كان عنوانها : « الجيتو الجديد » . ومن السهل أن نرى أن للمشكلة اليهودية مكانها بين أفكار هذا الحلم : قلق المرء على أبنائه الذين لا يستطيع أن يوفر لهم وطناً يكون وطنهم ، القلق من أجل تعليمهم التعليم الذى يمكنهم من أن ينتقلوا عبر الحدود أحراراً .

« على أنهار بابل ، هناك جلسنا وبكيننا^(١) . » - إن سينا - مثل روما - قد عرفت بنافوراتها الجميلة ولم يكن بد من أن أورد مكاناً أعرفه يحل فى الحلم محل روما [التى لم أكن رأيتها بعد] (أنظر ص ٢١٣) . ولقد كنا رأينا بالقرب من الباب الروماني فى سينا بناء ضخماً علمنا أنه المارستان . وكنت قد سمعت قبل هذا الحلم بوقت قصير أن رجلاً من ديانتى قد اضطر إلى التخلي عن المنصب الذى بلغه بعد عناء كبير فى مارستان حكومى .

وتثير اهتمامنا عبارة : Auf Goseres التى تجيء فى موقف من الحلم كان المرء يتوقع فيه : Auf Wiedersehen [إلى اللقاء] ، كما يثيره ضدها الحالى من كل معنى :
Auf Ungeseres .

إن Geseres - على ما علمته من بعض اللغويين - كلمة عبرية خالصة ، مشتقة من فعل goiser ، وأحسن ترجمة لها هى : « الألم المحتوم » أو « القضاء » . ويجدونا استخدامها فى اللغة العامية إلى أن نظن أنها تعنى « البكاء والعيول » . فأما Ungeseres فمصطلح جديد من عندى ، وقد كانت هى أسبق الكلمتين إلى جذب

(١) [« على أنهار بابل ، هناك جلسنا وبكيننا ، عندما تذكرنا صهيون » . مطلع المزمار ١٣٩ ، وهو من مرأى اليهود المسيبيين فى بابل ، والترجمة الموردة هنا موضوعة عن النص اللاتينى مباشرة ؛ لأن الترجمة البروتستانتية المعروفة تختلف اختلافاً لا تصلح معه للاقتباس فى هذا الموضوع .]

انتباهي ، ولكنني وقد بدأت بها لم أستطع الخروج منها بشيء . غير أن الملاحظة القصيرة التي جاءت في ختام الحلم بما معناه أن Ungeseres تفيد التفضيل قد فتحت الطريق إلى المستدعيات ، ومن ثم إلى فهم الكلمة . إننا نجد علاقة مماثلة فيما يتصل بالكافيار : فالكافيار غير المملح [ungesalzen] يفضل على الكافيار المملح [gesalzene] . ككافيار للشعب ، « المشاعر النبيلة » : ههنا تكمن إشارة مازحة إلى عضو من أعضاء أسرقى آمل منها – وهي التي تصغرني سناً – أن تعني بأبنائي في مستقبل الأيام . ويتفق وذلك أن عضواً آخر من أعضاء أسرقى – وهو مريبتنا العظيمة – قد صورت في الحلم تصويراً لا يخطئ في شخص الوصيفة (أو الراهبة) . ولكن هذا كله لا يرينا بعد أي فكرة توسطت بين الزوجين : « gesalzen - ungesalzen » و « Geseres - Ungeseres » . إن الواسطة هي « gesäuret - ungesäuret » [مختمر – غير مختمر] ؛ فأبناء إسرائيل إذ فروا من مصر معجلين لم يجدوا متسعاً من الوقت لكي يخمر عجينهم ، وإنهم إلى يومنا هذا ليأكلون الخبز في عيد الفصح غير مختمر ؛ تذكراً . وهأنذا أذكر الآن فجأة كيف كنا – صديقي الذي من برلين وأنا – نسير في عيد الفصح في برسلاو – وهي مدينة كنا فيها غرباء – وإذا فتاة تسألني الطريق إلى أحد الشوارع ، فلم أجد إلا أن أعترف لها بجهلي ، ثم عقبته أحدث صديقي : « أرجو لهذه الفتاة حين تتقدم بها السن أن تبدي مزيداً من التمييز في اختيار الناس الذين تكل إليهم إرشادها . » ثم لحت عقب ذلك لافتة كتب عليها : الدكتور هيرودوس مواعيد الزيارة . . . فعقبته قائلاً : « أرجو ألا يكون زميلنا بالصدفة طبيب أطفال . »^(١) وكان صديقي يحدثني في هذه الأثناء عن ظاهرة التوازن بين الجانبيين ، وكان قد بدأ إحدى جملة بهذه العبارة : « لو أننا لم نكن نملك إلا عيناً واحدة في وسط الجبهة مثل السيكلوب [Zyklop] . . . » وهذا يؤدي بي إلى قول الأستاذ في الحلم التمهيدى : « يا بني ، قصير النظر [Myop] . » والآن أتوصل إلى المصدر الرئيس لكلمة « Geseres » : ذلك أنه حدث منذ سنوات متعددة حين كان ابن الاستاذ م . – وهو اليوم مفكر مستقل – لا يزال بمقعد الدراسة ، أنه أصيب

(١) [إشارة إلى ما هو معروف من أن هيرودوس الملك كان قد اعترم أن يهلك الطفل يسوع ، فلما لم يجده غضب " وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون " . إنجيل متى ، الإصحاح الثاني .]

بمرض في عينيه قال الطبيب : إنه يدعو إلى التخوف ، وأوضح أن الأمر يظل خالياً من الأهمية ما دام المرض مقصوراً على جانب واحد ، ولكنه يصبح خطراً إذا امتد إلى العين الأخرى . وحدث أن العين برأت براءً تاماً ، ولكن ظهرت أعراض تدل على أن العين الأخرى قد أصيبت . وهلعت الأم فأرسلت على الفور في طلب الطبيب إلى مقامهم النائي في الريف . ولكن الطبيب أخذ الآن جانباً آخر ، وصاح في وجه الأم : « ولم كل هذا العويل [Geseres] ؟ ما دام أحد الجانبين قد برئ فسيراً الآخر كذلك . » وهكذا كان .

ولا بد الآن من أن نبحث صلة هذا كله بي وبأسرتي : إن المقعد الدراسي الذي تلقى عليه ابن الأستاذ م. أول حظه من المعرفة قد انتقلت ملكيته فيما بعد إلى ابني الأكبر الذي وضعت على لسانه كلمات الوداع في الحلم ؛ فقد أهدت المقعد إليه أم الغلام . ومن السهل أن نحذر إحدى الرغبات التي أثارها ذلك الانتقال . بيد أن هذا المقعد كان أيضاً قد صنع بحيث يقي الطفل من أن يصبح ضعيف النظر أو مبصراً بعين واحدة . ومن هنا كان ظهور "Myop" (ومن وراثتها « Zyklop ») في الحلم ، وكانت الإشارة إلى التوازن بين الجانبين . ولقد كانت خيفتي من وحدانية الجانب تحمل أكثر من معنى : فهي لم تكن تشير إلى وحدانية الجانب بالمعنى البدني وحسب ، بل كانت تشير كذلك إلى النظر في الأمور من جانب واحد فيما يتصل بالتطور العقلي . أفلا يمكن أن يكون هذا التخوف على التحديد هو ما أراد الحلم دفعه بطريقته غير المعقولة ؟ فبعد أن استدار الغلام إلى أحد الجانبين ليلقى كلمات الوداع ، استدار إلى الجانب الآخر ليقول الضد ، كأنما كان يريد إعادة التوازن : إنه يسلك كما لو كان يولي التوازن بين الجانبين العناية التي ينبغي .

وهكذا تكون الأحلام في كثير من الأحيان أعمق ما تكون حتى لا يبدو منها غير الجنون . وفي كل عصر من عصور التاريخ كان أولئك الذين يملكون شيئاً يقولونه دون أن يملكووا قوله آمنين يرتدون مسوح الجانبين ؛ فالتسامح يهون على السامع الذي يتجه إليه مقامهم المحرم إن هو كُن من الضحك ومن أن يتملق نفسه ظناً منه أن هذه الكلمات غير المستحبة ليست إلا هراء جلياً . وما يسلك الحلم في الحقيقة إلا كما يسلك في الرواية

الأمير وهو يلجأ إلى التفتيح بثوب من الجنون ، حتى ليسعنا أن نقول عن الحلم ما يقوله هاملت عن نفسه وهو يتخفى حقيقة حاله تحت رداء من التنكيت والاستعجاب : « ولست بالجنون إلا والريح مشملة ، شمالا بغرب ، فإن أجنببت عرفت الباز من البلشون »^(١).

وهكذا أكون قد انتهيت إلى حل مشكلة اللامعقولة في الحلم على هذا النحو : إن أفكار الحلم لا تكون أبداً أباطيل – أو لا تكون كذلك في أحلام الأصحاء على الأقل – وإن عمل الحلم إنما تحدث عنه أحلام لا معقولة أو أحلام مشتملة على عناصر لامعقولة إذا كان بين أفكار الحلم نقد أو سخرية أو استخفاف تدعو الضرورة إلى تصويرها . ومهمتى الآتية هي أن أبين أن عمل الحلم إنما يقوم في فعل العوامل الثلاثة التي ذكرتها مجتمعة – مع عامل رابع لما أذكره – وأنه لا يفعل شيئاً آخر سوى ترجمة أفكار الحلم وفقاً لهذه الشروط الأربعة ، وأن السؤال هل تعمل النفس في أثناء الحلم بكل قواها العقلية أو بجزء منها سؤال خاطئ الصياغة ، يغفل الوقائع . بيد أن هناك أحلاماً كثيرة يعرض فيها الحكم والتقد والمعرفة ، أحلاماً يعجب فيها المرء لعنصر من عناصر الحلم ويحاول التعليل ويشعر في الحاجة . لهذا لا أجد مفرأ من مواجهة الاعتراضات المبنية على أمثال هذه الوقائع ، وذلك بإيراد بعض الأمثلة المختارة .

وسيكون الجواب الذي أخلص إليه هو هذا : إن كل ما يخطر في الحلم في صورة

نشاط ظاهره أنه صادر عن وظيفة الحكم يجب ألا يعد نتاجاً عقلياً حقيقه عمل الحلم ،

بل الواجب أن نعتبره منتبياً إلى مادة أفكار الحلم ، ومنها انتقل إلى محتوى الحلم الظاهر

كشئء جاهز الصنع من قبل . بل إن في وسعي أن أمد هذه القضية إلى أبعد من ذلك :

فالأحكام التي يصدرها المرء عقب اليقظة في صدد حلم تذكره ، والمشاعر التي تنبعث في

(١) [هاملت : المشهد الثاني من الفصل الثاني . بيت من الأبيات الشكسبيرية التي تتعذر ترجمتها لشدة

ما فيها من «التكثيف» . ويمكن أن نشير إلى أن التمييز بين هذين الطائرين يصبح صيراً كل العمر – فيما يقال – إذا أخذت الريح هذا الاتجاه ؛ فالمنى المراد من البيت والذي من أجله كان الاستشهاد به هو : إن كنت مجنوناً فلغرض ، فإن جد الجد لم يكن مثل تمييزاً .] إن هذا الحلم يزودنا أيضاً بمثال جيد على قضية أخرى شاملة الصدق : إن جميع الأحلام التي تقع في خلال الليلة الواحدة تنبت من تربة فكرية واحدة ، ولو تذكرناها متفرقة . وأذكر بعد أن الموقف الذي ورد في الحلم عن الفرار بأبتائى من مدينة روما قد شوه بربطه بمحدث مائل وقع في طقولى . والمعنى هو : أنني أحسد بعض أقاربي من سنحت لهم الفرصة بأن ينقلوا أبناهم منذ سنوات متعددة إلى بلد آخر .

نفسه عند استحضار هذا الحلم ، كل هذه أيضاً تكون إلى حد كبير جزءاً من المحتوى الكامن للحلم ، ومن الواجب إدراجها في تفسيره .

(١) لقد ذكرت من قبل مثالا على ذلك يستلفت النظر : امرأة تأتي أن تذكر حلمها لأنه « لم يكن واضحاً الوضوح الكافي » ؛ فهي قدرأت البعض في الحلم ولكنها لا تعلم أزوجها هو أم أبوها . ثم أعقبت ذلك بفترة ثانية من الحلم ورد فيها ذكر مزبلة ، وهو ما يسوقها إلى تلك الذكرى : حدث ذات مرة وهي زوجة حديثة العهد بأعمال ربة المنزل أنها قالت مازحة في محضر قريبة شابة من قريباتها : إن أول ما ستعنى به سيكون شراء « مزبلة » جديدة ، فلما جاء اليوم التالي إذا واحدة تُهدى إليها ، ولكنها كانت مليئة بالسوسن . وقد كان هذا الجزء من الحلم يفيد في تصوير ذلك التعبير [الألماني] الدارج : « ما نما ذلك من زبلي (١) » . ولما تم تحليل الحلم تبين أن أفكار الحلم كانت تدور حول الأثر البعدي الذي كان لقصة سمعتها الحاملة في أحداثها عن فتاة ولدت ولدأ لم يتضح من هو أبوه . ومن هذا نرى أن تصوير الحلم قد امتد في ذلك المثال إلى أفكار اليقظة تاركا أحد عناصر أفكار الحلم يتمثل في صورة حكم مستيقظ أطلق على الحلم في مجموعة .

(٢) وها هي ذي حالة ثانية مماثلة : حلم أحد مرضى حلمأ لاح له ذا أهمية ؛ لأنه لم يكذب يستيقظ حتى حدث نفسه قائلا: (٢) لا بد من أن أتحدث إلى الطبيب بذلك . وحلل الحلم فانبعثت إشارات من أوضح ما يكون إلى صلة جنسية بدأها الحلم في خلال علاجه وعقد العزم على ألا يحدثني بها .

(٣) ثم ها هو ذا مثال ثالث أنتخبه من بين أحلامي : كنت ذاهبا إلى المستشفى برفقة صديق ب . مارين بمنطقة انتشرت فيها المنازل والبساتين . وفي هذه الأثناء كانت تدور بخلي فكرة مؤاها أنني قد رأيت تلك المنطقة مرارا من قبل في الأحلام . لم أكن أعرف الطريق معرفة طيبة . أراني ب . شارعا ينتمى بمعلم على ناصيته (وكانت قاعة الطعام في الداخل لا في حديقته) . أسأل هناك عن السيدة دوفى ، فيقال لى :

(١) [« الزبل » هو ما تصلح به الأرض أو « السباح » ، والمراد بالمزبلة - عدا معناها الشائع - هو ما يوضع فيه الزبل . والتعبير الألماني المشار إليه معناه : « لست مشغولا عن ذلك » أو « لست أعترف بهذا الولد » .]

(٢) إذا جاء في خلال العلاج التحليلي حلم يحدث فيه الحلم نفسه قائلا : « لا بد من أن أخبر الطبيب بذلك » فمضى هذا أن هناك مقاومة شديدة في وجه الإفشاء بهذا الحلم ولا يندر عندئذ أن يؤدي ذلك إلى نسيانه .

إنها تسكن مع ثلاثة أطفال في حجرة صغيرة خلفية . أسير إلى تلك الحجرة ، ولكنني - قبل أن أصل إليها - ألتق بشخص غير متميز تصحبه ابنتاي الصغيرتان . أخذها معي بعد أن أمكث معهما برهة قصيرة . يدور بخاطري شيء يشبه اللوم أوجهه إلى زوجتي لكونها تركت الفتاتين هناك .

فلما استيقظت شعرت برضا كبير علته بأنني كنت وشيكاً أن أعلم من تحليل هذا الحلم معنى : قد حلمت بذلك من قبل .^(١) ولكن الواقع أن التحليل لم يعلمني شيئاً من هذا القبيل . وإنما الذي تبين لي منه حقيقة هو أن الشعور بالرضا كان يرجع إلى أفكار الحلم الكامنة ولم يكن يرجع بحال من الأحوال إلى حكم من الأحكام عليه : إنه كان الرضى لأن زواجي قد أعقب . ذلك أن ب . شخص سايرت حياته حياتي زمناً ثم بعد ذلك سبقني مسافات من الناحيتين الاجتماعية والمادية ، ولكنه ظل لا ينجب من زواجه خلقاً . وإن مناسبتى الحلم لكافيتان في الدلالة على معناه دون حاجة إلى أن نسوق تحليله كاملاً . فقد حدث في اليوم الذي سبق الحلم أنني قرأت في إحدى الصحف نبأ وفاة السيدة دونا أ . . . ي (وهو الاسم الذي حرفته في الحلم إلى دوني) ، وكانت وفاتها في أثناء الوضع . وسمعت من زوجي أن القابلة التي كانت تعني بالمتوفاة هي هي التي عنيت بزوى عند ولادة طفلينا الأصغرين . وكان اسم دونا قد استوففني لأنني كنت - منذ قريب - قد صادفته للمرة الأولى في رواية إنجليزية . فأما المناسبة الثانية للحلم فكانت تاريخ وقوعه : فقد وقع الحلم في الليلة التي سبقت عيد ميلاد ابني الأكبر الذي يبدو على بعض المهوبة الشعرية .

(٤) ولقد تركني وأنا أستشعر هذا الرضا عينه ذلك الحلم غير المعقول الذي دار حول أبي وما كان له من مشاركة سياسية في حياة المجرين ، وعللت لنفسى هذا الشعور بأنه كان امتداداً للشعور الذي صحب الجزء الأخير من الحلم [أنظر ص ٤٢٧] : (تذكرت كيف كان والدي وهو على فراش موته شديد الشبه بجاربيالدي وشعرت بالسرور لأن ذلك قد تحقق... (يعقب ذلك جزء منسى) . لقد مكنتي التحليل من أن أملاً تلك الثغرة في الحلم . فقد ورد فيها ذكر ابني الثاني الذي أطلقت عليه اسم شخصية من عظماء التاريخ [كرومويل] اجتذبتني اجتذاباً شديداً في صباي وبخاصة منذ أن

(١) لقد كان هذا الموضوع مثار مناقشة مستفيضة دارت في السنوات الأخيرة على صفحات " المجلة الفلسفية " تحت عنوان : " التذكر المشوه في الأحلام " .

زرت إنجلترا ، وكنت قد انتويت في خلال السنة التي سبقت مولد الطفل أن أطلق عليه هذا الاسم إن جاء المولود ذكراً ، وكان أن جاء كذلك فخلعت عليه الاسم وأنا أشعر برضا عظيم . ومن السهل أن نلاحظ كيف ينتقل جنون العظمة عند الآباء إلى تفكيرهم في أبنائهم ، وتلك في أغلب الظن إحدى الطرق التي يتم بها قمع هذا الشعور - وهو قمع تجعل منه الحياة الواقعة ضرورة لا مفر منها . فأما الحق الذي خول لابني الصغير أن يظهر في محيط هذا الحلم ، فكان مستمداً من كونه قد وقع إذ ذاك في تلك العثرة التي تسهل مغفرتها للطفل وللرجل على سرير الموت ، وأعنى بها توسيخ الفراش - قارن هنا بين "Stuhlrichter" وبين الرغبة التي يعرب عنها الحلم في أن يقف المرء عظيماً طاهراً في أعين أبنائه . [ارجع إلى ص ٤٢٩ .]

(٥) وأتحول الآن إلى النظر في الأحكام التي تطلق في أثناء الحلم نفسه ولكنها لا تتابع حتى حياة اليقظة أو تنقل إليها . وتسهل مهمة البحث عن الأمثلة على ذلك إلى درجة كبيرة إذا التجأت إلى الأحلام التي سقتها من قبل لغايات أخرى . خذ حلم « حوته يهاجم السيد م . » إنه يبدو مشتملاً على طائفة من أفعال الحكم ، مثل : « أحاول أن ألتى بعض الضوء على المعطيات الزمنية التي تبدو بعيدة عن الرجوح » . ألا يبدو ذلك نقداً موجهاً إلى تلك الفكرة الفاسدة ، وأعنى بها أن جوته قد شن هجوماً أدبياً على شاب من معارفي ؟ ثم تلك الجملة : « يلوح لي أن من الراجح أنه كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره » ، إنها تبدو وليدة عملية حسابية وإن يكن الحساب - والحق يقال - حساب أبله . وأخيراً فإن قول الحلم : « لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها » قد يبدو مثالا على التردد أو الشك يعرض في الحلم .

ومع هذا فإننا نعلم من التحليل أن تلك القضايا التي تبدو في صورة أفعال حكم تطلق في الحلم للمرة الأولى يمكن أن يفهم منطوقها فهماً آخر تغدو في في ضوئه لازمة كل اللزوم من أجل تفسير الحلم في حين يرتفع عنها في الوقت نفسه كل أثر من اللامعقولية . فجملة : « أحاول أن ألتى بعض الضوء على المعطيات الزمنية » كانت تضعني في مكان صديقي [فليس] الذي كان يسعى في الحقيقة إلى إلقاء الضوء على المعطيات الزمنية للحياة . وهكذا تفقد الجملة معنى الحكم يحتج على فساد القضايا السابقة . فأما جملة الصلة : « التي تبدو بعيدة عن الرجوح » فترتبط بتاليها : « ياوح لي أن من الراجح » ؛

فتلك على التقريب هي الكلمات التي كنت استخدمتها في حديثي إلى السيدة التي قصت على كيف جن أخوها ، قلت لها : « إنه ليبدو لي أمراً بعيداً عن الرجوح أن يكون لندائه أيتها الطبيعة ! أيتها الطبيعة ! ، أدنى علاقة بجوته ، وإنما الذي يلوح لي أرجح من ذلك كثيراً هو أن يكون لتلك الكلمات معنى جنسي تعريفه . » و صحيح أنني قد أطلقت هنا حكماً ، ولكنني لم أطلقه في الحلم بل في الواقع ، وفي مناسبة رجعت إليها أفكار الحلم بالذكري واستغلتها . ثم جاء محتوى الحلم فاستحوذ على هذا الحكم كما يستحوذ على أية نبذة أخرى من فكر الحلم .

وكذلك الرقم ١٨ الذي ارتبط به الحلم الذي أطلق في الحلم دون أن يكون لذلك معنى ما ، إنه ليحفظ بأثر من السياق الحقيقي الذي انتزع منه الحكم . فأما جملة : « لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها » فلم تكن — أخيراً — تعرب عن شيء سوى تعييني بالمرضى المشلول الذي أثرت تلك النقطة بالفعل في خلال فحصه .

إن حل أفعال الحكم الظاهرة في الحلم قد يذكر المرء بالقواعد الأساسية التي نص عليها في مبتدأ هذا الكتاب فيما يتصل بالقيام بعملية التفسير . فقد قلنا : إن من الواجب أن نترك الاتساق الظاهر بين مقومات الحلم كما نترك وهما لا حقيقة له وأن نتأثر مصدر كل عنصر من عناصر الحلم في ذاته . فما الحلم إلا حزمة يقتضى البحث تفكيكها أجزاء من جديد . غير أننا قد نلاحظ من جهة أخرى أن هناك قوة نفسية تعمل عملها في الحلم ، هي التي تخلق هذا الترابط الظاهر ، قوة تخضع المادة الناجمة عن عمل الحلم لمراجعة ثانوية . وههنا نرانا نواجه تلك القوة الرابعة التي سوف نزن فيما بعد أهميتها باعتبارها رابعة العوامل المشتركة في تكوين الحلم .

(٦) وها هو ذا مثال آخر على عملية من عمليات الحكم - حرت في حلم ذكرته من قبل : ففي الحلم غير المعقول الذي جاء فيه أنني تلقيت رسالة من المجلس البلدي [ص ٤٣٥] أراني أسأل أبي : « وهل تزوجت عقب ذلك مباشرة ؟ » أجرى الحسبة فأذكر أنني ولدت في سنة ١٨٥٦ ويلوح لي أن تلك هي السنة التي أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وكل هذا قد ألبس صورة الاستئلال : تزوج أبي سنة ١٨٥١ بعد النوبة المشار إليها ، وأنا - يقينا - أكبر أبناء الأسرة ، مولود سنة ١٨٥٦ ، ويلزم - إذن - أن سنة ١٨٥٦ هي السنة التي أعقبت سنة ١٨٥١ مباشرة . وهذه النتيجة الكاذبة قد استخلصت - كما نعلم -

وفقاً لمقاصد تحقيق الرغبة ؛ فقد كانت الفكرة المسيطرة على الحلم هي الآتية : إن أربع سنوات أو خمس ليست زمناً على الإطلاق ، ولا يحسب لها حساب . بيد أن كل خطوة من خطوات هذا الاستدلال كانت محتومة أيضاً بأفكار الحلم من حيث المحتوى ومن حيث الصورة على السواء ، فالمریض الذى ضاق زميلی بطول عالجة هو الذى كان قد عقد العزم على الزواج عقب الفراغ من العلاج . ثم إن الطريقة التى تحدثت بها إلى والدى كانت تذكر باستجواب أو بامتحان وإنما لتذكرنى بأستاذ فى الجامعة كان من عادته أن يدون معلومات مستفيضة عن كل طالب يسجل اسمه للاستماع فى محاضراته : « تاريخ الميلاد ؟ » - « ١٨٥٦ » - « اسم الأب ؟ » - وهنا كان على الطالب أن يجيب بذكر اسم أبيه منتهاً بنهاية لاتينية ، وكنا نحن معشر الطلبة نقدر أن الأستاذ كان يستتج من اسم الأب نتائج لا يتسنى دائماً استنتاجها من اسم الطالب نفسه . وهكذا لم يكن الاستنتاج فى الحلم إلا ترديداً للاستنتاج الذى يظهر بين أفكار الحلم كجزء من مادتها . وفى هذا ما يطالعنا بجديد : إذا وردت فى محتوى الحلم نتيجة ، فلا جدال فى أن تلك النتيجة مستمدة من أفكار الحلم . غير أن هذه النتيجة قد تكون داخلية فى هذه الأفكار كجزء من مادتها المتذكرة أو هى قد تصل ما بين سلسلة من أفكار الحلم باعتبارها رابطة منطقية . وفى كلتا الحالتين تمثل النتيجة فى الحلم نتيجة فى أفكار الحلم^(١) .

ونعود فنستأنف تفسير هذا الحلم : إن استجواب الأستاذ يسوقنى إلى تذكر سجل الطلبة بالجامعة - وكان فى أيامى يملأ باللغة اللاتينية - ثم إلى ذكرى دراستى الجامعية : إن السنوات الخمس المقررة لدراسة الطب كانت هى الأخرى تقل عما يلزمنى ؛ فقد سرت فى العمل وبيداً وأبطأت بعد السنوات الخمس سنوات . وعدنى معارفى شخصاً متعطلاً وتشككوا فى أن أفرغ يوماً مما أخذت فيه . وعندئذ قررت على عجل أن أتقدم للامتحان وأن أجتازه رغم التأخير . وفى هذا معزز جديد لأفكار الحلم التى كنت أواجه بها نقادى متحدياً إياهم : « سأفرغ مما بدأت ، وإلى نتيجة سأنهى ، وإن لم تصدقوا لما ترونه من تمهلى . وكم انقلبت الأمور من قبل هذا المقلب . »

(١) إن هذه الاكتشافات تصحح من بعض النواحي ما ذكرته من قبل (ص ٢٢٣) عن تصوير العلاقات المنطقية فى الحلم . فكلما هناك يصف مسلك عمل الحلم بوجه عام ، دون أن يحسب حساباً لبعض مظاهر نشاطه التى تفوق غيرها دقة واعتناء .

ولقد حوى هذا الحلم فى مطلعہ جملة من القضايا لا يكاد يستطيع المرء أن يأتى عليها اسم الحجة . بل هى لم تكن بالحجة المخافية للمعقول ، بل قد كان يمكن أن تصدر عن الفكر المستيقظ : أضحك فى الحلم لتلك الرسالة التى يرسلها إلى المجلس البلدى ؛ فأولاً لم أكن حثت إلى الدنيا بعد فى سنة ١٨٥١ ، وثانياً فإن والدى الذى ربما كانت هذه الرسالة متعلقة به قد صار فى عداد الموتى . إن كلا من هاتين القضيتين لم تكن صحيحة وحسب ، بل هى تتفق كل الاتفاق والحجج التى ما كنت أتردد فى إطلاقها لو قد تلقيت مثل هذه الرسالة حقيقة . ولقد تبين من التحليل الذى سبق (ص ٤٣٥) أن هذا الحلم قد صدر عن أفكار حلمية شديدة المرارة ، مشربة بالزراية . فإذا فرضنا بعد ذلك أن دوافع الرقابة كانت بالغة الشدة ، أمكن أن نفهم أن عمل الحلم قد دعت كل الدواعى إلى أن يخلق نقضاً لا يخلل فيه لفكرة غير معقولة على المنوال المتضمن فى أفكار الحلم . غير أن التحليل يرينا أن عمل الحلم — هنا أيضاً — لم يكن مطلق الخيار فى أن يخلق خلقه كيفما شاء ، بل كان مضطراً — لبلوغ غرضه — إلى أن يستخدم مادة مستمدة من أفكار الحلم . فالأمر أشبه بمعادلة جبرية حوت — بالإضافة إلى الأعداد — علامات على الزائد والناقص وعلى الأسس والحدود ، ثم جاء البعض يريد نسخ المعادلة وهو لا يفهمها ، فنقل علامات العمليات ونقل الأرقام ، لم يترك شيئاً ، لكنه خلطها خطأ . فالحجتان المشار إليهما يمكن تأثرهما إلى المادة الآتية : إنه لأمر يمحى أن أرى أن من شأن بعض المسلمات التى تنبنى عليها حلولى السيكلوجية لمشكلة الأعصبة أن تثير الشك والضحك حين تعرف للمرة الأولى . مثال ذلك أنى لا أجد مهرباً من القول بأن انطباعات ترجع إلى السنة الثانية — بل إلى السنة الأولى أحياناً — قد تركت أثراً لا يمحى فى الحياة الانفعالية لمن قدر لهم المرض فيما بعد ، وبأن هذه الانطباعات — وإن شوهتها الذاكرة وسمتها على أكثر من نحو — قد تكون أول أسس الأمراض الهستيرية وأعمقها . وكان من عادة المرضى الذين أشرح لهم ذلك فى موضعه المناسب أن يطلقوا العنان لسخريتهم من المعرفة الجديدة ، معلنين استعدادهم لأن يبحثوا عن ذكريات ترجع إلى زمن ما قبل الولادة . وكان اكتشافى لما يؤديه الأب من دور لا يطرأ على البال فى بواكير الدفعات الجنسية عند النساء المريضات يُقَابَل — كما كنت أتوقع — بترحيب مماثل . (أنظر المناقشة التى فى ص ٢٧٣ .) ومع هذا فافتناعى المؤسس على أسس طيبة هو أن

كلتا القضيتين صحيحة . وإني لأفكر - على سبيل التأييد - في أمثلة نرى فيها الأب يموت والطفل ما زال بسن مبكرة جداً ، ثم تجيء بعد ذلك أحداث - لا يمكن تفسيرها بغير ذلك - تثبت أن الطفل قد حفظ مع ذلك ذكريات لا شعورية عن الشخص الذي اختفى في هذا الزمن المبكر . وكنت أعلم أن قضايا هذه تقوم على استنتاجات قد تنازع صحتها . وعلى ذلك فعمل الحلم يحقق رغبة حين يستخدم على التحديد مادة تلك النتائج التي كنت أخشى معارضتها لكي يستخلص منها نتائج لا يمكن الاعتراض عليها .

(٧) وهناك حلم تركته إلى الآن دون أن أكاد ألمسه [أنظر ص ٤١٤] ظهر في مطلعته تعبير واضح عن عجب أحسسته لفكرة انبعثت في الحلم :

يكلفني بروكه الشيخ مهمة ما ، والشئ العجيب أنها كانت تتعلق بتشريح الجزء الأسفل من جسمى ، بتشريح الحوض والساقين التي أراها أمأى كما لو كان ذلك في حجرة التشريح ولكن دون الحظ غيابها عندي ودون أن يساورني أثر من الشعور بالفضاعة . كانت لوزن . تقف إلى جاذبي وتؤدي معي عملاً ما . أفرغ الحوض من الأحشاء وصار مرثياً ، طوراً من أعلى وطوراً من أسفل وقد اختلط المسقطان . تظهر زوائد لها لون كلون اللحم (تذكرني في الحلم نفسه بالبواسير) . علا هذه شئ أشبه بورق الغضة المتجمد^(١) كان من الضروري التقاطه في حذر . صرت بعد ذلك حائزاً على ساق من جديد وأخذت أشق طريق وسط المدينة ، ولكنني (لتعبي) أركب عربة . شقت العربة طريقها - لدهشى - خلال باب منزل افتتح تاركاً العربة تمر وسط مر انعطفت عند نهايتها ليؤدى إلى الهواء الطلق مرة أخرى^(٢) . وأخيراً أراى أقوم برحلة وسط مناظر طبيعية متقلبة مع مرشد من مرشدى جبال الألب كان يحمل متاعى . حملنى المرشد جزءاً من الطريق مراعاة منه لساقى المتعبتين . كانت الأرض موحلة . سرنا حول الحافة ، وكان هناك قوم جلسوا على الأرض مثل الهنود الحمر أو الفجر ، حول الحافة . كنت قبل ذلك أشق طريقى قداماً وسط الأرض الزلقة وقد ساورنى شعور بالدهش لما كنت أبعده في ذلك من المهارة بعد التشريح . وصلنا أخيراً إلى منزل صغير من الخشب في نهايته شباك مفتوح . هناك وضعنى المرشد على الأرض ثم أتى بلوحين من الخشب كانا معدين هناك من قبل وأسندهما إلى عارضة النافذة كأنه كان يقيم بذلك جسراً فوق الهاوية التي لم يكن بد من عبورها للخروج من المنزل . حينئذ شعرت فعلاً بالخوف على ساقى ولكنني بدل أن أعبر الهاوية - كما كان متوقماً - رأيت رجلين راشدين وقد رقدا على دكتين من الخشب كانتا تحاذيان جدران المنزل الخشبي ، ورأيت أيضاً ما لاح لى أنه طفلان نائمان بجوارهما . كأن وسيلتنا في عبور الهاوية لن تكون لوسى الخشب بل الطفلين . أستيقظ في حالة من الرعب العقل .

(١) ستانبول ، إشارة إلى كتاب ستانبول عن الجهاز العصبى للأصمك (أنظر ص ٤١٤) .

(٢) هذه صورة تستحضر فناء المهارة التي كنت أقطنها ، حيث كان المستأجرون يتركون عربات أطفالهم . ولكن الصورة كانت - فيما عدا ذلك - متعددة اللحم من وجوه كثيرة .

إن من كون ولو أقل فكرة عن مدى التكثيف الذى يقع فى الأحلام يتخيل من غير عناء أى عدد من الصفحات يستغرقه تحليل هذا الحلم تحليلاً كاملاً . ولكنى لحسن الحظ لا أحتاج فيما نحن فيه سوى إلى أن أبحث نقطة واحدة : تلك التى تزودنا بمثال على الدهش فى الحلم كما يتبين فى كلمة « والشىء العجيب » . وأبدأ بذكر مناسبة الحلم : إنها زيارة من لويز ن . - السيدة التى وقفت إلى جانبي وأنا أؤدى عملي فى الحلم . فقد سألتنى : « أعرنى شيئاً أقرأه » فاقترحت عليها « هى » لرايدار هاجارد ، ثم انطلقت فى الشرح قائلاً : « إنه كتاب عجيب ، ولكنه ملىء بالمعاني الدفينة ، الأنوثة الخالدة ، أبدية مشاعرنا ... » وهنا قاطعتنى لويز ن . قائلة : « أعرفه ، أليس عندك شىء من تأليفك ؟ » - « كلا » فإن كتبي الخالدة لم تظهر بعد . - « فسألتنى ساخرة بعض الشىء : « متى إذن تظهر شروحك المسماة بالنهاية التى وعدت بأن تكون مقروءة ولو كان القارئ نحن ؟ » وهنا لاحظت أن شخصاً آخر هو الذى يتحدث بلسانها ، وسكت . أخذت أفكر فيما يكلفنى إياه من مغالبة باهظة للنفس أن أنشر على الملأ كتابى عن الأحلام حيث لا أجد محيداً عن الإفضاء بالشىء الكثير من دخيلة طبعى : « وخير ما تستطيع علمه قد لا تملك قوله للصبيان . » (١) وهكذا نرى أن ما يفرض على فى الحلم من تشریح جسمى إنما يعنى تحليلي أنا الذى لا بد من اقترانه برواية أحلامى . وإن بروكه الشيخ ليجد هنا بحق موضعه المناسب ؛ فقد حدث من قبل وأنا ما أزال بالسنوات الأولى من اشتغالى بالبحث العلمى أننى اكتشفت اكتشافاً ثم تركته معطلاً إلى أن حملنى بروكه على نشره حملاً بأمر شديد . وأما سائر الخواطر التى أثارها حديثي مع لويز ن . فكانت أعمق غوراً من أن تصير إلى الشعور . لقد عرجت هذه الخواطر ناحية المادة التى اتفق أن أثارها فى نفسى ذكر « هى » لرايدار هاجارد . فإلى هذا الكتاب وإلى كتاب آخر لذات المؤلف « قلب العالم » (٢) يرجع الحكم المتمثل فى قولى : « والشىء العجيب » . ومن هاتين الروایتين الحافلتين بالخيال استقيت الكثير من عناصر الحلم : فالطريق الموحلة التى يحمل المنتقلون عليها والجسر الذى لا يجدون بدا من عبوره بألواح يحضرونها معهم - كل أولئك مأخوذ من « هى » ، فأما الهنود الحمر والفتاة والمنزل الخشبى فمن « قلب العالم » .

(١) [أنظر ص ١٦٦ ، فى الهامش .]

(٢) ["The heart of the World"]

والرائد في كلتا الروايتين امرأة ، وكلتا الروايتين تصف تجوالاً يحفل بالمخاطر ، بينما تصف « هي » طريقاً كله مغامرة يمتد إلى المجهول ، لم تكد تطؤه قدم من قبل . فأما التعب الذي يساقى فيحساس حقيقى كنت قد عانيته في النهار — بحسب ملاحظة أجدها مدونة حين سجلت الحلم . وأكبر الظن أن هذا التعب قد كان له صداه في مزاج من الكلل وفي سؤال موسوم بالشك : « ترى إلى متى ستحملنى قدماى بعد ذلك ؟ » وإن المغامرة المروية في « هي » لتختتم بالمرأة الرائدة وهي تهلك في النار المجهولة المستعرة في جوف الأرض بدل أن تجد الخلود لنفسها ولن معها . وما من خطأ في أن خوفاً من هذا القبيل كان ناشطاً بين أفكار الحلم . ومن المؤكد أن المنزل الخشبي كان يعنى النعش ، إذن القبر . بيد أن الحلم قد بلغ أوج مهارته حين صور تلك الفكرة التي لا ينفر المرء من شيء قدر نفوره منها بأن حقق رغبة . ذلك أننى كنت قد رأيتني في الحقيقة مرة يجوف أحد القبور ، إلا أنه كان قبراً إتروريا كشف عنه بالقرب من مدينة أورفيتو ، وكان القبر حجرة ضيقة بداخلها دكتان امتدتا بجذاء الجدران وامتد عليهما هيكلتا رحلين راشدين . وقد كان داخل المنزل الخشبي في الحلم شبيهاً بهذا القبر آتم الشبه ؛ فكأنما كان الحلم يقول : « إذا لم يكن من القبر بد ، فليكن القبر الإترورى . » وبهذا الاستبدال يقلب الحلم أظلم الممكنات إلى شيء أرغب فيه رغبة صادقة . غير أن الحلم لسوء الحظ — كما سنراه قريباً [ص ٤٥٩] — قد لا يغير سوى الفكرة التي تصحب حالة وجدانية معنية دون أن يغير هذه الحالة ذاتها . ولهذا استيقظت في فزع على رغم النجاح في تصوير تلك الفكرة : أن الأبناء قد يفلحون فيما أخفق فيه آباؤهم — وهي إشارة جديدة إلى الرواية العجيبة التي نرى أحد أشخاصها يظل هو هو خلال أجيال متعاقبة بلغت العشرين قرناً .

(٨) وهناك حلم آخر من أحلامى يظهر فيه أيضاً التعبير عن الدهش لأمر وقع في الحلم . . . ولكن الدهش قد اصطحب بمحاولة في تعليقه بلغت حداً من الغرابة والبعد — وأكاد أقول : من الألمعية — حتى أنها تكفى وحدها في حثي على تحليل هذا الحلم كله ، بغض النظر عن اشتماله على مسألتين أخريين جديرتين بأن تجذبا اهتمامنا . ذلك أننى كنت أسافر على سكة حديد الجنوب في الليلة من ١٨ إلى ١٩ من شهر يولييه حين سمعت

وأنا نائم ، صوتاً يصيح : « هولتورن [Hollthurn] ^(١) ، وقوف عشر دقائق . » فاتجه خاطري على الفور إلى Holothurien - فإلى متحف للتاريخ الطبيعي - فإلى أن تلك هي البقعة التي ثار فيها رجال شجمان في وجه حاكم بلدهم فشنوا على قواته المتفوقة حرباً لم يخرجوا منها بظائل - نعم . إنها الحركة المناهضة للإصلاح في النمسا ! - كأنما كانت تلك البقعة مكاناً في شتيريا أو التيرول . أرى بعد ذلك متحفاً صغيراً حفظت فيه بقايا هؤلاء الرجال أو متعلقاتهم ، وكانت الرؤية غير متميزة . أود لو استطعت مغادرة القطار ، ولكنني أتردد في ذلك . على الرصيف نساء يحملن ثماراً ، إنهن يجلسن القرفصاء على الأرض وقد أمسكن بالسلال على نحو جد مشوق . إنني أتردد لأنني لست واثقاً من أني أملك متسعاً من الوقت ، ولكن القطار يظل دون أن يتحرك . أرا في فجاءة في مقصورة أخرى ضاقت فيها الأرائك والمقاعد حتى أن ظهر المرء كان يستند مباشرة إلى مؤخر العربة ^(٢) . أدهش لذلك ، ولكنني ربما كنت انتقلت من عربة إلى أخرى في خلال حالة النوم . ههنا أفاص كثيرون بينهم إنجليزيان ، أخ وأخت . على أحد الرفوف صف من الكتب يراها المرء رؤية متميزة . ألحظ بينها « ثروة الشعوب » و « المادة والحركة » ^(٣) (لكلارك ماكسويل) ، إنه مجلد سميك مغلف في قماش ذي لون بني . يسأل الرجل أخته عن كتاب لشيبلر : هل نسيته ؟ كأنما كانت الكتب كتبهم طورياً ، وطوراً كئيباً . أشعر هنا برغبة في التدخل في الحديث مؤيداً أو مؤكداً . . . أستيقظ وأنا أنصبب عرقاً ، فقد كانت كل النوافذ مغلقة . كان القطار واقفاً في ماربورج [في شتيريا] .

وبينما كنت أدون هذا الحلم خطرت لي نبذة جديدة منه كانت ذاكرتي قد حاولت إغفالها : قلت (باللغة الإنجليزية) للأخ والأخت وأنا أشير إلى كتاب ما : « It is from... » ثم أصبح قائلاً : « It is by... » ، فيعقب الرجل على كلامي قائلاً لأخته : « لقد قال ذلك دون أن يخطئ . »

إن هذا الحلم قد بدأ باسم المحطة ، ولا شك في أن مناداة هذا الاسم كانت قد أيقظتني إيقاظاً جزئياً ، إلا أنني غيرت الاسم فجاء هولتورن بدل ماربورج والشاهد على أنني سمعت ماربورج عندما نودي اسمها للمرة الأولى - أو ربما بعد نداء تال - هو ما

(١) [اسم لا يصدق على أى مكان حقيق .]

(٢) حتى أنا لا أفهم هذا الوصف : ولكنني أتبع هنا تلك القاعدة الأساسية ، وهي أن أروى الحلم بالكلمات التي تخطر لي عند ترويته ؛ فإن الصيغة اللفظية هي نفسها جزء من التصوير الحلمي [أنظر ص ٥٠٨ .]

(٣) ["Wealth of Nations", "Matter and Motion"]

جاء في الحلم من ذكر شيللر الذى ولد في ماربورج - وإن لم تكن ماربورج التى في شتيريا^(١). وقد صحبت سفرى في هاته الليلة ملاسبات متعبة إلى آخر مدى ، مع أنى كنت أسافر في الدرجة الأولى . ذلك أن القطار لم يكن فيه موضع لقدم ، ثم إنى وجدت في مقصورتى سيدة وسيداً بدت عليهما كل مظاهر الغطسة وتجردا من الأدب ، أو هما لم يتكلفا أن يخفيا عنى شعورهما بالضيق لدخول عليهما ، فظلت تحينى المؤدبة لا تلقى منها ردا . ومع أن الرجل وزوجه كانا جالسين جنباً إلى جنب (وظهرهما إلى القاطرة) ، فإن المرأة سارعت إلى احتلال المقعد الذى كان يواجهها بجوار النافذة ، فوضعت عليه مظلتها . وأغلق الباب على الفور وتبدلت ملاحظات في موضوع النوافذ وفتحها . وأكبر الظن أنهما قد أدركا على الفور أنى كنت ظامناً إلى بعض الهواء الطلق ؛ فقد كانت ليلة حارة ، ولم يلبث الجو أن صار خانقاً في المقصورة المغلقة إغلاقاً محكماً . وقد كانت تجاربنى في السفر علمتنى أن مثل هذا المسلك المجرد من الأدب ومراعاة ما للغير شىء مما يتميز به أولئك الذين يسافرون بالهجان أو بنصف أجر . فلما جاء جامع التذاكر وأرسته تذكرتى التى كلفتنى ما كلفتنى خرجت من فم السيدة كلمات ألقها في نبرات متعالية كادت أن تكون متوعدة : إن زوجى يحمل ترخيصاً مجانياً . لقد كانت سيدة ذات هيئة مسيطرة وملامح غضوبة ، في سن لا تبعد كثيراً عن تلك التى يأخذ فيها جمال المرأة في الذبول ، فأما الرجل فما نبس بحرف وظل حيث هو لا يريم . وكان أنى تحابلت على النوم ، وهأنذا أثار في الحلم من رفيقى غير المستحيين ثأراً مخيفاً ؛ فما من أحد يستطيع أن يحذر أى صنوف من السباب ومن الإذلال تستقر وراء الأجزاء المتقطعة التى تكون منها الشطر الأول من الحلم . فلما اكتفت هذه الحاجة انبعثت أخرى ، هى الحاجة إلى تغيير المقصورة . ومن الأمور الشائعة أن يتغير المشهد في الحلم دون أن يلقى ذلك اعتراضاً ما ، فإذا كنت بادرت فاستبدلت برفيقي في السفر آخرين من ذاكرتى أكثر منهما لطفاً ، فما كان ذلك ليكون بالشىء العجيب أو الملحوظ . ولكننا نجد هنا حالة دعا فيها أحد

(١) إن البلد الذى ولد فيه شيللر لم يكن أى ماربورج ، بل مارباخ ، كما يعلمه كل تلميذ ألماني وكما كنت أعلمه أنا أيضاً وتلك إذن هفوة أخرى (أنظر ص ٢١٧ هـ) من الهفوات التى تتسرب لى تعوض عن تزييف متعمد في موضع آخر - وهى هفوة حاولت تفسيرها في كتابى "سيكوباتولوجية الحياة اليومية" . [١٩٠١ ب ، الفصل العاشر ، المقال الأول .]

الدواعى إلى أن يلقى تغيير المشهد اعتراضاً وإلى أن يعد أمراً يتطلب تعليلاً : كيف صرت فجأة في حجرة أخرى ؟ إننى لم أكن أذكر أننى انتقلت وليس إلا تعليلاً واحداً لا ثانى له : لا بد أنى تركت العربة وأنا نائمٌ — إنه حادث نادر الوقوع ولكننا نرى أمثلة منه في خبرة طبيب الأمراض العصبية ؛ فنحن نعرف أناساً سافروا بالسكة الحديدية وهم في حالة شفقية^(١) دون أن تبدر منهم بادرة تم عن وضعهم الشاذ ، إلى أن يبلغوا حداً من رحلتهم فإذا هم راجعون إلى أنفسهم ، يدهشون للثغرة التى فى ذاكرتهم . وهكذا أعلن وأنا ما زلت فى الحلم أن حالتى من حالات « الأوتوماتية الثقيلة »^(٢) .

ولكن التحليل يمكننا من حل آخر . فهذه المحاولة التعليلية التى تبدو لى على هذا المبلغ من العجب لو كنت مضطراً إلى أن أعزوها إلى عمل الحلم — ليست فى الحقيقة محاولة مبتكرة من عندى ، بل هى قد نسخت من عصاب أحد مرضاى . فقد سبق أن تحدثت فى موضع آخر [ص ٢٧٦] عن شاب عالى الثقافة ، حم العطف فى حياته الواقعة ، كيف أخذ بعد موت والديه بزمى قصير يتم نفسه بنوازع قتالة ، ثم بعد ذلك سقط فريسة للحبيطة التى لم يكن يرى مفراً من التزامها حماية لنفسه من هذه النوازع . كانت حالته حالة أفكار قهرية مع قدرة على إدراك حاله ظلت غير منقوصة . فى أول الأمر صار السير فى الطرقات عبثاً أليماً عليه ؛ إذ كان به دافع قهرى يدفعه إلى ألا يترك ماراً به دون أن يسجل غدوه ورواحه ودون أن يرى أين اختفى . فإن أفلت أحدهم من عينه المتتبعة تخلف عنده شعور أليم واحتمال لا مسرح له غير فكره ، مؤداه أنه ربما كان قد أجهز على هذا الشخص . والذى يستر وراء هذا كله كان — ضمن أشياء أخرى — [تخبيلاً تجوز تسميته] تخييل قايين ؛ أفليس « كل الناس إخوة » ؟ وإذ كانت مهمة المتابعة تلك شيئاً محالاً ، فقد ترك المريض كل نزهة وقضى حياته حبيس جدران الأربعة . ولكن أخبار الجرائم المرتكبة فى الخارج كانت تنفذ والصحف إلى غرفته . وأمره ضميره فى صورة الشك بأنه قد يكون هو القاتل المطلوب . بيد أن يقينه من أنه قد لبث أسابيع دون أن يبارح منزله ظل يحميه زمناً من هذه التهمات ، إلى أن طاف بجلده يوماً احتمال أن

(١) [أى حالة يقظة لكن دون وعى كامل ، فكأن الشعور فيها كالضوء ساعة الشفق .]

(٢) ["automatisme ambulatoire"]

يكون قد ترك المنزل وهو في حالة لاشعورية ، فاستطاع بذلك أن يرتكب الجريمة دون أن يعلم من أمرها شيئاً . ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أوصد باب منزله وسلم المفتاح إلى خادمه العجوز آمراً بإياها أمراً مشدداً ألا تترك أبداً هذا المفتاح يقع بين يديه ولو طلبه .

وهذا إذن هو منشأ محاولتي التعليلية حين قلت : إنني ربما كنت غيرت العربية وأنا في حالة لا شعورية . لقد نقل هذا التعليل جاهزاً من مادة أفكار الحلم إلى الحلم — ومن البين أن القصد منه هو أن يفيد في تعييني بشخص هذا المريض . وأما تذكري للمريض فقد أثاره استدعاء قريب من الذهن : ذلك أن هذا الرجل عينه كان يصحني في آخر مرة سافرت فيها ليلاً ، قبل ذلك ببضعة أسابيع . كان قد شفي وكان يسافر معي إلى الأقاليم ليزور أقارب له ، كانوا أرسلوا في طلبي . وكانت لنا مقصورة خاصة بنا وتركتنا كل النوافذ مفتوحة طيلة الليل وقبل النوم قضينا وقتاً من أطيب ما يكون . وكنت أعلم أن الأصل في مرضه دفعات عدائية نحو الأب ترجع إلى زمن الطفولة ولها ارتباطها بمواقف جنسية . وأنا إذن من حيث أعين نفسي به إنما أنشد الاعتراف بشيء مماثل . والحق أن المشهد الثاني في الحلم قد انتهى بتخييل مغرب بعض الإغراب حاصله أن رفيق المسنين في السفر قد سلكاً نحوي ذلك المسلك النافر لأن مقدمي قد أفسد عليهما ما كانا يزعمانه من تبادل الود في ليلهما . بيد أن هذا التخييل يرجع بدوره إلى مشهد من مشاهد الطفولة المبكرة ، حين يزج الطفل بنفسه — مدفوعاً في أكبر الظن بتطلعه الجنسي — إلى حجرة نوم والديه ثم يخرج منها بأمر من الوالد لا مرد له .

لا طائل — على ما أعتقد — في حشد أمثلة أخرى . فهي إنما تذهب جميعاً إلى تأييد ما تحصل من الأمثلة السابقة : أن فعل الحكم في الحلم ليس إلا ترديداً لنموذج موجود في أفكار الحلم ترديداً يتسم في معظم الأحيان بسوء التصرف ويحيى وسط محيط غير مناسب ، ولكنه قد يساق أحياناً — كما في مثالنا الأخير — سوقاً ماهراً حتى يخيل إلينا للوهلة الأولى أن ثمت نشاطاً عقلياً مستقلاً يتم في الحلم . ولنا وقد بلغنا هذا الموضع أن ندير انتباهنا إلى هذه القوة النفسية التي تبدو ولا شك بعيدة عن أن تشارك دائماً في تكوين الأحلام ، إلا أنها حين تفعل توجه همها إلى إدماج عناصر الحلم المتفرقة الأصول في كل خال من التناقض ، ذي معنى . ولكننا — قبل أن نطرق هذا الموضوع نشعر

بحاجة ملحة إلى أن ننظر أولاً فيماورد في الأحلام من التعبيرات الوجدانية ، وإلى أن نقارن بينها وبين الحالات الوجدانية التي يكشف عنها التحليل في أفكار الحلم .

ج

الحالات الوجدانية في الحلم

لقد نهتينا ملاحظة حصيفة لاحظها شريكى إلى أن التعبيرات الوجدانية في الحلم لا يمكن أن تقابل بهذا النوع من الاستخفاف الذى اعتدنا أن نعرف به محتوى الحلم : « حين يخاف المرء في الحلم غائلة اللصوص ، فاللصوص يقيناً من صنع خياله ، لكن الخوف حقيقى » . والأمر كذلك إذا أحسنا في الحلم مرحا . فشعورنا يحدثنا بأن الحالة الوجدانية التي يخبرها المرء في الحلم لا تقل بأى وجه من الوجوه عن حالة نخبرها في اليقظة معادلة في الشدة ، وإن حق الحلم في أن يدرج ضمن خبراتنا النفسية الحقيقية لأقوى بمحتواه الوجدانى منه بمحتواه الفكرى . غير أننا نعجز في اليقظة عن هذا الإدراج ؛ لأننا لا نستطيع أن نزن القيمة النفسية لإحدى الحالات الوجدانية إلا مرتبطة بمحتوى فكرى ما ، فإن انعدم التناسب بين الحالة الوجدانية والفكرة من حيث النوع والشدة وقف حكمتنا المستيقظ ولم يحرج جواباً .

وإن من سمات الأحلام لسمة حدث إلى العجب منها في كل وقت ، تلك هى : أن محتواها الفكرى لا يحمل معه الأثر الوجدانى الذى ما كنا في فكرنا المستيقظ إلا لتوقعه كما نتوقع أمراً ضرورياً ، حتى أعلن شترومبل أن الأفكار تجرد في الحلم من قيمها النفسية . غير أن الأحلام لا تعوزها أمثلة على الضد ، أمثلة يخطر فيها تعبير وجدانى شديد مقترناً بمحتوى لا يبدو فيه أقل مبرر يبرر انطلاق مثل هذا الوجدان : فقد أرانى في الحلم في موقف بشع ، خطر ، باعث على الاشمئزاز ، ولا أحس خوفاً أو نفوراً ، وعلى العكس : قد أروع أحياناً وليس ما يروع ، أو أفيض حبوراً وما يجبرنى سوى موضوع طفلى .

هذا اللغز هو - في الغالب - أسرع ألباز الحلم إلى الاختفاء وأتمها تبدأ حين تنتقل من محتوى الحلم الظاهر إلى محتواه الكامن . ولن تكون بنا حاجة إلى أن نشغل بفضه ؛ فقد فض من قبل . فالتحليل يعلمنا أن المحتوى الفكري قد مسه الشيء الكثير من النقل والتبديل ، على حين ظلت الحالات الوجدانية من غير تحريف ، ولا غرو بعد ذلك إذا فقد المحتوى الفكري المغير بفعل التشويه الحلمى كل تناسب يقرب بينه وبين الحالة الوجدانية المحفوظة كما هي ، ولا نحن نجد مدعاة للعجب حين يعيد التحليل المحتوى الصحيح إلى نصابه . (١)

وحيث يخضع مركب نفسى لتأثير الرقابة التي تفرضها المقاومة فالحالات الوجدانية هي أقل مقوماته تأثيراً ، وهي وحدها التي تهدينا الطريق إلى التكملة الصحيحة . وإن هذا الوضع لأظهر في الأعصاب منه في الأحلام . فالحالة الوجدانية في العصاب لها دائماً سببها الذي يبررها ، من حيث الكف على الأقل - وإن جاز بالطبع أن تكون قد زادت شدة لما يصيب الانتباه العصابي من التقلات . فإذا كان المسترعى يعجب لكل هذا الخوف يركبه تجاه تفاهة من التفاهات ، أو إذا استعجب رجل يعانى أفكاراً قهرية لما يوجهه إلى نفسه من هذا اللوم المنبعث من لا شيء ، فكلاهما ضال عن سبيل الفهم من حيث يتوهم أن المحتوى الفكري - أن تلك التفاهة أو ذلك « اللاشيء » - هو الشيء الجوهرى ، وإنه ليدافن عن نفسه بغير طائل من حيث يتخذ من هذا المحتوى نقطة البدء في تفكيره . ولكن التحليل النفسى يريهما بعد ذلك الطريق الصحيح إذ يسلم - على العكس - بأن للحالة الوجدانية ما يبررها ، ثم يبحث عن الفكرة المتصلة بها والتي

(١) إذا لم أكن أخطأت كثيراً ، فأول حلم استطعت أن أستشفه عند حفيدى الأكبر البالغ من العمر عشرين شهراً يدل على أن الحلم قد نجح في تحويل مادة أفكار الحلم إلى رغبة محققة ، على حين بقيت الحالة الوجدانية المرتبطة بها دون أن تتغير أثناء حالة النوم . فهوى الليلة التي سبقت رحيل والده إلى الجهة قد استيقظ وهو ينشج نشيجاً حاراً : « بابا ، بابا - ييبى » . والترجمة الوحيدة لذلك هي : « بابا وبيبي باقيان معا » ، بينما البكاء تسليم بالرحيل المرتقب . ولقد كان الطفل في ذلك الوقت قادراً تمام القدرة على الإعراب عن فكرة الفراق ؛ إذ كان بين أوائل ما نطق به هذا الطفل كلمة « Fort » [« بعيداً »] (وكان الطفل يفهم حرف o تفخياً خاصاً ويمطه مطاً طويلاً : o - o - o) ، ثم هو - قبل هذا الحلم الأول بشهور - كان يطوح بكل ما يقع تحت يديه من لعبه وهو يصيح : « بعيداً » - وهي لعبة كانت ترجع إلى نجاح مبكر في السيطرة على النفس وغزوها بترك الأم تذهب بعيداً . [أنظر ما ورد عن ذلك في « ما وراء مبدأ اللذة » (فرويد ١٩٢٠ ز) .]

نالها الكبت وحل محلها بديل . وكل هذا يتضمن مسلمة ، هي أن الاستجابة الوجدانية والمحتوى الفكرى لا يكونان تلك الوحدة العضوية التى لا تنقسم عراها ، بل قد يكون كل من هذين الجزأين ملفوقاً بالآخر بحيث يمكن الفصل بينهما بالتحليل . وتفسير الأحلام يرينا أن الأمر كذلك فى الحقيقة .

وأبدأ بمثال يفسر لنا فيه التحليل ما ظهر من تخلف الحالة الوجدانية دون المحتوى الفكرى ، مع أن هذا المحتوى كان يستلزم انطلاقها .

(١)

ترى فى صحراء ثلاثة أسود يضحك أحدها ولكنها لم تكن خائفة منها . لاشك فى أنها قد ولت فراراً منها بعد ذلك لأنها كانت تحاول أن تتسلق شجرة ، غير أنها وجدت أن إحدى قريباتها - وهى مدرسة للغة الفرنسية - قد سبقتها إلى هناك .

لقد جاء التحليل بالمادة الآتية : إن مناسبة الحلم التافهة جملة وردت فى موضوع الإنشاء الإنجليزى : العرف زينة الأسد . إن والدها كان يحمل لحية تحف بوجهه مثل العرف . وكانت مدرستها للغة الإنجليزية تسمى الآنسة Lyons (= Lions = أسود) وكانت إحدى معارفها قد أرسلت إليها أشعاراً من نظم Loewe [وهو « الأسد » فى الألمانية] . تلك إذن أسودها الثلاثة ؛ فلم الخوف منها ؟ - إنها قد قرأت قصة تروى كيف حث زنجى رفاقه على الثورة فطورد وأرسلت فى أثره كلاب الصيد فتسلق شجرة لكى ينقذ نفسه . تعقب ذلك ذكريات شتى تروىها الحاملة فى مرح شديد ، مثل تلك النصيحة فى صيد الأسد - عن مجلة « الصحائف الطائرة » - : ضع صحراء على المصفاة ، ينساب الرمل وتبقى الأسود . ثم قصة جمرة الطرافة وإن لم تكن بالنظيفة كل النظافة عن موظف سؤل لم لا يتكلف بعض العناء ليظفر بحظوة رئيسه الأعلى ، فأجاب بأنه قد حاول بالفعل أن يشق طريقه من الباب الخلقى ولكن الموظف المتقدم عليه كان قد سبقه إلى هناك . وتعدو كل هذه المادة شيئاً مفهوماً حين يتبين أن السيدة كانت فى اليوم الذى سبق الحلم قد تلقت زيارة من رئيس زوجها فى العمل . وكان الرجل جم الأدب وقبل يدها ولم تشعر هى بأقل خوف منه مع أنه كان « وحشاً كبيراً » وكان « مستأسداً » فى

مجتمع عاصمة البلد الذى أتت منه . وعلى ذلك فهذا الأسد أشبه بالأسد الذى فى « حلم ليلة من منتصف الصيف » والذى افترض أمره فلم يكن يخفى ورائه سوى سنج النجار (١) ، والأمر كذلك فى كل أسود الحلم التى لا يستشعر منها المرء رهبة .

(٢)

وأسوق كمثال ثان حلم الفتاة التى رأت الابن الأصغر لأختها ميتاً فى نعشه [ص ١٥٥ و ص ٢٦٥] ولكنها - كما تسعنى الآن إضافته - لم تستشعر لذلك ألماً ولا حزناً . إننا نعلم من التحليل لم كان ذلك كذلك : فالحلم إنما كان يخفى رغبتها فى أن ترى الرجل الذى أحبته مرة أخرى ولم يكن بد من أن تجيء حالتها الوجدانية مجانسة لرغبتها تلك وليس لما تقنعت به هذه الرغبة . وعلى ذلك لم تكن ثمت مدعاة إلى الحزن .

وهناك أحلام تظل فيها الحالة الوجدانية مرتبطة على الأقل بالمحتوى الفكرى الذى حل محل ذلك الذى كانت تلك الحالة مقترنة به فى الأصل . ولكن هناك أحلاماً أخرى يذهب فيها تفكيك المركب [الفكرى الوجدانى] إلى أبعد من ذلك ؛ فتظهر الحالة الوجدانية منفصلة كل الانفصال من الفكرة المتصلة بها وتدرج فى موضع آخر حيث تتسق والترتيب الجديد لعناصر الحلم . والموقف حينئذ أشبه بما قد رأيناه فى حالة أفعال الحكم فى الأحلام [ص ٤٤٤] : إذا تضمنت أفكار الحلم نتيجة هامة اشتمل الحلم كذلك على نتيجة ، ولكن النتيجة التى فى الحلم قد تنقل فتجىء فى صدد مادة متخلفة كل الاختلاف . ولا يندر أن يتم هذا النقل وفقاً لمبدأ التضاد .

هذه الإمكانيات الأخيرة تتمثل فى الحلم التالى الذى أخضعته لتحليل بلغ غاية الاستيفاء :

(١) [سنج النجار أحد أصحاب الحرف المثلين الذين اجتمعوا لى يمثلوا رواية ما احتفالاً بمرس دوق أثينا ، فى مسرحية " حلم ليلة من منتصف الصيف " لشكسبير . وقد وكل إلى سنج أن يمثل الأسد ، ولم يكن أحد يبعد عن الأسد بعد سنج هذا وبعد الأسد الذى لعبه .]

(٣)

حصن على شاطئ البحر ، ثم لا يعود الحصن على شاطئ البحر مباشرة بل على قناة ضيقة مؤدية إلى البحر . الحاكم رجل يدعى السيد ب . كنت واقفاً معه في قاعة استقبال كبيرة ذات ثلاث نوافذ تواجهها شرفات مقللة تشبه مكامن إطلاق النار في الحصون . كنت ملحفاً بالحامية على أننى ضابط بحرى متطوع أو شئ من هذا القبيل . إننا نخشى وصول سفن الأعداء ؛ فقد كنا في حالة حرب . السيد ب . ينتوى الرحيل ويعطينى تعليمات فيما يجب عمله إذا وقع ما نخشاه . كانت زوجه المريضة في الحصن المهدهد مع أطفالها . إذا بدأ ضرب القنابل فالواجب إخلاء القاعة الكبيرة على الفور . إنه يتنفس تنفساً ثقيلاً ويستدير لينصرف . أمسك به وأسأله : كيف أتصل به عند الضرورة ؟ يقول شيئاً ما على سبيل الجواب ولكنه لا يلبث أن يسقط ميتاً على الفور . لاشك في أننى قد حملته بأستلى ما لا يطيق . أسائل نفسى بعد موته - موتاً لا يترك في نفسى أى أثر آخر - هل كان ينبغي أن تبنى أرملة بالحصن وهلا ينبغي أن أنقل نبأ موته إلى القيادة العليا وأن أتولى قيادة الحصن بعده باعتبارى تاليه في المرتبة . كنت واقفاً بالنافذة أراقب السفن وهى تمر . كانت سفناً تجارية تندفع بسرعة عبر الماء الداكن وكان لبعضها مداخن كبيرة وبعضها الآخر أسطح محدبة (تشبه كل الشبه مباني المحطة في الحلم التمهيدى - غير المذكور) . بعد ذلك يقف أخى بجازى وينظر كلانا من النافذة إلى القناة . نزاع لمراى إحدى السفن ونصيح : ها هى ذى السفينة الحربية ! ولكن يتضح أنه لم يكن هناك سوى السفن التى أعرفها من قبل في طريقها إلى العودة . تقبل الآن سفينة صغيرة انفطرت عند الوسط فلم يبق سوى نصفها على نحو يثير الضحك ، نرى على سطحها أشياء غريبة تشبه الفناجين أو العلب في شكلها . نصيح في صوت واحد : تلك سفينة الإفطار .

إن حركة السفن المسرعة مع لون المياه الأزرق الداكن والدخان الأسمر المتصاعد من المداخن - كل أولئك قد اثتلف ليحدث في النفس شعوراً شديداً التوتر ، قائماً .

ولقد نقلت الأماكن التى ظهرت في الحلم عن رحلات متعددة قمت بها في البحر الأدرىاتى (إلى ميرامار - ودونيو والبندقية وآكيليا) . وكانت لا تزال حية في ذاكرتى رحلة متممة قمت بها مع أخى إلى آكيليا ، قبل الحلم ببضعة أسابيع . ويحتوى الحلم كذلك على إشارات إلى الحرب البحرية بين أمريكا وأسبانيا وإلى ما أثارته إذ ذاك من القلق على مصير بعض أقاربى ممن يقيمون في أمريكا . وقد ورد ذكر الحالات وجدانية في موضعين من هذا الحلم : ففي موضع تغيب حالة وجدانية متوقعة ، إذ نص صراحة على

أن موت الحاكم لم يترك أثراً في نفسى ، كما أننى فى موضع آخر - حين أقبلت السفينة الحربية - قد ارتعت لمراها وشعرت بكل أحاسيس الفزع فى نوى . ووزعت الحالات الوجدانية فى هذا الحلم الحسن التركيب توزيعاً كان من شأنه أن اجتنب كل تناقض يلفت النظر ؛ فلم يكن ثمة سبب يدعونى إلى الفزع من موت الحاكم وكان من العقول كل المعقولة - وأنا قائد الحصن - أن أفزع لمراى السفينة الحربية . بيد أن تحليل الحلم بين أن السيد ب . لم يكن إلا بديلاً منى (فى الحلم كنت بديله) ؛ فأنا الحاكم الذى سقط ميتاً ، وأفكار الحلم تدور حول مصير أسرقى إذا مت قبل الأوان . تلك كانت بين أفكار الحلم الفكرة الوحيدة الأئمة ، ولا بد أن الفزع قد فصل منها ثم وصل فى الحلم بمراى السفينة الحربية . ويبين التحليل من جهة أخرى - أن منطقة أفكار الحلم التى استقيت منها السفينة الحربية كانت تحفل على العكس بأشد الذكريات مرحة : كان ذلك منذ عام مضى فى البندقية ، وكنا فى صبيحة يوم ساحر جميل ، وقوقاً إلى نوافذ حجرتنا المظلة على الريفا سكيافونى ننظر عبر البحيرة الزرقاء حيث كانت الحركة فى ذلك اليوم أكثر منها فى كل يوم ؛ فقد كان القوم يتوقعون مقدم بعض السفن الإنجليزية وتهيأون للاحتفال بها . ثم إذا زوجتى تهتف مرحة كالطفل : « ها هى ذى السفينة الحربية الإنجليزية ! » وإنى أفزع فى الحلم لهذه الكلمات بالذات (وهو مثال آخر على أن أقوال الحلم إنما تستقى من أقوال قيلت فى الحياة [أنظر ص ٤١٩] ، كما أتى لن ألبث دون أن أبين أن العنصر « إنجليزى » لم يفلت هو الآخر من فعل عمل الحلم) . وأنا إذن فى عملية تصيير أفكار الحلم إلى محتوى الحلم الظاهر قد قلبت المرح هنا إلى خوف ، ولست أحتاج إلى غير الإلماع إلى أن هذا القلب نفسه كان يعرب عن جزء من محتوى الحلم الكامن . وأياً كان الأمر ، فهذا المثال دليل على أن عمل الحلم حر فى أن يفصل الحالة الوجدانية من روابطها بأفكار الحلم وفى أن يدرجها بأى موضع يشاء من محتوى الحلم الظاهر .

وأنتهز هذه الفرصة لكى أسوق تحليلاً مفصلاً بعض التفصيل لـ « سفينة الإفطار » التى ظهرت فى الحلم فكان ظهورها خاتمة لا معنى لها لموقف ظل يدار حتى ذلك الحين فى مستوى معقول . إننى حين أستحضر سفينة الحلم استحضاراً أدق يفجأنى منها أنها كانت سوداء اللون وأنها - نتيجة لكونها قد فطرت فى منتصفها حيث أوسع عرضها - كانت

جمّة الشبه - عند هذا الطرف - بطائفة من أشياء جذبت انتباهنا في متاحف المدن الإترورية : تلك كانت صينيات من الحزف الأسود ذات مقبضين ، وضعت عليها أشياء تشبه فناجيل القهوة أو الشاي ولا تخلو من كل شبه بأواني الأَفطار في مدينتنا الحديثة . فلما استفسرنا علمنا أن تلك كانت عدد « التواليت » لسيدة إترورية بما تحويه من أوعية للدهون والمساحيق ، فقلنا مازحين : إنها تكون فكرة طيبة لو أنا حملنا معنا أحدها لربة المنزل . وعلى ذلك فالسفينيّة التي تظهر في الحلم كانت تعني « تواليت أسود » ، أي ثوب حداد ، وكانت تشير بإشارة مباشرة إلى الموت . وأما الطرف الآخر لسفينيّة الحلم فيذكرني بالقوارب الجنائزيّة^(١) التي كانت توضع عليها أجسام الموتي ويترك للبحر دفنها . وهذا يؤدي إلى عودة السفينة في الحلم :

« وفي سكون يحمل الماء الشيخ إلى المرسى ، سالماً على قاربه . »^(٢)

إنها عودة من سفينة غارقة ["Schiffbruch" وبالحرف : سفينة مكسورة] ، ولقد كانت سفينة الإفطار مكسورة في منتصفها . ولكن ما منشأ ذلك الاسم : سفينة « الإفطار » ؟ ههنا قد استغل لفظ « الإنجليزية » الذي تركناه عند الحديث عن السفن الحربية . ذلك أن الكلمة الإنجليزية الدالة على « الإفطار » ("breakfast") تعني « كسر الصيام » ، وإن الكسر ليرجع من جديد إلى السفينة الغارقة [وبالحرف : المكسورة] ، بينما يتصل الصيام بالرداء [التواليت] الأسود .

غير أن الحلم لم يتدع جديداً سوى اسم مركب الإفطار ، فأما الشيء نفسه فقد وجد ، وإنه ليذكرني بجزء من أمتع أجزاء رحلتي الأخيرة . فقد ساورنا الشك في جودة الطعام الذي قد يقدم لنا في آكيليا ، فأحضرنا معنا زاداً من جوريزيا واشترينا في آكيليا زجاجة من نبيذ إيستريا الممتاز . وبينما كانت باخرة البريد الصغيرة تشق طريقها وثيدة في قناة دل مي عبر البحيرة المهجورة إلى جرادو كنا نحن ، الراكبان الوحيدان ، نتناول طعام الإفطار على السطح ونحن أشد ما نكون جبورا ، وكان إفطارا ندر أن ذقنا مثله من قبل . تلك إذن « سفينة الإفطار » ، ووراء هذه الذكرى من ذكريات الاستمتاع

(١) إن كلمة "Nachen" (القوارب الجنائزية) قد اشتقت - عل ما علمت من صديق فيلولوجي - من الأصل اليوناني nekus (جثة) .

(٢) [Schiller, Nachtrage zu den Xenien]

بالحياة في أنها صورة - وراءها دون غيرها - يخفى الحلم أظلم الأفكار عن غيب مجهول مفارق للمألوف .

إن فصل الحالات الوجدانية المتولدة من أفكار الحلم هو أعجب ما يقع لها في أثناء تكوين الحلم ، ولكنه ليس بالشيء الوحيد الذى يقع لها ، ولا هو أهم ما يعتمدها من التغيير في طريقها من أفكار الحلم إلى الحلم الظاهر . فلو أننا قارنا الحالات الوجدانية التى تصحب أفكار الحلم وبين تلك الظاهرة فيه ، لاتفصح أمر على الفور : كلما عرضت في الحلم حالة وجدانية وجدت هذه الحالة في أفكار الحلم ، ولكن العكس غير صحيح . فالحلم بوجه عام أفقر وجداناً من المادة النفسية التى نجم الحلم عن معالجتها ، فأنا في العادة إذ أركب أفكار الحلم من جديد أرى بينها أشد الدوافع النفسية وهى تتجهد لكى تبلغ الحس وأراها في معظم الأحيان وهى تصارع دوافع غيرها تخالفها مخالفة بينة . فإن رجعت بعد ذلك إلى الحلم ، لم يندر أن أجده حائل اللون ، خالياً من كل نغمة انفعالية ذات شدة يعتد بها . فعمل الحلم لا يهبط إلى مرتبة التساوى بمحتوى أفكارى وحده ، بل إن نغمتها الانفعالية تلتقى كذلك ذات المصير في كثير من الأحيان . ولقد يصح القول بأن عمل الحلم يجلب معه قمعاً للحالات الوجدانية . دعنا نأخذ - مثلاً - حلم البحث النباتى : إن الأفكار التى كان يعرب عنها هذا الحلم كانت تقوم في دفاع حار مهتاج عن حريتى في أن أسلك كيفما أختار وفي أن أوجه حياتى على النحو الذى يبدو لى - ولى وحدى - صواباً ، ولكن خرج من ذلك حلم سياه التساوى : كتبت مبحثاً ، المبحث أمامى ، إنه يشتمل على لوحات ملونة ، أرفقت بكل نسخة نباتات مجففة . لنى ذلك ما يذكر بالسلام الذى يخيم فوق ساحة قتال انتثرت الجثث في رحابها ؛ فكل أثر ينم عن الصراع الذى دارت رحاه فوق أرضها قد انمحي .

غير أن الأمور قد تختلف : قد تنفذ إلى الحلم نفسه تعبيرات وجدانية مشتدة . سوى أننى أقف في الوقت الحاضر عند تلك الحقيقة التى لا منازعة فيها : أن عدداً كبيراً من الأحلام يبدو متساوياً ، على حين يستحيل أن يلج المرء أفكار الحلم دون أن يتولاه انفعال عميق .

وليس هنا مقام الإتيان بالتعليل النظرى الكامل لما يقع في خلال عمل الحلم من هذا القمع للحالات الوجدانية ؛ فذلك ما يستلزم التمهيد له ببحث من أشق ما يكون في نظرية الحالات الوجدانية وفي ميكانيكيه الكبت [أنظر ص ٥٨٨ وما بعدها] ، وإنما أريد الإدلاء

هنا بفكرتين: إننى مضطر - لأسباب أخرى - إلى أن أتصور انطلاق الحالات الوجدانية فى صورة عملية نازحة عن المركز متجهة إلى داخل الجسم مثل عمليات التعصيب^(١) الحركى والغددى. وكما أن إرسال الدفعات الحركية إلى العالم الخارجى يبدو معطلاً فى أثناء حالة النوم، فإن إثارة الحالات الوجدانية بوساطة التفكير اللاشعورى قد تزيد كذلك صعوبة فى خلال النوم. وفى هذه الحالات تكون الحلجات الوجدانية التى تخطر فى ثنايا أفكار الحلم ضعيفة فى ذاتها وبدايتها، ومن ثم لا يكون ما ينفذ منها إلى الحلم بأقل ضعفاً. ويلزم من هذه النظرة أن "قمع الحالات الوجدانية" ليس نتيجة لعمل الحلم على الإطلاق، بل ينجم عن حالة النوم. وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكنه لا يمكن أن يكون كل الحقيقة. فلا بد أن نذكر أن كل حلم - مهما قل حظه من التعقيد - يتبين فى النهاية أنه وليد تصالح بين قوى نفسية متعارضة. فالأفكار التى تبني بها الرغبة لا تجد مفراً من مكافحة المعارضه المنبعثة من العامل القائم بالرقابة - هذا من جهة. ثم نحن - من جهة أخرى - قد رأينا فى أحيان كثيرة أن التفكير اللاشعورى لا يحوى فكرة إلا كانت مشدودة إلى ضدها الذى يتقضاها. وإذا كانت هذه الأفكار جميعاً قادرة على إثارة الحالات الوجدانية فنحن ولا ريب بمأمن من مجانبه الصواب حين نقدر أن قمع الحالات الوجدانية هو نتيجة للكف الذى تعمله هذه الأضداد بعضها فى بعض وتعمله الرقابة فى النوازح المقموعة بوساطتها. وعلى ذلك يكون كف الحالات الوجدانية هو النتيجة الثانية لرقابة الحلم كما كان التشويه الحلمى نتيجتها الأولى.

وأسرد هنا مثالا من حلم يسعنا فيه أن نعلل ما يطبع محتوى الحلم من تساوى النعمة الانفعالية بما بين أفكار الحلم من التضاد. إنه حلم قصير يملأ كل قارئ اشمئزازا.

(٤)

تل علاه شئ أشبه بمرحاض فى الهواء الطلق : مقعد طويل جداً فى نهايته ثقب كبير ، غطيت حافته الخلفية بغطاء سميك من أكوام صغيرة من العائط ، من جميع الأحجام ودرجات الطراجة . وراء المقعد شجيرات .

(١) [فى بيان استخدام فرويد لهذه الكلمة انظر الهامش الذى فى ص ٥٢٩ .]

أبول على المقعد ، يغسل سيل طويل من البول كل شيء ، فأكوام الغائط تنزاح في يسر وتسقط في الفتحة .
كأنما ظل بعضها متبقياً في النهاية .

لم انتفى عندى كل شعور بالاشمئزاز في خلال هذا الحلم ؟

لأن هذا الحلم — كما يبينه التحليل — قد اشتركت في تكوينه أشد الأفكار مجلبة للسرور وأكثرها بعثاً على الرضى . فما يخطر لى على الفور عند تحليل هذا الحلم هو حظائر أوجياس ^(١) التى نظفها هرقل . وهرقل هذا كان إياى . فأما التل والشجيرات فتأتى من أوسى حيث كان يقيم أطفالى في ذلك الوقت . وإنى قد اكتشفت أن للعصاب عللا ترجع إلى الطفولة وبذلك جنبت أطفالى المرض . وأما المقعد فكان (إذا استثنينا الثقب بالطبع) صورة طبق الأصل من قطعة من الأثاث أهدتها إلى مريضة عارفة للجميل ، وهو — إذن — يذكرنى بمدى التكريم الذى ألقاه من مرضاى . لا ، بل إن متحف البراز الإنسانى نفسه ليجد تفسيراً من شأنه أن يثير سرورى ؛ فإنه — مهما بلغ اشمئزائى منه في الحياة الواقعة — كان في الحلم أثراً ذكروبياً من أرض إيطاليا الجميلة حيث تهب المراحض في المدن الصغيرة — كما نعلم جميعاً — على هذا النحو عينه . وأما سيل البول الذى يغسل كل شيء فعلامه لا تخطئ على العظمة . فهكذا أطفأ جالشر الحريق الكبير الذى شب في ليليت — وإن يكن هذا العمل قد جر عليه يقيناً غضب الملكة الرقيقة . وإكن جارجتوا — رجل رابليه الفائق — قد أخذ هو الآخر بثأره من أهل باريس بأن امتطى متن كنيسة نوتردام وصب سيل بوله على المدينة ^(٢) ولقد اتفق يوم أمس على التحقيق أنى — قبل التوجه إلى الفراش — تصفحت رسوم جارنييه لكتاب رابليه . ومن العجب أن ههنا شاهداً جديداً على أنى الإنسان الفائق : فرصيف نوتردام كان كنى المفضل في باريس ، كلما فرغت في عصر يوم جلت هنا وهناك على أبراج الكنيسة بين المسوخ والشياطين . فأما اختفاء كل الغائط بتلك السرعة تحت سيل البول فيذكر بشعار ” نفخ فتبعثروا ” الذى كنت انتويت أن أتخذه عنواناً لفصل في علاج المستريا .

[أنظر ص ٢٣٤ .]

وعلينا الآن بالمناسبة الحافزة على الحلم . كان ذلك في عصر يوم قائظ من أيام

(١) [ملك أغرقت الأساطير في وصف ثروته حتى قيل : إن البراز المتراكم في حظائره قد بلغ عنان السماء

لكثرة مواشيه . ولم يستطيع تنظيفها إلا هرقل .]

(٢) [أنظر الهامش ٤ في ص ٢٣٥ .]

الصيف ، وكنت - بعد الظهر - قد أقيمت محاضرتي في الصلة بين الهستريا والانحرافات الجنسية . وكان كل ما قلته يبعث الاستياء في نفسي ويبدو لي مجرداً من القيمة كل التجرد . كنت متعباً لا أستشعر أثراً من السرور بعملى المضنى ، تواقاً إلى البعد عن هذا التنبيش في القاذورات الإنسانية إلى حيث يقيم أبنائي ثم - بعد ذلك - إلى روائح إيطاليا . وفي هذا المزاج مضيت من قاعة المحاضرة إلى أحد المقاهي حيث تناولت لقمة متواضعة ؛ فلم تكن بي شبهة إلى الطعام . بيد أن واحداً من مستمعي جاء معي ورجا مني أن أدعه يجلس إلى جانبي ريثما أحسسى قهوقى وأتبلغ كسرتى ، ثم أخذ يتملقنى : كم من أشياء تعلمها منى ، وكيف أصبح ينظر إلى الأشياء بعين جديدة ، كيف نظمت حظائر أوجياس من الأخطاء ومن الآراء السابقة بنظرتي عن الأعصبة ، وبالاختصار قال قال لى : إننى رجل عظيم جداً . ولم أكن فى مزاج يتفق وهذا التقريظ ، فعالبت شعورى بالاشمئزاز ثم ذهبت إلى المنزل مبكراً لكى أفلت منه . وكان أن تصفحت رابليه قبل الذهاب إلى الفراش وقرأت قصة قصيرة من قصص ك. ن. ماير بعنوان "أحزان صبي" .

تلك هى المادة التى خرج منها الحلم . أضف أن قصة ماير القصيرة قد أثارت فى نفسى ذكريات عن مشاهد من الطفولة (أنظر الجزء الأخير من حلم الكونت تون [ص ٢٣٥]) . ولقد استمر فى الحلم مزاج النفور والاشمئزاز الذى عرفته فى خلال النهار ، حتى أنه زود الحلم بكل مادة محتواه الظاهر تقريباً . سوى أن مزاجاً مضاداً من توكيد الذات توكيداً قوياً بل مغالياً قد استيقظ فى أثناء الليل ونحى الأول دون أن يبطله . ولم يكن لمحتوى الحلم بد من أن يجد صورة تمكنه من الإعراب عن هجاس الشعور بالضآلة وعن جنون العظمة فى آن واحد . وكان من نتيجة هذا التلاقى محتوى حلمى طابعه الاشتراك ، ولكن نجمت كذلك نعمة انفعالية متساوية نتيجة للكف المتبادل بين الأضداد .

ولو أخذنا بنظرية تحقيق الرغبة لزم أن هذا الحلم ما كان يتيسر لولا أن الأفكار المضادة الصادرة عن جنون العظمة (وهى أفكار كانت تقع تحت وطأة القمع من غير شك سوى أنها كانت ذات طابع لاذ) قد انبعثت إلى جانب الشعور بالاشمئزاز . فما هو أليم يجب ألا يصور فى الحلم ، وكل ما يؤلم من أفكارنا الحلمية لا ينفذ إلى الحلم إلا إذا هو أسلم فى الوقت نفسه قناعاً يتقنع به تحقيق رغبة ما .

وهناك بعد ذلك طريقة أخرى يستطيع بها عمل الحلم معالجة الحالات الوجدانية المتضمنة بين أفكار الحلم - إلى جانب تركها تشق طريقها أو سلبها كل حِدَّة، تلك هي : قلبا إلى ضدها .

فقد عرفنا من قبل [ص ٣٤٩] تلك القاعدة التفسيرية : أن كل عنصر - من حيث تفسيره - قد يعرب عن ضده كما يعرب عن نفسه . ولسنا نستطيع أن نعلم مقدماً بأى الطرفين نأخذ ، وإنما الفصل للسياق ، ومن الواضح أن الشعور الشعبي قد أحس هذه الحقيقة ؛ فكتب الأحلام تنهج في تفاسيرها وفق مبدأ الأضداد في كثير من الأحيان . والذي يجعل هذا القلب إلى الضد شيئاً ممكناً هو هذه الرابطة الاستدعائية الباطنة التي تربط في فكرنا بين فكرتنا عن شيء وبين ضدها . وهذا القلب - شأنه شأن أى نوع آخر من أنواع النقل - قد يخدم أغراض الرقابة ، ولكنه قد يكون أيضاً - في أحيان كثيرة - وليد تحقيق الرغبة ؛ فما تحقيق الرغبة إلا أن تستبدل بشيء مستكره ضده . وإذا كانت أفكارنا المعربة عن الأشياء قد تظهر في الحلم مقلوبة إلى ضدها ، فكذلك الحالات الوجدانية المرتبطة بأفكار الحلم ، والراجع - فيما يبدو - هو أن هذا القلب للحالة الوجدانية ينجىء نتيجة لرقابة الحلم ، أو تلك هي القاعدة . ونحن في الحياة الاجتماعية - تلك الحياة التي تزودنا بتشبيها المألوف لرقابة الحلم - نلجأ كذلك إلى قمع حالاتنا الوجدانية كما نلجأ إلى قلبها ، مستهدفين في ذلك الاستخفاء أولاً . فإذا كنت أحدث شخصاً تحملى الضرورة على مداراته بينما رغبتى هي أن أرميه بكلمة عداء ، فإن إخفاء كل تعبير عن حالتى الوجدانية أمر يكاد يفوق في أهميته وفي لزومه تخفيف العبارة اللغوية عن أفكارى ؛ فإنى إذا خاطبته بكلمات لا تجانب الأدب ولكنها تصطحب بنظرة أو بإشارة من الكراهية والاحترار ، لم يختلف التأثير الذى أحدثه في نفسه منه لو أنى رميته باحتقارى مجاهرة . وعلى ذلك كانت الرقابة تأمرنى أن أقمع حالاتى الوجدانية قبل كل شيء . فإن كنت معلماً في فن الاستخفاء تلبست بالحالة المضادة : أبسم وأنا غاضب ، وأظهر الود ورغبتى الدمار .

ولقد مر بنا من قبل مثال ملحوظ على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية يقع في الحلم نتيجة للرقابة . ففي حلم "عمى ذى اللحية الصفراء" [ص ١٦٢] أحسست أكبر الود نحو

صديقي ر . ، بينما كنت أدعوه في أفكار الحلم مغفلاً ، ولأنني كنت أدعوه كذلك . وقد كان من هذا المثال على قلب الحالة الوجدانية أننا خرجنا بأول إشارة إلى وجود رقابة الحلم . وهنا أيضاً ما من ضرورة تدعونا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يخلق مثل هذه الحالة الوجدانية من عدم ، بل القاعدة هي أنه يراها في متناول يده بين أفكار الحلم ، كل الأمر أنه يزيدنا شدة على شدة بالقوة النفسية التي لدافع الدفاع ، حتى تصير لها الغلبة في تكوين الحلم . فالراجع في حلم عمى الذى ذكرته هو أن الحالة الوجدانية المضادة - الحنان - قد انبعثت من مصدر طفلى (كما أوحاه الجزء الأخير من الحلم) ؛ لأن علاقة العم وابن الأخ قد صارت المنهل الذى ترد منه كل صداقاتى وعداواتى ، نتيجة للطابع الخاص الذى كان لأوائل خبراتى في عهد الطفولة . [أنظر التحليل المساق في ص ٤٢٤ وما بعدها .]

ونجد مثالا ملحوظاً على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية في حلم رواه فرونتسى (١٩١٦) ، قال : « استيقظ سيد متقدم في السن ذات ليلة ، أيقظته زوجته المذعورة ؛ لأنه كان يضحك في نومه ضحكاً صاخباً مطلقاً . وقد ذكر الرجل بعد ذلك أنه كان يحلم الحلم الآتى : كنت راقد في سريري ثم دخل الغرفة سيد أعرفه ، حاولت أن أدير النور ولكنى لم أستطع . كررت المحاولة فلم تجد . عندئذ نهضت زوجتى لمعاونتى ، ولكنها عجزت هي الأخرى . تنزل في النهاية عن محاولتها وتعود إلى فراشها لأنها كانت تشعر بالجلج أمام السيد لتجردها من الرداء بمض التجرد . وكان هذا كله شيئاً مضحكاً حتى لم أملك إلا أن أضحك ضحكاً مدوياً . وسألتنى زوجى : ولم تضحك ؟ لم تضحك ؟ ، ولكن ذلك لم يزدنى إلا ضحكاً حتى استيقظت . - وفي غداة هذا الحلم كان السيد يشعر باكتئاب وصداع ؛ فكل هذا الضحك قد كرهه - أو هكذا ظن .

« إن هذا الحلم ليس بالحلم السار إلى المدى الذى يبدو ، لو بحثناه بحثاً تحليلياً ؛ نفسياً ؛ لأن ' السيد المعروف ' الذى دخل الحجرة كان في أفكار الحلم صورة للموت باعتباره ' المجهول الأكبر ' - وهى صورة طافت بخلده في اليوم الذى سبق الحلم ؛ فقد وقع لهذا السيد المسن - وهو يشكو تصلب الشرايين - ما دعاه في اليوم السابق إلى التفكير في الموت . ولقد حل الضحك المطلق محل النحيب والبكاء لفكرة موته المحتوم ، ونور الحياة هو هذا الذى لم يعد يستطيع إدارته . ولعل هذه الفكرة المظلمة قد ارتبطت بمحاولات في الجماع بذنا قبيل نومه دون أن يصيب توفيقاً وإن عاونه زوجته وهى متجردة ، فلحظ أنه قد أخذ في الأفول . بيد أن الحلم أفلح في تحويل هذه الفكرة المظلمة عن العنة

والموت إلى مشهد هزلي ، والنحيب حال إلى ضحك . »

وهناك طبقة من الأحلام تستحق بنوع خاص أن توصف بكونها أحلاماً " منافقة " ، ثم هي محك صعب لنظرية تحقيق الرغبة . ولقد اتجه انتباهي إلى هذه الأحلام حين أتت السيدة الطيبية م . هيلفردينج بالحلم الآتي من أحلام روزجر (١) لمناقشته في " جمعية فيينا للتحليل النفسي " .

يقول روزجر في قصته " مطرود " (٢) : « إنني أنعم عادة بنوم عميق ، ومع هذا ما أكثر الليالي التي لم أذق فيها راحة ! - لأنني ، إلى جانب بدايتي المتواضعة طالباً وأديباً ظلت أجر معي سنوات طوالاً ظل حياتي وأنا طرزي ، مثل شبح لا أستطيع الخلاص منه .

« ولا يعني ذلك أنني في خلال النهار ، كنت أشغل بأيامي الماضية انشغالا كثيراً أو كبيراً ؛ فمن نزع عن نفسه جلد الفلسطيني (٣) وراح يغزو الأرض والسماء يتوجه بهيمته إلى أمور أخرى . ولا كنت أكاد - وأنا في مرح مقدم - أفكر لحظة فيما يزورني في جنح الليل من الأحلام . ولكنني بعد ذلك ، حين اعتدت أن أفكر في كل شيء ، أو حين أخذ الفلسطيني الكامن في يختلج قليلاً ، حينئذ فقط ساءلت نفسي : لم كنت ، إذا حلمت على الإطلاق ، رأيتني طرزيًا أجيراً ورأيتني - وأنا كذلك - أقضى الساعات الطوال إلى جانب معلمي أعمل في دكانه من غير أجر ؟ كنت أعلم حق العلم ، وأنا جالس إلى جانبه أخيط وأكوي ، أن مكاني الصحيح لم يعد هناك ، وأن أممي - وأنا الحضري - أمور أخرى أشغل بها . بيد أنني كنت دائماً في إجازة ، وكان الوقت دائماً وقت إجازة الصيف . ولهذا كنت هناك بجانب معلمي أعاونه . وكان هذا الوقت المضيع الذي كان يسعني أن أصنع في أثناءه أموراً أخرى أكرم وأنفع ، كان يمضني وكنت أتحسر عليه . وكنت بين الحين والحين ، إذا لم تجر الأمور على ما يرام ، أصغر كارهاً للملأمة من معلمي ، وأما الأجر فما من كلمة عنه . ولكم عزمت وأنا جالس محني

(١) [هو بيتر روزجر (١٨٤٣ - ١٩١٨) كاتب نمسوي معروف بلغ ذرى الشهرة بعد نشأة ريفية

متواضعة .]

(٢) ["Fremd gemacht" ["Waldheimat" ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٣ .

(٣) [Der Philister - لفظ كان الطلبة الألمان يطلقونه في شيء من التحقير على كل من خرج عن

والدوائر الجامعية وعلى التجار بنوع خاص ، على نحو ما يقول الفرنسيون أحياناً : " بورجوا " .]

الظهر في الدكان المظلم على أن أترك العمل وأغادر المكان . لا ، بل إنى أقدمت على ذلك مرة . ولكن المعلم أخذ الأمر كأزله لم يكن ولم ألبث أن رأيتنى جالساً من جديد إلى جواره وأخيط .

« وكنت اليقظة حلوة بعد هذه الساعات الثقالة . كنت أعقد العزم بعدها إذا عادنى هذا الحلم اللجوج إلا أن أطرحه طرح النواة وأن أصبح بأعلى صوتى : إن هذه إلا أضعفات أحلام ، إنى راقد فى سريرى أبتغى النوم . . ولكن تأتى الليلة التالية ، فإذا أنا جالس فى دكان الطرزى مرة أخرى .

« وهكذا دام الأمر سنوات فى اطراد يشيع العجب . ثم حدث مرة أننا كنا - معلمى وأنا - نعمل فى بيت ألبهوفر (وهو الفلاح الذى اشتغلت فى داره حين عملت أجيراً للمرة الأولى) ، وأبدى معلمى استياء من عملى فوق استياءه المألوف ، فقال لى : أريد أن أعلم أين رأسك ! ، ثم نظر إلى نظرة مغبرة . وفكرت فى أن أصوب ما أستطيع صنعه هو أن أنهض واقفاً وأن أعلنه أنني لا أمكث معه إلا توتخياً لمرضاته ثم أبرح . ولكننى لم أصنع شيئاً من ذلك . ولا أنا أبديت أقل اعتراض حين أخذ معلمى أجيراً آخر وأمرنى أن أترك له مقعدى ، بل انزويت فى الركن وأخذت أخيط . وفى هذا اليوم عينه ألقى المعلم بالعمل أجيراً آخر ، رجلاً ذا ورع زائف ، هو العجربى الذى عمل فى محلنا منذ تسعة عشرة عاماً ثم وقع مرة فى النهر وهو راجع من المنزل . فلما أجال الأجير الحديد بصره يلمس مقعداً لم يكن فى المكان محل . ونظرت إلى معلمى أسأل فقال لى : إنك لا تصلح للخياطة ، لك أن ترحل ، أنت مطرود . - وعندئذ أحسبت ذعراً طاغياً حتى أنى هببت مستيقظاً .

« كان ضوء المصباح الرمادى يلمع من خلال الستائر المسدلة نافذاً إلى غرفى الأليفة ، وكانت روائع الفن تحف بى : ها هم أولاء فى صوان كتبى الأنيق هومير الخالد ودانته العملاق وشكسبير المنقطع النظير وجوته الماجد ، الخالدون العظام جميعهم . وفى الحجره المجاورة ترن أصوات جليلة طرية ، أصوات أبنائى الصغار وهم يستيقظون وبمازحون أهمهم . لكأنى اكتشفت من جديد هذه الحياة الحلوة كعيش الرعاة ، الوادعة ، الشاعرة ، الروحية ، التى عرفت فيها السعادة الإنسانية التأميلية وذقتها ذوقاً عميقاً . ومع هذا ، كان يغضبى أنى لم أسبق معلمى فأتركه مختاراً ، بل شيعت مطروداً .

« ثم كم كان دهشى بعد ذلك : فمذ الليلة التي طردنى فيها معلمى وأنا أنعم بالسلام ، لم أعد أحلم بأيام الطرزى المستكنة من ورائى فى الماضى السحيق ، تلك الأيام التي كانت - والحق يقال - أياماً هائلة فى خلوها من كل اقتضاء ولكنها ظلت تنشر فوق مستأنف سنوائى كل هذا الظل القائم الممدود . »

إن من الصعب أن نتبين أين تحقيق الرغبة فى هذه السلسلة من الأحلام التي أتاها مؤلف كان فى صباه طرزياً أجيئاً . فكل سعادة الحالم كائنة فى حياته التي يحياها بالنهار فى حين يصير الحلم على ملاحظته بشبح حياته الشقية التي لم يخرج منها إلا بشق النفس . ولكن أحلاماً لى تماثل هذه فى النوع قد مكنتنى من ألقى بعض الضوء على هذا الموضوع . ذلك أنى عملت زمناً طويلاً - وأنا طبيب شاب - فى معهد كيميائى دون أن أبرز يوماً بموهبة من الموهبات التي يقتضياها هذا العلم . ولهذا كنت دائماً فى حياتى المستيقظة أصدف عن التفكير فى هذه الفترة العقيمة والمذلة بحق فى تاريخ تعلمى . بيد أنى - من جهة أخرى - كنت أحلم مراراً بأنى أعمل فى المعمل وأقوم بالتحليلات وأجرى مختلف التجارب . هذه الأحلام أحلام مستكرهة على نحو ما كانت أحلام الامتحان ثم هى لا تجيء متميزة أبداً . وكنت أفسر أحدها حين جذبت انتباهى كلمة " تحليل " التي أعطتنى المفتاح إلى فهمها . فمذ هاته الأيام صرت « محملاً » وإنى لأقوم اليوم بتحليلات تلقى تقديراً رفيعاً وإن تكن يقيناً تحليلات نفسية . وهكذا فهمت السر : إذا كنت أستشعر الفخر فى حياتى النهارية لأننى أنوم بتحليلات من هذا القبيل وأحس نزوعاً إلى أن أباهى نفسى بمدى ما صرت إليه من النجاح ، فإن أحلامى تذكرنى فى أثناء الليل بهاته التحليلات الأخرى المحففة ، الحالية من كل وجه يدعو إلى الافتخار ؛ إنها أحلام عقاب تنزل بحديث النعمة مثل أحلام الطرزى الأجيئ الذى صار مؤلفاً ذائع الصيب . ولكن كيف يتسنى لحلم وسط هذا الصراع بين غرور حديث النعمة وبين نقده لنفسه أن ينحاز إلى جانب هذا النقد وأن يختار لحتواه تحذيراً معقولاً بدل التحقيق غير المشروع لرغبة من الرغبات ؟ لقد ذكرت من قبل أن الإجابة عن هذا السؤال تثير صعوبات شتى ولكننا نستطيع أن نستنتج أن أساس الحلم كان فى أول الأمر تخيلاً طامحاً ، مغرقاً فى الطموح ، ثم نفذت إلى الحلم بدل ذلك أفكار مذلة جاءت فألقت ماء بارداً على هذا التخييل . فلا ننسى أن بالنفس دوافع ماسوشية قد تكون هى السبب فى مثل هذا القلب . ولست

أرى ما يمنع دون تمييز هذه الأحلام من أحلام "تحقيق الرغبة" تحت عنوان "أحلام العقاب"؛ فإ كنت لأرتأى في هذه التفرقة قيداً يحد نظرية الحلم التي لم أزل أعرضها، بل هي تنازل لفظي محض تجاه وجهة النظر التي ترى في اجتماع الأضداد شيئاً عجبياً^(١). ثم إن إمعان النظر في بعض الأحلام التي من هذه الطبقة يلقي الضوء على شيء آخر. فقد جاء في هامش أحد أحلامي عن المعمل جزء غير متميز بدوت فيه وأنا في هاته السن التي عرفت فيها على التحقيق أظلم سنوات حياتي الطيبة وأقلها حظاً من النجاح: كنت لا أزال بغير وظيفة، لا أعرف كيف أرتزق. ولكن تكشف لي فجأة أنني كنت إذ ذاك لا أزال أملك الخيار بين أكثر من امرأة أستطيع الزواج بها! أي أنني كنت شاباً من جديد ثم - قبل كل شيء - كانت أيضاً شابة من جديد الزوجة التي شاركتني كل هاته السنوات الصعاب. وهكذا تجلى أن الباعث اللاشعوري على الحلم كان رغبة من هذه الرغبات التي لا يني عن أن يتلظى بها قلب الرجل الذي تتقدم به السن. فالصراع الناشب في طبقات أخرى من النفس بين غرور الإنسان ونقده نفسه هو الذي حدد محتوى الحلم، هذا صحيح. ولكن الرغبة في الشباب - هذه الرغبة الأعمق جذوراً - هي وحدها التي مكنت لهذا الصراع سبل الظهور في صورة الحلم. وإنا - بين الحين والحين - لنحدث أنفسنا قائلين: "كل شيء اليوم على أحسن ما يكون، وزمان الصعاب قد انقضى، ومع هذا كم كانت جميلة تلك الأيام، كنت لم تنزل شاباً فنياً." ووقعت لي طائفة أخرى من الأحلام عرفت فيها طابع النفاق^(٢)، يدور محتواها حول مصالحة أناس انقطعت أسباب الصداقة بين الحلم وبينهم منذ زمن بعيد: في مثل هذه الحالات يكشف التحليل عادة عن دافع يحث المرء على أن يطرح البقية الباقية مما يكنته من الرعاية لهؤلاء الأصدقاء القدماء وعلى معاملتهم معاملة الغرباء والأعداء. ولكن الحلم يؤثر إلا أن يصور العلاقة المضادة.

ومن الحكمة حين نكون رأياً يتصل بأحلام رواها كاتب مبدع أن نفترض أنه

(١) منذ قسم التحليل النفسي الشخصية إلى أنا وأنا أعلى (فرويد ١٩١٢ ج [وأيضاً ١٩٢٣ ب]) صار من البهل أن نعرف أن أحلام العقاب هذه تحقق رغبات الأنا الأعلى.

(١) [أضيفت هذه الفقرة عام ١٩١٩، والظاهر أنها أضيفت في غير موضعها؛ وربما كان موضعها الصحيح بعد الفقرتين التاليتين. ومن المؤكد أن فرويد يشير هنا إلى حلم يتصل بفائس بعد أن انقطعت أسباب الصداقة بينهما.]

قد حذف في خلال روايته تفاصيل من محتوى الحلم لاحتمال له غير جوهرية أو قد تبدد الانتباه ، وفي هذه الحالة تثير أحلامه مشكلات قد كان يسهل حلها لو أنه أورد محتواها كاملا .

وقد نهى أوتورانك إلى أن قصة جريم عن الطرزي الصغير الجسور أو " سبعة في ضربة واحدة " قد حوت حلماً مماثلاً كل المماثلة يأتيه حديث نعمة : ففيها نرى الطرزي الذي أصبح بطلاً وصهراً للملك يحلم ذات ليلة بحرفته القديمة وزوجه الأميرة راقدة إلى جواره . وترتاب هذه في الأمر فتأتي بحراس مدججين توقفهم لكي يسترقوا السمع في الليلة التالية ويلقوا القبض عليه . ولكن الطرزي الصغير يجد من يحذره فيعرف بعد ذلك كيف يصحح حلمه .

إن العمليات المعقدة التي تحول بواسطتها الحالات الوجدانية المتضمنة في أفكار الحلم إلى تلك الظاهرة فيه - عمليات الاستبعاد والانتقاص والقلب - يمكن تأثرها على نحو مرض في مؤلفات حلمية مناسبة سبق تحليلها تحليلًا وافيًا . وسأنتخب الآن بضعة أمثلة أخرى على الحالات الوجدانية في الحلم ، أمثلة نرى فيها الإمكانات التي أحصيتها وقد تحققت .

(٥)

إذا عدنا إلى حلم المهمة العجيبة التي كلفني إياها بروكيه الشيخ - أن أُشْرَحَ حوضي [ص ٤٥١] - رأينا أنني قد افتقدت في الحلم نفسه ما كان يتلأَّم ومثل هذه المهمة

من الشعور بالفضاعة . وأضيف الآن أن ذلك كان يحقق رغبة بأكثر من معنى . فالتشريح كان يعني تحليل النفس الذي أقوم به كأنما كان ذلك من أجل نشر هذا الكتاب - وهو أمر كان يؤلني في الحقيقة حتى أنني أجلت طبع المخطوط سنة أخرى بعد الفراغ منه . وهنا انبعثت الرغبة في أن أتغلب على هذه الكراهية ؛ فلم أشعر في الحلم بفضاعة ما . ولكنني أود كذلك لو أفلت من هذه الفضاعة ["Grauen"] بالمعنى الآخر للكلمة [وهو الشيب] ؛ فقد أخذ شعري يضرب إلى المشيب ، وهذا الشيب يذكرني كذلك بأن أكف عن الإرجاء . ونحن نعلم أن هذا الخاطر : أنني قد أضطر إلى أن أترك لأبنائي تحقيق الهدف الذي لم أبلغه من رحلتي الصعبة - قد نفذ إلى التصور عند خاتمة الحلم .

دعنا الآن نبحث الحلمين اللذين نقلنا تعبير الرضا إلى اللحظة التي أعقبت اليقظة مباشرة . لقد نسب الرضا في حالة إلى ما توقعته من كشف وشيك عن معنى « قد حملت بذلك من قبل » بينما كان هذا الرضا يشير في حقيقة الأمر إلى مولد أولادى الأوائل [ص ٤٤٥] ، ونسب الرضا في الحالة الثانية إلى أن « وعدا » قد تحقق بينما كانت الإشارة الصحيحة في هذا الحلم أشبه بها في سابقه ، فلم يكن الرضا إلا هذا الذى هللت به لمولد ابني الثاني [ص ٤٤٦] . وهكذا نجد هنا أن الحالات الوجدانية المسيطرة في أفكار الحلم قد بقيت في الحلمين ، ولكن أكبر الظن أنه ما من حلم تجرى فيه الأمور على هذا النحو من البساطة . فلو أننا تعمقنا تحليل هذين الحلمين قليلا لعلمنا أن هذا الرضا الذى يفلت من الرقابة قد لقي تعزيزاً من مصدر آخر كان من شأنه أن يخشى الرقابة وما كانت الحالة الوجدانية المنبعثة منه لتلقى من غير شك سوى المعارضة ، لولا أنها استترت وراء حالة الرضا المماثلة ، المشروعة ، المستقاة من مصدر لا اعتراض عليه ، وبذا تسلت - إن جاز التعبير - تحت جناحها . ولست أستطيع لسوء الحظ أن أوضح ذلك في صدد هذين الحلمين بالذات ، ولكن ها هوذا مثال مستمد من مجال آخر يوضح معنای : دعنا نفترض الموقف الآتى : هب بين معارفى شخصاً أضمر له الكراهية بحيث أحس نزوعاً قوياً إلى الاغتياب كلما خالفت الأمور مشتهاه ، ولكن الجانب الخلقى في طبيعتي لا يفسح الطريق لمثل هذا الشعور فلا أجرؤ على أن أعرب عن رغبة في أن يعثر حظه ، وإن أصابه مكروه غير مستحق تكلفت مظاهر الأسف وأفكاره - كل إنسان قد رأى نفسه في هذا الموقف يوماً ما . والآن هب أن هذا الشخص المكروه قد جر على نفسه ضراً مستحقاً لعثرة من جانبه : إن الذى يحدث عندئذ هو أنني أطلق العنان لرضای عن كونه قد لقي عقاباً عادلاً ، وإني لأراني متفقاً في ذلك مع أناس غيرى كثيرين ، لا شبهة في إنصافهم . بيد أنني قد ألحظ أن رضای هذا يبدو أكثر شدة من رضا هؤلاء الآخرين ؛ فهو قد لقي تعزيزاً من مصدر الكراهية الذى ظل حتى ذلك الحين لا يجد سبيلاً إلى إحداث أثره الوجدانى لضغط الرقابة الداخلية ، ولكنه - وقد تغيرت الملابس - لم يعد يصادف مثل هذا الحائل . وذلك هو ما يحدث في الحياة الاجتماعية عامة كلما جانب الحق أناس مستثقلون أو أفراد متمون إلى أقلية مبغضة . فعقابهم لا يقابل في العادة جرمهم ، بل جرمهم مضافاً إليه هذا القسط من

الضعف المكنون نحوهم والذي ظل من قبل لا يحدث أثراً . ولا شك في أن من يوقعون عليهم القصاص يرتكبون في ذلك جوراً ، ولكن يحول بينهم وبين إدراك جورهم هذا الرضا الناجم عن إزاحة القمع الذي ظلوا يتكلفونه زمناً طويلاً . والحالة الوجدانية في مثل هذه الأحوال حالة لها ما يبررها من حيث الكيف ولكنها ليست كذلك من حيث مقدارها . سوى أن نقد الإنسان نفسه إذ يهدأ من ناحية لا يستشعر كبير ميل إلى مراجعة الأخرى . وما أن تفتح باباً حتى يتسع اقتحامه لعدد من الناس أكبر ممن كنت تنتوى في البدء تركهم يدخلون .

وعلى هذا النحو يجب أن نعلل سمة عجيبة في طبع العصائيين—وذلك بقدر ما تسمح هذه السمة بأى تعليل نفسى على الإطلاق— وأعنى بها أن العلل القادرة على إطلاق حالة وجدانية معينة تحدث عندهم نتيجة لها مبررها من حيث الكيف ولكنها مفرطة من حيث الكم . ذلك أن الإفراط ينجم هنا عن منابع لا شعورية ، بقيت مقموعة حتى ذلك الحين ، ولكنها أفلحت في أن تجد روابط استدعائية تصل ما بينها وبين المناسبة المدركة في الواقع ، وبذلك فتح هذا المصدر الأخير المشروع الذى لا غبار عليه سبيل الانطلاق أمام الحالات الوجدانية المرتبطة بهاته المنابع . وفى ذلك ما ينبئنا إلى أننا حين ندرس العلاقة بين العاملين القامع والمقموع يجب ألا ننظر إلى هذه العلاقة كما لو كانت علاقة كف متبادل وحسب ، بل يجب أن نوجه قسماً مساوياً من انتباهنا إلى الحالات التى يجتمع فيها كلا العاملين على إحداث نتيجة مَرَضِيَّة بأن يعملوا جنباً إلى جنب وبأن يعزز كل منهما الآخر . ولنستخدم الآن هذه الملاحظات العابرة حول ميكانيكيات الحياة النفسية في فهم التعبيرات الوجدانية في الحلم : إذا عرضت في الحلم حالة من الرضا وأمكن بالطبع أن نكشف على الفور عن مكانها بين أفكار الحلم ، فهذا الكشف وحده لا يغنى دائماً في تعليل هذه الحالة تعليلاً تاماً ، بل القاعدة هى أن يستلزم تعليلها التام البحث عن مصدر آخر لها ، واقع تحت ضغط الرقابة — مصدر كان من شأنه وهو تحت هذا الضغط ألا يجلب الرضا بل ضده ، لولا أن مجيء المصدر الحلمى الأول قد أتاح له الإفلات بالحالة الوجدانية الناجمة عن إرضائه من وطأة الكبت وأتاح له تركها تنطلق باعتبارها معزراً لحالة الرضا المنبعثة من المصدر الأول . وبذا يتبين أن الحالات الوجدانية في الحلم ترد من عدة من المنابع المتلاقية وأنها كثيرة الحتم من حيث علاقتها بمادة أفكار

الحلم : في خلال عمل الحلم تجتمع على إحداث حالة وجدانية معينة جميع المصادر القادرة على توليد هذه الحالة (١).

إننا نستطيع أن ننفذ ببصرنا قليلا في هذه العلاقات المعقدة ، إذا حللنا هذا النموذج الحلمى البديع الذى كونت كلمتا "Non vixit" منطقتة الرئيسة [ص ٤٢١ وما بعدها] . فقد اجتمعت في موضعين من المحتوى الظاهر لهذا الحلم تعبيرات وجدانية مختلفة الكيف . ففي الموضوع الذى أعدمت فيه صديقى وخصمى بهاتين الكلمتين تراكت في نفسى مشاعر من العداة والألم جميعاً (" وليتني انفعالات غريبة " - تلك كانت كلمات الحلم) . ثم عند نهاية الحلم يتولانى فرح عظيم وأذهب إلى تأييد تلك الإمكانية التى أعلم في الحياة المستيقظة بطلانها : أن يكون ثمت عائدون يسهل محوهم برغبة ليس غير .

غير أننى لم أرو بعد مناسبة الحلم . وهى مع ذلك ذات أهمية جوهرية وتذهب بنا شوطاً بعيداً في فهم الحلم : فقد كنت سمعت أن صديقى الذى يقطن برلين (والذى أشرت إليه بحرف ف . [أى فليس] كان مقبلا على عملية جراحية وأن أحد أقاربه القاطنين بشيينا سوف يحمل إلى ما يجد من أنباء حالته الصحية . وكانت الأنباء الأولى بعد العملية غير مطمئنة ، فثار قلتي . وكنت أفضل لو أمكننى الذهاب إليه بنفسى ، ولكننى كنت في ذلك الوقت بالذات فريسة لشكاة موجهة صارت معها كل حركة تصدر عنى عذاباً على . وإنى أعلم الآن من أفكار الحلم أنى كنت خائفاً على حياة صديقى ! فقد ماتت أخته التى لم أعرفها قط وهى - على ما علمت - في باكورة الشباب ، بعد مرض قصير جداً (في الحلم : يتحدث ف . عن أخته ويقول : إنها ماتت في خمس وأربعين دقيقة) ولا بد أننى تخيلت أن بنية صديقى لا تزيد كثيراً من حيث قدرة الاحتمال على بنية أخته وأن الأنباء قد تسوء كثيراً فأضطر في النهاية إلى السفر وأصل متأخراً ويكون ذلك شيئاً لا أكف مدى الحياة عن مؤاخذه نفسى عليه (٢) . ولقد صارت هذه المؤاخذه على التأخر في الوصول هى النقطة الرئيسة في الحلم ، إلا أنها صورت بوساطة المشهد الذى

(١) وعلى هذا النحو عللت الأثر اللاذ الخارق القوة الذى تحدثه النكات المفرضة [فرويد ١٩٠٥ ج ،

في نهاية الفصل الرابع .]

(٢) إن هذا التخيل الذى كان يكون جزءاً من أفكار الحلم اللاشعورية هو الذى كان يتطلب وضع

"non vixit" بدل "non vixit" [" غير حى " بدل " لم يحى "] : " لقد جئت متأخراً ، إنه الآن غير حى . " وسبق أن وضحت في صفحة ٤٢٤ أن محتوى الحلم الظاهر كان يتطلب أيضا "non vixit" .

رأيتني فيه طالباً ورأيت أستاذي المبجل بروكه يصوب إلى اللوم بنظرة مروعة من عينيه الزرقاوين - ولن نلبث طويلاً دون أن نرى ما الذي عرج بالموقف [المتخيل بإزاء فليس] هذا التعرّيج . ولم يكن من المستطاع أن يستحضر الحلم المشهد [الذي وقع مع بروكه] على الصورة التي عشته فيها ، فكان أن تركت العينين الزرقاوين للوجه الآخر [ب .] ولكن الإعدام وكل إلى - وهو قلب لا يخفى أنه قد جاء بفعل تحقيق الرغبة . فقلقي على صحة صديقي ومؤاخذتي نفسي على كونى لا أذهب إليه ونجلى من جراء ذلك - جاء إلى فيينا (ليراني) خلسة - ثم الحاجة إلى أن ينفع مرضى في عذرى ، كل أولئك قد اجتمع على إحداث الزوبعة الانفعالية التي استشعرتها بجلاء في خلال النوم والتي كانت تعصف في هذه المنطقة من أفكار الحلم .

ولكن مناسبة الحلم قد تضمنت شيئاً آخر كان له في نفسي أثر مخالف كل المخالفة . فالأخبار غير المطمئنة التي تلقيتها في الأيام القليلة الأولى بعد العملية قد جاءت يصحبها تحذير من أن أحدث أهدأ بشيء من هذا كله . ولقد ساورنى هذا التحذير لأنه كان يتم عن ارتياب في أمانتى على السر لا داعى إليه . صحيح أنى كنت أعلم أن هذه التوصية لم تصدر عن صديقي بل مرجعها خلو الشخص الوسيط من الباقاة أو زيادة في قلقه ، ومع هذا فقد آلمنى هذا اللوم المقنع ؛ لأنه لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات ، فلا تثير نائرة المرء - على ما نعلم جميعاً - إلا الملامة التي تصيب منه " مطعناً " . وأنا إذ أقول ذلك لا ألمح - والحق يقال - إلى واقعة جرت مع هذا الصديق ، بل إلى بادرة بدرت منى وأنا أصغر كثيراً في السن : فقد كان لى إذ ذاك صديقان ، كان كلاهما قد شرفنى بهذا الاسم ، فأخبرت أحدهما من غير داع بماقاله الآخر عنه . وكان اللوم الذي سمعته إذ ذاك لم يزل عالقاً كذلك بذاكرتى . وكان أحد هذين الصديقين هو أستاذى فلايشل ، وأستطيع أن أدعو الآخر باسمه الأول يوسف - وهو أيضاً الاسم الأول لصديقي وغريمى في الحلم : ب .

هذه المؤاخذة على عجزى عن أن أكتم شيئاً في نفسي يشهد عليها في الحلم العنصر خلسة وسؤال ف . عن مدى ما أفضيت به من شؤونه إلى ب . وإن تدخل هذه الذكرى هو الذى عرج باللوم على التأخر في الوصول من الوقت الحاضر إلى ذاك الوقت الذى

كنت أعمل أثناءه في معمل بروكه^(١) ، كما أنني إذ أحول الشخص الثاني في مشهد الإعدام إلى يوسف لا أجعل هذا المشهد يصور مؤاخذتي على التأخر في الوصول وحسب ، بل أجعله يصور كذلك ذاك اللوم المنكبت بكبت أشد كثيراً على أنني لا أكمّ سراً . وهنا يبرز للعيان ما يقوم به الحلم من عمل التكثيف والنقل ، كما تبرز دوافعهما .

ثم إن غضبي الحاضر - وهو طفيف - لما حذرت به من ألا أفضي بشيء [عن مرض صديقي فليس] يلقي أمداداً تجيئه من أعماق النفس ، وبذا يتضخم حتى يصير تياراً من المشاعر العدائية نحو أشخاص أكن لهم في الواقع كل حب . والمنبع الذي ترد منه هذه الأمداد هو الطفولة . فقد ذكرت من قبل [ص ٤٢٤ و ٤٢٥] كيف ترجع كل مشاعري المحتومة نحو معاصري ، بالصدقة وبالعداوة ، إلى علاقتي في زمن الطفولة بآبن أخ كان يكبرني بعام واحد ، كيف كان هذا القريب يفوقني وكيف تعلمت الذود عن نفسي تجاهه منذ زمن مبكر ، كيف كنا صديقين لا نفرق وكنا - وإنا كذلك - نتشاجر ويشكو كلانا الآخر ، على ما يرويه الأكبرون . إن جميع أصدقائي هم بمعنى من المعاني تقمصات لهذا الوجه الذي "تكشف منذ باكورة الزمن لنظرتي المضطربة"^(٢) ، إنهم جميعاً عائدون [Revenants] . وقربي نفسه قد عاد إلى الظهور في صباي ، فلما عاد لعبنا سوياً قيصر وبروتوس ، وظل مطلباً لا تستغنى عنه حياتي الانفعالية أن يكون لي صديق حميم وعدو مقيت . وكان يسغى دائماً أن أزود نفسي بكلهما المرة بعد المرة . ولم يكن من النادر أن يتكرر النموذج الطفلي بمخاديفه حتى ليجتمع في الشخص الواحد العدو والصديق - وإن لم يجتمعا بالطبع في آن معاً أو في ذبذبة دائمة كما كان العهد في الطفولة الأولى .

(١) [لا بد للقارئ - لكي يتمكن من متابعة فرويد هنا وفي الصفحات القادمة - من الإلمام ببعض حقائق حياته : كان فرويد بين عامي ١٨٧٦ و ١٨٨٢ يعمل في المعهد الفيزيولوجي . وكان يرأس المعهد بروكه (١٨١٩ - ١٨٩٢) يعاونه إرنست فلايشل فون ماركسوف (١٨٤٦ - ١٨٩١) وسيجموند إكستر (١٨٤٦ - ١٩٢٥) وكلاهما يكبر فرويد بعشر سنوات . ولقد مات فلايشل بعد مرض شديد نزل به في السنوات الأخيرة من حياته . وفي هذا المعهد أيضاً التقى فرويد بيوسف بروير (١٨٤٢ - ١٨٢٥) . وكان بروير يكبر فرويد كثيراً في السن وفي الجاه ، كما كان له أثر معروف في نشأة التحليل النفسي عند فرويد ، فقد تحدث به فرويد في كثير من المواضع . وهو ثاني اليوسفين في هذا التحليل ، هذا الذي أوقع فرويد بينه وبين فلايشل . فأما يوسف الأول الذي يظهر في الحلم "صديق وغريمي پ . " فهو يوسف پانيت (١٨٥٧ - ١٨٩٠) الذي خلف فرويد في منصبه بالمعهد .]

(٢) [جوته ، فاوست ، الإهداء ، السطر الثاني .]

ولست أرى أن أبحث في هذا الموضوع كيف يقع في مثل هذه الملابسات أن تترد مناسبة حديثة لإحدى الحالات الوجدانية إلى موقف قديم ثم يحل هذا الموقف القديم محلها فيما يتعلق بإحداث هذا الوجدان . فهذه المسألة جزء من سيكولوجية اللاشعور ، ولقد كانت تجد مكانها المناسب بين إيضاح سيكولوجي للأعصاب . دعنا نفترض - لأجل ما نستهدفه من تفسير الحلم - أن إحدى ذكريات الطفولة قد انبعثت أو أن الخيلة قد ركبتها ، وأن محتواها كان شيئاً شبيهاً بما يأتي : يتنازع الطفلان شيئاً ما (ونستطيع أن نترك جانباً السؤال عما هو هذا الشيء وإن كانت الذكرى أو الذكرى المكتوبة تلمح إلى شيء محدد تمام التحديد) ويدعى كلا الطفلين أنه كان الأسبق وأنه بناء على ذلك صاحب الحق الأول ، ثم تجيء اللكمات وتظفي القوة على الحق - وإذا صدقت إشارات الحلم فقد كنت أعلم حق العلم أني كنت على خطأ (ألحظ خطأي) بيد أنني أقوى الطرفين في هذه المرة ، فأظل سيداً على الميدان ، ويسرع الجانب المهزوم إلى جده - وهو والدي - ويشكوني إليه ، فأدافع عن نفسي بالكلمات التي أعلمها من رواية أبي : ضربته ؛ لأنه ضربني . إن هذه الذكرى أو - على الأرجح - هذا التخيل الذي يرد على خاطري وأنا أحلل الحلم - دون مزيد من الإيضاح ، لا أدري أنا نفسي كيف - هو الذي يكون الجزء الرئيس بين أفكار الحلم ، الجزء الذي يجمع ما يشتعل بين هذه الأفكار من الانفعالات ، كما تجمع البئر الماء الذي يصب فيها . ومن هذه النقطة تنساب أفكار الحلم على النهج الذي يلي : لا تلومن لأنفسك إذا اضطرت إلى أن تخلي الطريق أمامي ، ما الذي دفعك إلى أن تحاول إزاحتي من الطريق ؟ إنني لست بحاجة إليك وإنه لأمر هين أن أجد شخصاً آخر سواك يلعب معي بدلاً منك ، إلخ . ثم بعد ذلك تسير هذه الأفكار في المسارات التي تؤدي بها إلى التصور في الحلم . فقد دعنتني الأسباب في يوم من الأيام إلى أن ألوم صديقي يوسف [ب .] على مثل هذا المسلك ، مسلك : ” قم وأنا أقعد مكانك (١) ” . فهو قد جاء عقبي مدرباً في معمل بروكه . وكانت الترقية هناك بطيئة عسيرة ، فما كانت بمعاوفي بروكه كليهما أقل رغبة في أن يتزحزا من مكانهما ، بينما صبر الشباب نافذ . فكان صديقي الذي لم يكن يجهد أن أيامه معدودات ولم تكن تربط بينه وبين رئيسه

(١) [“ôte-toi que je m’y mette”]

المباشر أو اصر وثيقة - كان يعرب أحياناً عن نفاذ صبره إعراباً صريحاً . وإذ كان رئيسه هذا [فلا يشل] مصاباً بمرض خطير فقد أمكن رغبة ب . أن تحتل معنى أقبح من مجرد الأمل في الترقية . وقد كان أمراً طبعياً أننى - قبل ذلك بسنوات - كنت قد أضمرت رغبة كانت أكثر بعد احتداماً في ملء مكان شاغر ؛ فأينما وجدت الدرجة والترقية في هذه الدنيا ، انفتحت الطريق أمام رغبات تتطلب القمع : أما عجز الأمير الشاكسبيرى هال عن أن يقاوم ما أغرته به النفس - وهو ما زال يجوار أبيه الراقد على فراش مرضه - من أن يجرب التاج لكى يرى بعينه كيف يلوح فوق رأسه ؟^(١) ولكن الحلم - كما نتوقع - لا يعاقبى أنا على هذه الرغبة الخبيثة ، بل يعاقب صديقى^(٢) .

” كان طموحاً ، فقتلته “ . لم يستطع أن يتمهل حتى يخلى الآخر مكانه ، فأزيع هو نفسه . تلك كانت الخواطر التى دارت بخلدى بعد أن حضرت رفع الستار عن النصب التذكارى المقام فى الجامعة - لشخص آخر وليس له . وعلى ذلك كان بعض الرضا الذى استشعرته فى الحلم يعنى : جزاء عادل ، لا تلومن إلا نفسك .

ولقد حدث فى جنازة صديقى [ب .] أن أحد الشبان أتى بملاحظة لم تكن تناسب المقام ، كان مؤداها أن الطيب الذى ألقى كلمة الرثاء قد تحدث كما لو كانت الدنيا مقبلة على نهايتها بعد أن فقدت هذا الرجل الفرد . نعم ، إن هذه الملاحظة كانت تعرب عن الرفض الذى يعتمل فى صدر رجل صادق أزعجت المبالغة حزنه ، إلا أنها اجتذبت إليها أفكار الحلم الآتية : نعم ، إن لمن الحق أنه ما من أحد لا يعوض ؛ فما أكثر من شيعت إلى القبر ، ومع هذا لم أزل حيا ، لقد عشت دونهم جميعاً وبقيت سيداً على الميدان . وإن فكرة من هذا القبيل فى اللحظة التى كنت أخشى فيها ألا أجد صديقى بين الأحياء حين أسافر إليه لا يمكن أن تقبل تفسيراً آخر سوى أننى كنت مسروراً لأننى سأثبت على البقاء مرة أخرى بعد شخص سوى ، لأنه هو الميت وليس إياى ، لأننى سيد الميدان من جديد - كما كنته فى المشهد المتخيل عن طفولتى . هذا الرضا الطفلى فى مصدره لبقائى سيداً على الميدان هو الذى يكون الجزء الأكبر من الحالة الوجدانية التى ظهرت فى الحلم : إنى أستشعر السرور لأننى باق حين يولى غيرى ، وأعرب عن هذا

(١) [هنرى الرابع ، الفصل الرابع ، المشهد الخامس .]

(٢) يلاحظ القارئ أن اسم يوسف يقوم بنصيب كبير فى أحلامى . ذلك أن من السهل على أنانى أن

يخفى وراء هذا الاسم ؛ لأن يوسف كان أيضاً اسم مفسر الأحلام المعروف فى التوراة .

السرور بكل الأنانية الساذجة التي تتكشف في قصة الزوجين اللذين يقول أحدهما للآخر :
إذا مات أحدنا فسأذهب إلى باريس . إلى هذا المدى كان يبدو لي أمراً بديهاً أن
المات لن يكون إياي .

إننا لا نستطيع أن ننكر أن تفسير الأحلام وروايتها عمل يتطلب ضبطاً شاقاً
لنفس ؛ فالمرء لا يجد مناصاً من أن يتكشف في صورة الوغد الأوحده وسط
موكب الطبايع النبيلة ممن يشاطرونه الحياة . وهكذا بدا لي أمراً طبعياً جداً أن
العائدين إنما يوجدون بقدر ما يود لهم المرء البقاء ، فإن شاء انمحوا . ولقد رأينا علام
كان عقاب صديقي يوسف . غير أن العائدين هم التجسيدات المتعاقبة لصديقي طفولتي .
وأنا إذن أستشعر الرضا . كذلك لأنني استعطت دائماً أن أجد بدائل لهذا الوجه ولأنني لن
ألبث طويلاً قبل أن أعثر على بديل لهذا الصديق [فليسي] الذي كنت أشك على
فقدته : ما من أحد لا يعوض

ولكن ماذا عن الرقابة ؟ لماذا لم تثر أقوى المعارضة في وجه خواطر تتسم بمثل هذه
الأثرة الوحشية فتقلب الرضا المرتبط بهذه الأفكار إلى ألم شديد ؟ السر فيما أعتقد هو أن
أفكاراً أخرى لا اعتراض عليها ، متعلقة بهؤلاء الأشخاص أنفسهم ، قد لقيت في ذات
الوقت ما يرضيها ، فكان أن حجبت الحالة الوجدانية المقترنة بها تلك المنبعثة من المصدر
الطفلي . ذلك أنني عند الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكارى قد حدثت نفسى
في طبقة أخرى من الفكر بتلك التأملات : لكم فقدت من الأصدقاء الأعزاء ، أفقدنى
الموت البعض والبعض الآخر أفقدنى إياه ما انفصم من عرى الصداقة ، لقد كان من
حسن الحظ أنني وجدت من يعوضنى عنهم ، أنني اكتسبت صديقاً يعنى في نفسى
الشيء الكثير ، أكثر من كل ما استطاعه الآخرون ، وذلك في زمن لا يسهل فيه على
المرء أن يعقد صداقة جديدة ، لسوف أحتفظ بصداقته أبداً الدهر . وهذا الرضى لكوفى
وجدت صديقاً يعوضنى عن الأصدقاء المضيعين لا يلاقى مانعاً يحول بينه وبين
النفوذ إلى الحلم غير محرف في شيء ، ولكن تسلت من ورائه حالة الرضا العذوانى المستمدة
من المصدر الطفلي . نعم ، إن من المستيقن أن الحنان الذى انطوت عليه علاقة الطفولة
قد أفاد في تعزيز نظيره المعاصر المشروع ، ولكن كره الطفولة أيضاً قد أفلح في أن
يشق طريقه إلى التصوير .

ثم إن الحلم قد اشتمل - فوق ما سبق - على خيط فكري آخر كان من شأنه أن يسلم إلى رضا مشروع : فقد حدث منذ زمن قريب أن صديقي [فليس] أعقب بنتاً بعد طول انتظار . وكنت أعلم كيف كان حزنه على أخته المتوفاة في وقت مبكر ، فكتبت إليه أقول له : إنني واثق من أنه سوف ينقل الحب الذي يكنه لها إلى الطفلة الجديدة ، وأن الفتاة الصغيرة سوف تتيح له في النهاية نسيان فقيدته التي لا تعوض .

وهكذا ترتبط هذه الطائفة من الأفكار بدورها بالفكرة المتوسطة في محتوى الحلم الكامن [أنظر ص ٤٨١ و ٤٨٢] والتي تتشعب منها طرق التداعي في اتجاهات متضاربة : " ما من أحد لا يعوض . أنظر ، ليس إلا عائدون ، كل الذين افتقدناهم يرجعون " . ثم بعد ذلك تأتي تلك الواقعة العارضة ، وأعني بها أن ابنة صديقي قد حملت الاسم الذي كانت تحمله الفتاة الصغيرة التي اعتدت اللعب معها في طفولتي - وكانت في سني وأختاً لأول عدو وصديقي - تأتي هذه الواقعة فتحكم الروابط الاستدعائية بين المقومات المتناقضة لأفكار الحلم . فقد كنت شعرت بالرضا حين سمعت أن المولودة سوف تدعى « بولين » ، وعلى سبيل الإشارة إلى هذا الانفاق وضعت أحد اليوسفين محل الآخر في الحلم ، ووجدت استحالة في كتمان التماثل بين الحرفين الأولين من اسمي " فلا يشل " و " ف . " [فليس] . ومن هنا اتجهت خواطري إلى أسماء أطفالى . فقد أصرت على ألا تختار أسماءهم وفقاً لبدع اليوم الجارية ، بل تذكيراً بمن أحببت . فأسماء الأطفال قد جعلت منهم - إذن - « عائدين » . ثم في النهاية ، أليس إنجاب الأولاد هو السبيل الذي لا نملك جميعاً غيره إلى الخلود ؟

وههنا لا أجد ما أضيفه إلى موضوع الحالات الوجدانية في الحلم سوى بضعة ملاحظات تصدر عن وجهة نظر مختلفة . ذلك أن نفس النائم قد تنطوى على نزوع وجداني (ما نسميه مزاجاً) يكون هو العنصر المسيطر عليها ويكون له عندئذ نصيبه في تحميم الحلم . وقد ينشأ هذا المزاج من خبرات اليوم السابق وأفكاره وقد تكون مصادره جسمية ، وفي كلتا الحالتين يصطحب بالأفكار الملائمة له . ويستوى بعد ذلك من وجهة نظر تكوين الحلم أن يكون هذا المحتوى الذهني لأفكار الحلم هو الأصل الأول الذي حتم ذلك المزاج ، كما يقع طوراً ، أو أن يكون هذا المحتوى ذاته قد نبه على نحو ثانوي بوساطة استعداد النائم الانفعالي الراجع في النهاية إلى شروط جسمية ، كما يقع طوراً آخر ؛ ففي كلتا الحالتين

يخضع تكوين الحلم لهذا الشرط : أنه لا يستطيع أن يصور إلا ما يحقق رغبة وأنه إنما يستمد دافعه النفسى من الرغبات . فالمزاج الحاضر الناشط يعامل كما يعامل إحساس نبه وصار حاضراً ناشطاً فى أثناء النوم (ص ٢٥٣) ، أى أنه إما أن ينحى جانباً أو يلتقى تفسيراً جديداً فى الاتجاه الذى يحقق رغبة . والحالات المزاجية المؤلمة تسمى قوة تدفع إلى الحلم ، وذلك من حيث تثير رغبات قوية يفترض فى الحلم العمل على تحقيقها . ولا تنقطع صياغة المادة المرتبطة بهذه الحالات حتى يمكن استخدامها فى الإعراب عن رغبة . وكلما اشتد نصيب المزاج المؤلم فى أفكار الحلم وسيطر ، زدنا يقينا من أن أشد الرغبات قمعاً سوف تنتهز الفرصة لكى يتحقق تصويرها به ؛ لأن الألم الذى ما كانت هذه الرغبات إلا لتحدثه ضرورة قد صار موجوداً فعلاً وهى بهذا تجد الجانب الأكبر من عملها على بلوغ التصور فى الحلم وقد صار ممهّداً أمامها . وبهذه المناقشات نتطرق مرة أخرى إلى مشكلة أحلام الهيلة التى سوف يتبين أنها الحالة التى يبلغ عندها نشاط الحلم حافته .

ط

المراجعة الثانوية

وأخيراً نتجه إلى رابع العوامل المشتركة فى تكوين الحلم . إذا تابعنا دراستنا لمحتوى الحلم على النحو الذى بدأنا به ، أى بالمقارنة بين الأحداث الظاهرة فى محتوى الحلم وبين مصادرها فى أفكار الحلم ، عثرنا على عناصر يتطلب تحليلها فرضاً جديداً كل الجدة . وأنا إذ أقول ذلك أفكر فى حالات يشعر فيها المرء وهو يحلم بالعجب أو الضيق أو الاستنكار ، وكل أولئك بإزاء جزء من محتوى الحلم نفسه . إن غالبية هذه المشاعر النقدية التى تعرض فى الحلم لا تتجه فى الحقيقة - كما بينت فى عدد من الأمثلة - إلى محتوى الحلم فى ذاته ، بل يتبين أنها أجزاء من أفكار الحلم ، منها أخذت ثم استخدمت لغاية مناسبة . ولكن بعض هذه المادة لا يخضع لهذا التعليل ؛ فنحن لا نجد له مقابلاً بين مادة أفكار الحلم . ما الذى تعنيه - مثلاً - تلك الملاحظة النقدية التى يشيع ورودها فى الحلم : " ما هذا إلا حلم " ؟ إننا نجد ههنا نقداً فعلياً للحلم من قبيل ما قد أتته فى حياة اليقظة . وإن لمن الشائع ألا يكون هذا النقد سوى مقدمة إلى اليقظة ، وأشيع منه أن يجيء مسبقاً بشعور أليم تهديئ منه تلك المعرفة : أن الحالة حالة

نوم . ذلك أن فكرة ” إن هذا إلا حلم “ إنما تعرض في الحلم لذات الغرض الذى من أجله ترد فوق خشبة المسرح على شفاه هيلينا الجميلة فى أوبرا أوفنباخ [الهزلية المعروفة بهذا الاسم^(١)] : إنها ترمى إلى التهوين من شأن الحدث الذى لم يكده المرأ يفرغ من خبرته وتهيئة السبيل إلى التسامح فيما قد يعقبه ، إنها تفيد فى تسكين عامل نفسى معين حتى يتمكن من متابعة نومه ، وما كان لولا ذلك إلا لينشط نائراً ويحول دون استمرار الحلم – أو المشهد الذى فى الأوبرا . فالأهون – مهما يكن من أمر – هو المضى فى النوم والمغفرة للحلم ؛ لأنه – أولاً وأخيراً – ” حلم ليس إلا “ . فهذا الحكم النقدى المهون : ” إن هذا إلا حلم “ إنما يظهر فى الحلم – على حسب نظرتى – كلما أحست الرقابة التى لا تنام أبداً كل النوم أنها قد أخذت على غرة بحلم فتحت له أبواب الولوج فولج وفات أو أن قمعه ولم يبق أمام الرقابة سوى اللجوء إلى هذه الكلمات لكى تواجه بها ما قد أثير من الهيلة . أى أن هذه الجملة شاهد على ” بقاء البديهة “^(٢) من جانب الرقابة النفسية .

هذا المثال يزودنا – إذن – بدليل مقنع على أن كل ما يحتويه الحلم ليس مستمداً من أفكار الحلم ، بل قد يكون بعض محتوى الحلم راجعاً إلى وظيفة نفسية لا تتميز من فكرنا المستيقظ . وسؤالنا الآن هو : هل يحدث ذلك فى حالات استثنائية وحسب أم أن القاعدة هى أن يأخذ هذا العامل النفسى الذى لا يعمل فيما عدا ذلك إلا من حيث هو رقابة بنصيب فى تكوين الحلم ؟

لا مجال للتردد فى القطع بصحة الاحتمال الثانى . ما من شك فى أن العامل المراقب الذى لم نعرف أثره حتى الآن إلا فيما يدخله على الحلم من التقييد والحذف سبب كذلك فى حواش وإضافات . فأما الحواشى فميسورة معرفتها ؛ فروايتها تصطبغ بالتردد ، يقدم لها الراوى بقومه : ” كما لو “ ، ثم هى لا تتسم فى ذاتها بشدة حسية خاصة ، وتدخل دائماً فى الموضع التى تستطيع أن تعمل فيها عمل الروابط بين فقرتين فى محتوى الحلم أو فى وصل المسافة بين جزئين من الحلم . والذاكرة فى العادة أقل حفظاً لها منها للمشتقات الصادقة ، الصادرة عن مادة أفكار الحلم . فإن نسى الحلم كانت هى أول ما يخفى من أجزائه ، وأغلب ظنى أن شكوانا المألوفة من كوننا نحلم بالشئ الكثير ثم نسى

(١) [الفصل الثانى ، فى مشهد المناجاة بين هيلينا وباريس عندما يفاجئها فى نهايته مينيلوس زوج

هيلينا .]

(٢) [“esprit d’escalier”]

معظمه ترجع إلى مسارعة هذه الأفكار الرابطة إلى الاختفاء . وإذا حللنا حتماً ما تحليلاً كاملاً ، ثم عن هذه الحواشي أننا لا نجد مادة ما ترتبط بها في أفكار الحلم . ولكن البحث المستيقن يدعوني إلى الاعتقاد بأن تلك هي الحالة الأقل شيوعاً . فالقاعدة هي أن الأفكار الروابط ترجع بنا مع ذلك إلى مادة قائمة في أفكار الحلم ، ولكنها مادة لم تكن تستطيع وحدها أن تجد حقاً يؤهلها لأن تقبل في الحلم ؛ فلا هي بالهامية في ذاتها ولا هي بالكثيرة الحتم . ولا تخلق الوظيفة النفسية التي نحن الآن في صدها خلقاً جديداً إلا في حالات متطرفة - على ما يبدو . إنها - كلما أمكن ذلك - تستخدم كل ما تراه مناسباً بين مادة أفكار الحلم .

إن الشيء الذي يميز هذا الجزء من عمل الحلم وينم عنه في الوقت نفسه هو غايته . فهذه الوظيفة تسلك على النحو الذي ينسبه الشاعر الماكر إلى الفلاسفة : أي أنها تملأ ما في الحلم من الثغرات بخرق وسمال^(١) ونتيجة جهودها هي أن الحلم يفقد مظهره اللامعقول ويفقد تفكيكه ويقارب نمط الخبرة المعقولة . ولكن جهودها لا تتوج دائماً بالنجاح . فهناك أحلام قد تبدو للنظرة السطحية خالية من كل مجافاة للمنطق ، معقولة ؛ فهي تبدأ من موقف ممكن تصوره ثم تمرر بسلسلة من التغييرات المتناسقة إلى أن تنتهي به - وإن ندر ذلك - إلى خاتمة ليس فيها ما يدعو إلى العجب . فأمثال هذه الأحلام قد خضعت لمراجعة بعيدة المدى من جانب هذه الوظيفة النفسية القريبة من فكرنا المستيقظ . إنها تبدو حاصلة على بعض المعنى ، ولكن هذا المعنى بعيد غاية البعد عن مغزاها الحقيقي . ولو أننا أخذنا في تحليلها لرأينا أن تلك على التحديد هي الأحلام التي استباحت فيها المراجعة الثانوية لنفسها حرية اللعب بمادة أفكار الحلم أعظم الاستباحة ولم تبق على العلاقات القائمة في هذه المادة إلا بأقل نصيب . إنها أحلام نستطيع أن نقول عنها : إنها تجيء وقد فسدت بالفعل مرة قبل أن نأخذ نحن في إخضاعها لتفسيرنا المستيقظ . وهناك أحلام أخرى لم تصادف فيها هذه المراجعة المغرضة إلا نجاحاً جزئياً ؛ فالمعقولة تبدو غالبية عليها شوطاً ما ، ولكن الحلم يتقلب فإذا هو خال من المعنى ، مختلط ، ثم قد يعود في لاحق سياقه فيكتسى ثانياً بمظهر المعقولة . وهناك بعد أحلام أخرى تخفق فيها

(١) [إشارة إلى أبيات لهاينه استشهد بها فرويد بعد ذلك في آخر محاضرة من " محاضرات تمهيدية جديدة "

(فرويد ١٩٢٣ أ) : بقلنسواته الليلية وبأطراف من عباءة الغرفة يسد ثقب البناء الكرنف .]

المراجعة إخفاقاً كاملاً ؛ فمرانا نواجه من غير حول ركاماً لا معنى له من مادة متقطعة . ولست أريد أن أنكر إنكاراً قاطعاً أن هذه القوة الرابعة في تكوين الحلم التي سنرى سريعاً أن لنا بها معرفة قديمة - فهي في الحقيقة ، بين القوى الأربع ، الوحيدة التي لنا بها خبرة مألوفة في غير مجال الحلم - لست أريد أن أنكر أن هذه القوة تملك القدرة على أن تخلق جديداً في الحلم . سوى أن من المؤكد أنها - كالأخرى - تمارس فعلها أولاً من طريق التفضيل والاختيار بين المادة النفسية المتكونة من قبل في أفكار الحلم . وإن تمت حالة تُجَنَّبُ فيها هذه القوة إلى مدى بعيد عناء العمل على تكوين واجهة للحلم - إن جاز التعبير . تلك هي الحالة التي نرى فيها بناء أو تركيباً من هذا النوع وقد وجد من قبل بين مادة أفكار الحلم ، مهيباً للاستخدام . والبناء الذي أعنيه بقولي هذا عنصر اعتدت أن أسميه "تخيلاً" (١) ، ولعلّي أتجنب سوء الفهم إذا أشرت إلى حلم اليقظة (٢) من حيث

هو عدله في الحياة المستيقظة . إن النصيب الذي يرجع إلى هذا العنصر في حياتنا النفسية أمر لم يعرفه بعد أطباء النفس تمام المعرفة ولم يكشفوا عنه ، وإن يكن م . بنديكت قد أتى في هذا الاتجاه ببداية يبدو لي أنها تعد بالشيء الكثير . بيد أن أهمية أحلام اليقظة لم تخف على ما للفنانين من حدس لا يخيب ، وكلنا يعرف وصف دوديه لأحلام اليقظة التي كانت تراود أحد الأشخاص الثانويين في رواية «الناياب» . وتنتهي بنا دراسة الأعصاب إلى نتيجة تبعث على الدهش ، تلك هي : أن هذه التخيلات أو أحلام اليقظة هي النذر التي تسبق الأعراض الهستيرية - أو على الأقل عدداً كبيراً منها - سبقاً مباشراً ، فالأعراض الهستيرية لا ترتبط بذكريات حقيقية ، بل بتخيلات تشيد على أساس هذه الذكريات . وشيوع تخيلات اليقظة الشعورية هو ما يقرب من معرفتنا هذه الأبنية أو التراكيب ، ولكن إذا كانت تمت تخيلات شعورية من هذا النوع ، فإن تمت أيضاً عدد وفير لا شعوري ، مرغم على البقاء كذلك بسبب محتواه ولانبعائه من مادة مكتوبة .

وإن التعمق في بحث خصائص هذه التراكيب يرينا كم نحن محقون حين نطلق عليها ذات الاسم الذي نطلقه على مخلفات فكرنا الليلي ، اسم الأحلام . فهي تشارك أحلام

(١) ["Phantasie" كلمة كانت تستخدم قبل فرويد بمعنى "المخيلة" ، فلو أن فرويد تابع لغة العصر لقال : "Phantasiebildung" أي "نتاج المخيلة" . ومن وجهة نظر علم الأمراض النفسية فإن "التخييل" كان يقال بمعنى "حلم اليقظة" أي تفكير اجتراري لا موضوعية له أو لا يعرض الواقع . ولكن فرويد قد مده إلى "فكرنا الليلي" كما هو واضح من هذه الفقرة .]

الليل في عدد كبير من خصائصها ، ولعلنا لو كنا بدأنا ببحثها لكان ذلك أقصر طريق وأفضله إلى فهم أحلام الليل .

فهي كالأحلام تحقق رغبات ، وكالأحلام تنهض إلى مدى بعيد على انطباعات من خبرة الطفولة ، وكالأحلام تنتفع من تراخي الرقابة بعض التراخي . ولو فحوصنا تركيبها لرأينا كيف يمزج الهدف المرغوب الناشط في إحداثها المادة التي تدخل في بنائها ويعيد ترتيبها ويصوغها في كل جديد . فبينها وبين ذكريات الطفولة التي منها اشتقاقها علاقة كالتى بين بعض القصور ذات الطراز الباروكي في روما وبين الأناقض القديمة التي من أرصفتها وأعمدتها انتزعت المادة المستخدمة في تشييد هذه الصور المعمارية الأحدث عهداً .

فنحن في هذه " المراجعة الثانوية " التي عزوانها إلى رابع عواملنا المشتركة في تكوين الحلم نجد هذا النوع من النشاط الذى يتجلى في خلق أحلام اليقظة حراً من كل قيد يرجع إلى تأثير غريب . وقد كان يسعنا القول من غير مزيد من التعقيد : إن عاملنا الرابع هذا يسعى إلى تشكيل ما يعرض له من المواد تشكيلاً يخرج منها شيئاً شبيهاً بحلم من أحلام اليقظة . فإن كان مثل هذا الحلم قد تكون من قبل بين دائرة أفكار الحلم ، آثر هذا العامل الرابع من عوامل عمل الحلم أن يستولى على حلم اليقظة المتكون بالفعل وحاول إدخاله في محتوى الحلم . وهناك أحلام لا تعدو أن تكون تكراراً لتخيل طراً أثناء النهار ولعله كان تخيلاً لاشعوريا ، مثال ذلك حلم الصبي الذى رأى أنه يقود عربة من عربات الحرب مع أبطال طروادة [ص ١٥٦] . وحلم « أوتو ديداسكر » [ص ٣١١] قد كان جزءه الثانى على الأقل إعادة أمينة لتخيل نهارى ، برىء في ذاته ، حول محادثة أجريها مع الأستاذ ن . بيد أنه إذ كانت الشروط التي يجب على الحلم لإرضاءها قبل أن يظهر إلى الوجود معقدة إلى المدى الذى نعرفه ، فالأكثر وقوعاً هو أن التخيل النهارى لا يكون سوى جزء من الحلم أو أن الحلم لا ينفذ إليه سوى جزء من التخيل ثم بعد ذلك يعامل التخيل بوجه عام كما يعامل أى جزء آخر من المادة الكامنة ، وإن بقى مع ذلك في أحيان كثيرة متميزاً ككل في الحلم . فكثيراً ما ترد في أحلامى أجزاء تبرز دون غيرها لما تحدثه من أثر مختلف : فهي تبدو لى أكثر سلاسة وترابطاً من سائر أجزاء الحلم ثم في الوقت عينه أسرع تقضياً . هذه أعلم أنها تخيلات لاشعورية اندست في نسيج الحلم ، ولكننى

لم أفصح في رصد تخييل من هذا القبيل . ثم إن هذا التخيلات - شأنها شأن أى مقوم آخر من مقومات الحلم - تضغط وتكثف ويطلع بعضها فوق بعض ، إلى غير ذلك . إلا أن هناك حالات متدرجة بين تلك التى تكون فيها هذه التخيلات - غير محرفة - محتوى الحلم أو على الأقل واجهته وبين الطرف التقيض حين لا تتمثل هذه التخيلات فى محتوى الحلم إلا بعنصر فرد من عناصرها أو بإشارة قصية . ومن الواضح أخيراً أن المصير الذى تنتهى إليه التخيلات المحتواة فى أفكار الحلم يتوقف كذلك على ما تشتمل عليه هذه التخيلات من مزايا توافق مقتضيات الرقابة ومقتضيات الحاجة القاهرة إلى التكثيف .

لقد كنت - وأنا أختار الأمثلة على تفسير الحلم - أتجنب حتى الساعة تلك الأحلام التى تأخذ فيها التخيلات اللاشعورية بأى نصيب يعتد به ؛ لأن إدخال هذا العنصر النفسى من شأنه أن يتطلب مناقشات طويلة فى سيكولوجية التفكير اللاشعورى . بيد أننى لا أستطيع فى هذا المقام أن أتجنب موضوع « التخيلات » كل التجنب ؛ فهى تنفذ إلى الحلم كاملة فى كثير من الأحيان ، وأكثر من ذلك أن تترك وراءها لمحات بينة نستطيع رؤيتها خلف الحلم . وعلى ذلك أضيف إلى ما سبق حلماً آخر يبدو متكوناً من تخيلين مختلفين ، متعارضين ، يتلاقيان فى قلة من المواضع ، أحدهما سطحى فى حين أن الآخرهما بمثابة تفسير للأول^(١) .

كان هذا الحلم - وهو الحلم الوحيد الذى لم أجد كبير عناية فى تدوينه - كان يجرى بوجه الإجمال على هذا النحو : يجلس الحالم - وهو شاب أعزب - فى المطعم الذى اعتاد أن يتناول فيه طعامه والذى صور فى الحلم تصويراً واقعياً . يقبل أناس كثيرون يبتغون البحث عنه ويريد أحدهم أن يلقى القبض عليه . يقول الحالم لأحد رفاقه الجالسين : سأدفع فيما بعد ، إنى راجع . ولكنهم يصيحون قائلين وبسمات السخرية تعلقو شفاههم : نحن أدرى ، هذا ما يقوله كل واحد . يصيح من ورائه أحد الضيوف قائلاً : ها هو ذا

(١) فى " طرف من تحليل حالة هستريا " (فرويد ، ١٩٠٥ هـ [الجزء الثانى]) حلت نموذجاً بديماً من حلم من هذا النوع تتركب من تخيلات طبع بعضها فوق بعض . هذا ، وقد ظلت لا أقدر نصيب التخيلات فى تكوين الحلم حق قدره طالما كنت أشتغل بتحليل أحلامى أنا أولاً - وهى أحلام تنبؤ فى العادة على مناقشات وأصرعة فكرية ولا تضم أحلام يقظة إلا فيما ندر ، بالنسبة إلى غيرها . فأما الآخرون فكثيراً ما يكون من السهل أن نثبت عندهم التماثل التام بين أحلام الليل وأحلام النهار . ومن الممكن فى أحيان كثيرة عند الهستريين أن يحل حلم محل نوبة هسترية ، وعندئذ يستطيع المرء أن يقتنع فى غير عناء بأن النذير المباشر لكلا هذين التركيبين النفسيين كان تخيلاً جاء فى صورة حلم يقظة .

واحد آخر يذهب . ويساق الحالم بعد ذلك إلى غرفة ضيقة يرى فيها شخص امرأة تحمل طفلاً ويقول أحد الذين يصحبونه : هذا هو الهر مولر . هناك مقتش من رجال الشرطة أو رجل له مثل هذه الوظيفة . إنه يقلب حزمة من البطاقات أو الأوراق وهو يردد في هذه الأثناء قوله : مولر ، مولر ، مولر . وأخيراً يسأل الرجل سؤالاً ما فيجيب الحالم بقوله : « قبلت » . ثم يستدير ليرى شخص المرأة ، فيلاحظ أن لحية كبيرة قد نبتت لها .

إن من السهل أن تفصل ههنا بين التخييلين اللذين تكون منهما هذا الحلم . فعلى السطح تخييل مداره لإلقاء القبض على الحالم ، يبدو أن الحالم قد استحدثه ، ولكن من وراء ذلك يظهر تخييل الزواج كمادة لم يغير عمل الحلم من شكلها إلا تغييراً طفيفاً ، كما برزت في وضوح خاص السمات المشتركة بين كلا التخييلين ، على نحو ما يقع في صورة من صور جالتون المركبة . فما يعد به الشاب (الذي كان إلى ذلك الحين أعزب) من العودة إلى رفاقه الجلوس والانضمام إليهم ، والشك الذي يستجيب به خلانه هؤلاء (الذين جعلتهم الخبرة أدري) ، ثم صيحة أحدهم : ها هو ذا واحد آخر يذهب (لكي يتزوج) - كل أولئك سمات يسهل أيضاً فهمها في ضوء التفسير الآخر . والأمر كذلك في « قبلت » التي أجب بها الحالم سؤال الموظف . فأما تقليب حزمة الأوراق مع تكرار ذات الاسم تكراراً مستمراً فيقابل سمة ثانوية ولكنها بينة من سمات حفلات العرس ، وأعنى بها قراءة برقيات التهئة التي تصل كلها إلى ذات العنوان حاملة اسماً واحداً . ولا شك في أن تخييل الزواج قد أحرز نصراً صريحاً على تخييل إلقاء القبض حين ظهرت العروس بشخصها في الحلم . وقد أمكنني بعد استفسار - فهذا الحلم لم أحله - أن أكتشف لم نبتت للعروس لحية في آخر الحلم : ذلك أن الحالم في اليوم الذي سبق حلمه كان يسير في الطريق مع صديق من أصدقائه ، عدو للزواج مثله ، فلفت الحالم صديقه هذا إلى حسناء حالكة الشعر مرت بهما ، فأجابه الصديق : نعم ، أو أن هؤلاء النسوة لم تنبت لهن على مر الأيام لحي كآباتهن ! وطبعي ألا يفتر هذا الحلم إلى عناصر يذهب فيها تشويه الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فمن الجائز مثلاً أن يكون قوله : « سأدفع فيما بعد » منطوياً على إشارة تویی إلى ما كان يخشاه من موقف حميه المنتظر في مسألة المهر . كما أن من الجلي أن مخاوف من كل نوع كانت تقعد هذا الحالم عن أن يسلم نفسه في بشر لتخييل الزواج ، ولقد تجسمت

إحدى هذه المخاوف - وهي مخافة أن يفقده الزواج حرته - في تحويل الأمر إلى مشهد قبض يلتقى عليه .

فإذا عدنا إلى ما كنا فيه من أن عمل الحلم يقبل طواعية على استخدام تخييل متكون من قبل بدل أن يبنى تخيلاً جديداً من مادة أفكار الحلم ، فقد يصبح في استطاعتنا أن نحل لغزاً من أكثر ألغاز الحلم إثارة للاهتمام . فقد ذكرت في صفحة ٦٤ القصة المأثورة عن موري : كيف سقطت قطعة من الخشب على قفاه وهو نائم ، فاستيقظ من حلم طويل كان شبيهاً بقصة مكتملة جرت أحداثها في أيام الثورة الفرنسية . وإذا كان هذا الحلم متسق الأجزاء - على حسب روايته - وكان كأنما جعل ليكون تفسيراً للمنبه الذي أيقظ النائم والذي لم يكن من المستطاع التنبؤ به ، فالفرض الوحيد الممكن - فيما يبدو - هو أن هذا الحلم المحكم قد أُلّف جميعه وانقضى في الفترة القصيرة الواقعة بين سقوط العارض الخشبي على فقارات موري العنقية وبين ما أعقب من استيقاظه . ولسنا نستطيع على الإطلاق أن ننسب مثل هذه السرعة إلى نشاطنا الفكرى في الحياة المستيقظة ، وعلى ذلك لا يكون مفر من أن نخلص إلى أن عمل الحلم يملك ميزة إعجال عملياتنا الفكرية إلى درجة تدعو إلى العجب .

بيد أن هذه النظرية التي لم تلبث أن لاقت ذيوماً سريعاً قد وجهت إليها اعتراضات قوية من جانب بعض الكتاب الأحدث عهداً (لولوران وإيجير وغيرهما) . فهم - من جهة - يتشككون في دقة رواية موري لحلمه ، ومن جهة أخرى يحاولون أن يبينوا أن سرعة عمليات أفكارنا المستيقظة لا تقل عنها في هذا الحلم إذا حذفنا منه المبالغات . ولقد أثارت المناقشة مسائل تتعلق بالمبدأ لا يبدو لي أننا نستطيع حلها حلاً مباشراً . بيد أنني أعترف بأن الحجج التي ساقها هؤلاء المؤلفون (مثل إيجير) على حلم المصقلة الذي رواه موري بخاصة قد تركتني دون أن تقنعني . وأفضل من جانبي أن أقترح التعليل الآتي : أهو فرض مستبعد كل الاستبعاد أن يكون حلم موري قد صور تخيلاً اخترن منذ سنوات في ذاكرته ثم نُبه - وأحرى بي أن أقول : أشير إليه - في اللحظة التي شعر فيها موري بالمنبه الذي أيقظه ؟ إذا كان الأمر كذلك اختفت كل الصعوبة التي نواجهها حين نسأل كيف أُلّف مثل هذه القصة الطويلة في الفترة الزمنية البالغة القصر التي كانت في متناول الحالم ؟ ذلك أن القصة - على حسب الفرض - كانت مؤلفة من قبل . ولو أن العارض

أصاب عنق مورى وهو مستيقظ ، لكان هناك محل لمثل ذلك الحاطر : لكأنها المقصلة !
 وأما والعارض يصيبه وهو نائم فإن عمل الحلم يبادر إلى استغلال هذا التنبيه غير المتوقع
 بما يحقق رغبة ، كأنما قد خطرت له تلك الفكرة (ومن الواجب أن يأخذ قولى هذا مأخذاً
 استعارياً محضاً) : « ها هي ذى فرصة طيبة لتحقيق تخييل مشبع بالرغبة كونه في هذا
 الوقت أو ذاك ، أثناء مطالعته . » ولا منازعة - على ما أعتقد - في أن قصة الحلم من
 النوع الذى ينزع إلى تخيله شاب تعمل في نفسه انطباعات شديدة الإثارة ، ومن ذا الذى
 لم يخفق قلبه - ودع عنك رجلاً فرنسياً ودارساً لتاريخ الحضارة - وهو يسمع قصص عهد
 الإرهاب أيام كان النبلاء رجالاً ونساء ، زهرة الشعب ، يظهرون للملأ كيف يستطيع
 الإنسان أن يذهب إلى الموت بنفس مقبلة وحين كانوا يستمسكون بتوقد قريحتهم وأناقته
 مسلكتهم حتى لحظة النداء الذى ينفذ بعده قضاءهم ؟ وأى إغراء فى أن يتصور المرء نفسه
 وسط هذا كله ، شاباً بين أولئك الشبان الذين يودع كل منهم سيدته بقبلة يطبعها على
 يدها ثم يصعد بعدها إلى المقصلة فى غير ما وجل ؟ فإن كان الطموح هو الدافع الرئيس
 إلى التخييل ، فأى إغراء فى أن يضع المرء نفسه فى موضع أحد هؤلاء الأفراد الأفاذا الذين
 كانوا بقوة أفكارهم وفصاحتهم الملتبته - ليس غير - يحكمون المدينة التى كان قلب العالم
 يخفق فيها إذ ذاك خفقا تشنجياً ، أولئك الذين قادتهم معتقداتهم إلى أن يرسلوا آلاف
 الرجال إلى حتفهم والذين كانوا يمهدون الطريق لتغيير وجه أوروبا بينا كانت رؤوسهم
 أنفسهم غير آمنة مقدراً لها أن تسقط يوماً تحت المقصلة ، كأنما المتخيل أحد الخيرونديين
 أو دانتون البطل ؟ والحق أن ذكرى مورى لحلمه قد تضمنت سمة تبدو شاهداً على أن
 تخييله كان من النوع الطموح ، وأعنى بها ما جاء من كونه « يساق إلى المقصلة وقد
 أحاط به حشد غفير » .

ثم إنه لا حاجة إلى أن يكون النائم قد مر فى خلال نومه بكل هذا التخييل المهيأ منذ
 زمن طويل ؛ بل يكفي أن يقف الأمر عند حد « لسه » . والذى أعنيه هو هذا : إذا
 عُرِفَت الأقدار الأولى من مقطوعة موسيقية ثم عقب البعض - كما فى « دون جوان » -
 قائلاً : هذا النغم من « زواج فيجارو » لموزار ، كان ذلك كافياً لأن يحرك دفعة واحدة
 عدداً من الذكريات ما كانت تستطيع إحداها أن تلج الشعور منفردة فى اللحظة الأولى .
 فالنغم المفتاح كان بمثابة منفذ يفسح فإذا التنبيه يشمل الكل فى آن معاً . ويكفى أن

تكون الحال كذلك فيما يتصل بتفكيرنا اللاشعوري : يأتي المنبه فيثير المنفذ النفسى الذى منه ينفسح الطريق لتخييل المقصلة كله ، ولكن النائم لا يذرع هذا التخيل جميعه فى خلال نومه وإنما فى ذاكرته بعد أن يستيقظ . فهو بعد أن يستيقظ يذكر كل تفاصيل هذا التخيل الذى أثير من حيث هو كل . وفى مقدورنا أن نطبق هذا التعليل ذاته - وأعنى به أن المسألة مسألة تخييل معد من قبل تم إثارته بوساطة المنبه - على غير ذلك من الأحلام التى تتبلور حول منبه مثير ، مثل حلم الموقعة الذى أتاه نابليون قبيل انفجار اللغم [ص ٢٥١ و ص ٦٤] . وإن بين الأحلام التى جمعها جوستين توبوفولسكا فى رسالتها عن الديمومة الظاهرة للزمن فى الأحلام - حتماً يبدو لى أشد أحلام المجموعة دلالة ، هو هذا الذى رواه ماكاريزو (١٨٥٧) عن مؤلف مسرحى يدعى كازيمير بونجور (١) فقد حدث ذات مساء أن رغب بونجور فى حضور العرض الأول لإحدى مسرحياته ، غير أنه كان مجهداً حتى أن النعاس أطبق جفنيه وهو جالس خلف المشاهد بينما كان يرفع الستار ، فإذا هو - فى خلال نومه - يرى فصول الرواية الخمس جميعاً ويلاحظ ما بيديه جمهور المتفرجين فى خلال المواقف المتتالية من مختلف أمارات الانفعال . وانتهى العرض وامتلأت نفسه سروراً إذ سمع الجمهور يتصايح باسمه مصحوباً بأشد التصفيق . عندئذ استيقظ فجأة فلم يكذب يصدق من نفسه عيناً ولا أذناً ؛ فما جاوز العرض السطور الأولى من المشهد الأول ولا طال نومه بحال من الأحوال عن الدقيقتين . ومن المؤكد أننا لا نركب شططاً إذ نفترض فى حالة هذا الحلم أن مرور الحلم بالفصول الخمسة للرواية وملاحظته استجابة الجمهور لمختلف مواقفها لم يصدرا بالضرورة عن خلق جديد لكل هذه المادة ، بل لعلهما إنما استعدا أثراً سبق أن أتمه النشاط التخيلي بالمعنى الذى بينت . وإن توبوفولسكا لتؤكد - شأن غيرها من الكتاب - أن الأحلام التى تنقضى فيها الأفكار انقضاء معجلاً تحمل تلك الخاصة المشتركة ، وهى أنها تبدو فريدة فى اتساقها ، مخالفة فى ذلك سائر الأحلام كل المخالفة ، وأن ذكراها تكون موجزة أكثر منها مفصلة . ولكن تلك على التحقيق هى الخاصة التى يجب أن تكون لأمثال هذه التخيلات المعدة من قبل التى لمسها عمل الحلم - وهى نتيجة قصر عن استنباطها سائر المؤلفين . غير أننى لا أؤكد مع ذلك أن كل حلم يجيئ عقب منبه موقظ يقبل هذا التعليل ، ولا أننا

نتخلص جملة بهذه الطريقة من مشكلة انقضاء الأفكار في الحلم انقضاء معجلاً .

وهنا يستحيل علينا أن نتجنب النظر في العلاقة بين هذه المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم وبين سائر عوامل عمل الحلم . أنفترض أن الذى يقع هو أن العوامل المشتركة في تكوين الحلم - وأعنى بها النزوع إلى التكثيف ثم ضرورة الإفلات من الرقابة ثم اعتبار قابلية التصوير بالوسائل النفسية الميسرة للحلم - تقوم في بادئ الأمر بتكوين محتوى حلمى موقوت من المادة المتوفرة ، ثم بعد ذلك يرتب هذا المحتوى ترتيباً جديداً بحيث يتفق بقدر الإمكان ومطالب عامل آخر (هو المراجعة الثانوية) ؟ ذلك فرض لا يكاد يلقي أقل حظ من الرجوح ، بل أحرى بنا أن نفترض أن مطالب هذا العامل الآخر هي منذ البدء إحدى الشرائط التي يتحتم على الحلم إرضاؤها وأن هذا الشرط - كغيره مما يقتضيه التكثيف والرقابة وليدة المقاومة وقابلية التصوير - يزول في ذات الآن عمله في مجموع المادة الحاضرة في أفكار الحلم ، مختاراً بينها ، آخذاً هذا مانعاً ذلك . بيد أن العامل الذى جئنا إلى معرفته آخرها هو - بين شرائط تكوين الحلم - هذا الذى تبلو مطالبه أقل الجميع لإكراهاً للحلم . فأما أن هذه الوظيفة النفسية التي وصفناها باسم المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم يجب أن تعد شيئاً واحداً ونشاط فكرنا المستيقظ ، فذلك ما يرجحه الاعتبار الآتى كل الترجيح : إن تفكيرنا المستيقظ (قبل الشعورى) يهيج إزاء أية مادة مدركة يصادفها على ذات النهج الذى تسلكه هذه الوظيفة التي نحن بصدد إزاء محتوى الحلم فن طبيعة فكرنا المستيقظ أن يقر النظام في مثل هذه المادة وأن ينشئ العلاقات فيما بينها وأن يجعلها تطابق ما نتوقه من كل معقول . والحق أننا نغلو بعض الغلو في هذا الاتجاه ؛ فإنما تخدعنا حيل المشعوذة لأنها تستغل عاداتنا العقلية هذه . فنحن في محاولتنا أن نسوى ما نلتقاه من الانطباعات الحسية على نمط معقول نرتكب في أحيان كثيرة أشد الأخطاء غرابة ولقد نزيف الحقيقة فيما يتصل بالمادة الماثلة أمامنا . والشواهد على ذلك من الأمور المألوفة للجميع - وهو ما يعفينا من الإلحاح عليها . فنحن حين نقرأ نغض الطرف عن الأخطاء المطبعية التي تبطل المعنى ونتمهم أن ما نقرأه صحيح . وقد قيل إن ناشراً لإحدى المجلات الفرنسية الذائعة قد راهن على أن يجعل الطابع يدس كلمتى « أماما » و « خلفا » في كل جملة من جمل مقال طويل دون أن ينتبه إلى ذلك قارئ واحد ، فكان أن كسب الرهان . وقرأت منذ سنوات في إحدى الصحف مثالا

مضحكاً من أمثلة الربط الزائف . ذلك أن أحد الفوضويين ألقى قبلة في مجلس النواب الفرنسي أثناء انعقاده وأحمد ديوي الذعر الذى أعقب بصيحته الشجاعة : الجلسة مستمرة^(١) . وطُلب إلى الزائرين ممن كانوا في الأروقة أن يصفوا مشاعرهم كشهود للاعتداء وكان بين هؤلاء رجلان من الريف ، فقال أحدهما : إنه قد سمع الطلق حقيقة لكنه ظنها عادة برلمانية أن يرسل طلق كلما جلس خطيب وأما الثانى - وكان في الراجح قد استمع إلى خطب متعددة قبل ذلك - فقد خطرت له هذه الفكرة أيضاً ، سوى أنه ظن أن الطلق تكريم لا يعقب إلا الخطب التى تبرز غيرها في نجاحها .

وما من شك - إذن - في أن تفكيرنا السوى هو العامل النفسى الذى يتقدم إلى محتوى الحلم مطالباً إياه بأن يكون معقولا ، وهو الذى يخضعه لتفسير أول ، وبذا يسبب خطأ كاملا في فهمه . ولهذا كان من القواعد الجوهرية في تفسيرنا ألا نلتفت في أية حالة إلى الاتصال الظاهر في الحلم معبرين إياه ذا أصل مشكوك فيه ، وأن نتأثر ذات الطريق راجعين إلى مادة أفكار الحلم ، سواء أواضحا كان الحلم أم مختلطاً .

غير أننا نلمح بذلك علام يتوقف ما تحدثنا عنه في ص ٣٤٠ من التدرج الكيفي للحلم بين الاختلاط والوضوح . فأجزاء الحلم الواضحة هي تلك التى استطاعت المراجعة الثانوية أن تحدث فيها أثرها ، فأما تلك التى لا تفلح فيها جهود هذه المراجعة فمختلطة . وإذا كانت أجزاء الحلم المختلطة في أحيان كثيرة هي في الوقت نفسه أقل أجزائه من حيث الشدة الحسية ، جاز أن نستنتج أن المراجعة الثانوية سبب كذلك في تفاوت هذه الشدة بين مختلف عناصر الحلم .

فإذا بحث الآن عن شيء أقارن به الصورة الأخيرة التى يتخذها الحلم بعد أن يبدى تفكيرنا السوى بدلاوه ، لم أجد أحسن من هذه النقوش المعماة التى سلت بها « الصحائف الطائفة » قراءها زمناً طويلا . لقد كان الهدف منها أن تدخل في روع القارئ أن هذه الجملة أو تلك - ويفضل من أجل المفارقة أن تكون الجملة عامية مضحكة قدر الإمكان - إنما هي نقش لا تبنى . ولهذا تنزع الحروف من تراكيبها المقطعية وترتب على نسق جديد ، فتظهر هنا وهناك كلمة لاتينية حقيقية ، وقد نعاى بعد ذلك في مواضع أخرى من النقش عن خلو الحروف المنعزلة من كل معنى فتوهم أن في النقش أجزاء انمحت أو ثغرات .

فإذا كنا نريد ألا تغرر بنا المرححة ، وجب أن ندع جانباً كل ما من شأنه أن يجعل الجملة تبدو مثل النقش وأن نصوب إلى الأحرف نظرة ثابتة غير ملقنين انتباها إلى ترتيبها الظاهر ، وبذلك نركبها في كلمات من لغتنا نحن .

وقد كانت المراجعة الثانوية – بين عوامل عمل الحلم – هي العامل الذي لحظته غالبية الكتاب في الموضوع وقدرت له أهميته . ويأتى هاقلوك إليس (١٠ ، ١٩١١) بوصف طريف لمسلكتها ، فيقول :

« ولنا أن نتصور أن الأمور تجرى بالفعل على هذا النحو : يحدث الشعور النائم نفسه قائلاً : ها هو ذا سيدنا مقبل ، ها هو ذا الشعور المستيقظ الذي يعلق كل هذه الأهمية الغالبة على العقل والمنطق وما إليهما . أسرع ! اجمع الأمور ونظمها – وأى نظام يكتفى – قبل أن يدخل هو لكى يضع يده . »

ولقد أكد دولاكروا العينية بين هذا المنهج في العمل وبين منهج التفكير المستيقظ توكيداً فريداً في وضوحه ، فقال (١٩٠٤ ، ٢٥٦) :

« هذه الوظيفة المفسرة ليست بالخاصة القاصرة على الحلم فهي لا تختلف من عمل الربط المنطقي الذي نجربه على إحساساتنا ونحن أيقاظ . » (١)

ويرى جيمس سوللي هذا الرأي أيضاً . وكذلك توبوفولسكا ، إذ تقول :

« هذه الهلاوس المتعاقبة في غير اتساق يجهد الذهن لكن يجرى عليها ذات العمل الذي يؤديه في اليقظة بإزاء إحساساتنا ، وأعنى به ربطها فيما بينها برباط منطقي ؛ فهو يصل كل هذه الصور المتقطعة برباط موهوم ويسد ما كان بينها من ثغرات مفرطة الاتساع . » (٢) (ص ٩٣) .

وفي رأى بعض الكتاب أن هذه العملية ، عملية الترتيب والتفسير ، تبدأ في خلال الحلم وتواصل عملها بعد اليقظة ، فهكذا يقول بولان (ص ٥٤٧) :

« ومع هذا فقد فكرت في كثير من الأحيان في أن صورة الحلم قد تلتقي في ذاكرتنا

[“Cette fonction d’interprétation n’est pas particulière au rêve; c’est le même (١) travail de coordination logique que nous faisons sur nos sensations pendant la veille.”]

“Sur ces successions incohérentes d’hallucinations, l’esprit s’efforce de faire le (٢) même travail de coordination logique qu’il fait pendant la veille sur les sensations. Il relie entre elles par un lien imaginaire toutes ces images décousues et bouche les écarts trop grands qui se trouvaient entre elles.”]

تحريفاً أو بالأحرى تصاغ صوغاً جديداً . . . فنزوع مخيلتنا إلى التنسيق مستطوع ولا شك أن يتم في اليقظة ما قد بدأه أثناء النوم وهكذا تبدو السرعة الحقيقية لفكرنا وقد زادت زيادة مظهرية بفعل التنقيحات التي تدخلها المخيلة المستيقظة . » (١)

ويقول لوروا وتوبوفولسكا (ص ٥٩٢) :

« فأما في حالة الحلم فالتفسير والربط لا يتمان بالاستعانة بمعطيات الحلم وحدها، بل تعين عليهما معطيات اليقظة كذلك . . . » (٢)

ولم يكن بعد ذلك محيد عن أن نرى هذا العامل الذي عرف وحده دون سائر عوامل تكوين الحلم وقد لاقى تقديراً لأهميته يتسم بالمغالاة حتى نسب إليه البعض كل وظيفة خلق الحلم . ففي رأى جوبلو - وفوكو بخاصة - أن هذا الخلق يتم في لحظة اليقظة ، أى أن هذين المؤلفين يضيفان إلى الفكر المستيقظ القدرة على تكوين الحلم من الأفكار المنبعثة في أثناء النوم .

ويقول لوروا وتوبوفولسكا في صدد هذه النظرية : « لقد ظن البعض أن من الممكن جعل مكان الحلم في لحظة اليقظة ، وأضافوا إلى الفكر المستيقظ وظيفة تكوين الحلم بالصور الحاضرة في فكر النائم . » (٣)

وبهذه المناقشة في أمر المراجعة الثانوية أردف بحث عامل آخر في عمل الحلم ، ألقت عليه الضوء أخيراً ملاحظات دقيقة لهربرت سيلبيرير . فقد ذكرت من قبل (ص ٣٥٣) أن سيلبيرير قد اقتنص - إن جاز هذا التعبير - عملية تحويل الأفكار

(١) ["Cependant j'ai souvent pensé qu'il pouvait y avoir une certaine déformation, ou plutôt reformation du rêve dans le souvenir ... La tendance systématisante de l'imagination pourrait fort bien achever après le réveil ce qu'elle a ébauché pendant le sommeil. De la sorte la rapidité réelle de la pensée serait augmentée en apparence par ces perfectionnements dus à l'imagination éveillée."]

(٢) ["Dans le rêve, au contraire, l'interprétation et la coordination se font non seulement à l'aide des données du rêve, mais encore à l'aide de celles de la veille ..."]

(٣) ["On a cru pouvoir placer le rêve au moment du réveil et ils ont attribués à la pensée de la veille la fonction de construire le rêve avec les images présentes dans la pensée du sommeil."]

إلى صور ، واقتنصها على التحديد وهي أخذة في التمام . وكان ذلك بأن كان يتكلف ضرورياً من ضروب النشاط العقلي وهو في حالة من التعب أو النعاس . ففي مثل هذه اللحظات كانت تختفي الفكرة التي يعالجها وتحل محلها رؤية لا يلبث أن يتضح أنها بديل لما لم يكن في العادة سوى أفكار مجردة (أنظر الأمثلة على ذلك في الصفحة المذكورة). والذي يهمننا الآن هو أنه يحدث أحياناً أن الصورة المنبعثة - والتي تصح مقارنتها بعنصر من عناصر الحلم - كانت تمثل أحياناً شيئاً آخر غير الفكرة المعالجة ، ألا وهو التعب نفسه أو المشقة المتضمنة في العمل أو الضيق به ، أي أنها كانت تمثل الحالة الذاتية لمن يتكلف الجهد وتمثل وضعه وهو يمارس وظائفه بدل أن تمثل موضوع هذا الجهد . ولقد أطلق سيلبرير على أمثال هذه الصور التي كان يشيع ورودها عنده إلى مدى بعيد اسم « الظاهرة الوظيفية » تفرقاً بينها وبين « الظاهرة المادية » التي كنا نتوقعها .

« مثال : كنت في عصر يوم راقداً على أريكتي وأنا أشعر بنعاس شديد ، ومع هذا حملت نفسي على التفكير في مشكلة فلسفية ، كنت أريد المقارنة بين آراء كانت في الزمن وآراء شوبنهاور . غير أنني - وبني من النعاس ما بي - لم أكن قادراً على الإمساك بقضايا كلا الفيلسوفين في وقت واحد ، على ما تقتضيه المقارنة . وبعد عدد من المحاولات غير المجدية أشربت ذهني بالاستنباط الكانتي مرة ثانية ، باذلاً في ذلك كل ما تملك لإرادتي من القوة ، حتى أتمكن من تطبيقه على قضية شوبنهاور في المشكلة . ثم بعد ذلك تحولت إلى هذه القضية ، ولكنني حين أردت العودة إلى كانت رأيت أن براهينه قد أفلتت مني مرة ثانية ، وبعثنا حاولت استرجاعها . هذا الجهد المضيق في فتح درج كانت الذي كان مختزناً في جهة ما من رأسي لم يلبث أن تمثل نصب عيني في رمز عياني متشكك ، كأنه صورة من حلم : أسأل موظفاً عبوساً جلس محنياً على مكتبه بعض المعلومات ، ولكنه لا يلتقي بالا إلى مطلبي الذي ألح فيه ثم يستقيم في جلسته نصف استقامة ويرسل إلى نظرة رفض غاضبة . » (سيلبرير ١٩٠٩ ، ٥١٣)

وهاهي ذى أمثلة أخرى تتعلق بالتردد بين حالي النوم واليقظة :

« مثال رقم ٢ - الملابسات : في الصباح ، عند الاستيقاظ . يذهب خاطري وأنا نائم بعض النوم (أي وأنا في حالة شفقية) إلى حلم جاءني وأتابع الحلم به على نحو من

الأنحاء . وبينما أنا كذلك أحسست أننى أقرب من حالة اليقظة شيئاً فشيئاً ولكننى أريد البقاء فى الحالة الشفقية .

« المنظر : أقدم رجلاً لأعبر مجرى ماء ولكننى أعود فأؤخرها عازماً على البقاء حيث أنا . » (سيلبرير ١٩١١ ، ٦٢٥)

« مثال رقم ٦ – الملابس : كما فى المثال رقم ٤ (حيث كان يريد المضى فى النعاس قليلاً دون أن يفوته الوقت .) أود لو واصلت النعاس برهة .

« المنظر : أودع البعض وأدبر معه (أو معها) لقاء قريباً . » [ذات المرجع ، ص

[٦٢٧ .]

لقد لاحظ سيلبرير الظاهرة « الوظيفية » التى هى « تصوير لوضع ذاتى وليس لموضوع » فى خلال حالتى الشروع فى النوم والاستيقاظ منه ، قبل كل حالة أخرى . ومن الواضح أن تفسير الحلم إنما يعنى بالحالة الثانية . ومن هذه الناحية نجد أن سيلبرير قد أتى بأمثلة مقنعة تدل على أن الأجزاء الأخيرة من المحتوى الظاهر لكثير من الأحلام – وهى الأجزاء التى تأتى قبيل اليقظة مباشرة – لا تصور فى كثير من الأحيان سوى نية الاستيقاظ أو فعل الاستيقاظ نفسه . وقد يجئ هذا التصوير فى صور من قبيل اجتياز إحدى العتبات (رمزية العتبة) أو مغادرة حجرة أو دخول أخرى أو الرحيل أو العودة إلى الوطن أو الافتراق عن رفيق أو الغطس فى الماء ، إلى آخره . بيد أننى لا أستطيع إلا أن ألاحظ أننى لم أصادف عناصر حلمية يمكن ردها إلى رمزية العتبة – سواء أكان ذلك فى أحلامي أم فى أحلام الآخرين – اللهم إلا فى حالات تقل كثيراً عما تهيمته لنا روايات سيلبرير . وليس من الممتنع على التصور ولا هو بالشئ المستبعد أن يكون فى « رمزية العتبة » هذه ما يلقى ضوءاً على بعض العناصر التى تجئ وسط سياق الحلم ، فى مواضع يتعلق فيها الأمر بذبذبة فى مستوى عمق النوم ونزوع إلى إنهاء الحلم مثلاً . ومع هذا فما أتى أحد بأمثلة مستيقنة على ذلك . وإنما الأكثر وقوعاً – فيما يبدو – هو حالات الحتم المضاعف التى نرى فيها إحدى فقرات الحلم المستمد محتواها من جعبة أفكار الحلم وقد استخدمت فوق ذلك فى تصوير إحدى حالات النشاط النفسى .

وقد كانت ظاهرة سيلبرير الوظيفية هذه – وهى ظاهرة جد خليقة بالاهتمام – سبباً

فى الشئ الكثير من سوء الاستغلال ، دون أن تكون لصاحبها جريرة فى ذلك . ذلك أن البعض

قد رأى فيها سنداً يدعم النزوع القديم إلى أن نخلع على الأحلام تفسيرات مجردة، رمزية . ومن الناس من يذهبون شوطاً بعيداً في إثارة « المقولة الوظيفية » حتى أنهم ليتحدثون عن الظاهرة الوظيفية كلما عرضت في الحلم وجوه من النشاط العقلي أو من العمليات الانفعالية ، مع أن هذه المادة لا تملك من حق الدخول في الحلم — باعتبارها مخلفات من اليوم السابق — إلا ما يملكه سواها ، لا أكثر ولا أقل .

إننا نسلم طواعية بأن في ظاهرة سيلبرير مشاركة ثانية يشارك بها الفكر المستيقظ في تكوين الحلم ، وإن تكن تقل عن الأولى — تلك التي أدخلناها من قبل تحت اسم « المراجعة الثانوية » — من حيث اطراد الوقوع ومن حيث القيمة والخطر . فقد تبين لنا أن جزءاً من الانتباه الذي لا يبنى عن العمل أثناء النهار يستمر أيضاً في خلال حالة النوم متجهماً حينئذ إلى الأحلام ، فيكبح جماحها وينقدها ويحتفظ لنفسه بالحق في أن يضع لها حداً . وكان من الطبعي أن نرى في هذا العامل النفسى الباقي على يقظته المراقب الذى عزونا إليه مثل هذا التأثير التقييدى الشديد في تشكيل الحلم . والذى تضيفه ملاحظات سيلبرير هو تلك الحقيقة : إن ضرباً من الملاحظة الذاتية يشترك عندئذ في العمل تحت ملابسات معينة ويكون له أثره في محتوى الحلم . فأما العلاقة المحتملة بين هذا العامل الذى يقوم بالملاحظة الذاتية والذى قد يبرز عند أصحاب العقول الفلسفية بنوع خاص وبين الإدراك الباطنى وهجاس الملاحظة والشعور ومراقبة الحلم ، فذلك ما تنبغى معالجته في موضع آخر^(١) .

والآن أُلخص هذا البحث المطول في عمل الحلم . لقد وجدنا أنفسنا نواجه ذلك السؤال : أتستخدم النفس كل قواها في تكوين الحلم دون أن تدخر منها شيئاً ، أم تستخدم جزءاً منها مكفوف النشاط ليس غير ؟ وأدت بنا أبحاثنا إلى أن نطرح مثل هذه الصياغة للسؤال لأنها لا تكافئ الأوضاع . فإن حُتِمت علينا الإجابة مع البقاء في المجال الذى ترسمه حدود السؤال ، لم يكن مفر من الرد بالإيجاب على كلا الاحتمالين — وإن بدا أن كليهما يمنع الآخر منع الضد لل ضد . فالعمل النفسى الذى يبذل عند تكوين الحلم ينقسم قسمين : إحداهن أفكار الحلم ثم تحويلها إلى محتوى الحلم . فأما أفكار الحلم فصحيحة كل الصحة وفي تكوينها تبذل كل الطاقة النفسية التى نحن مستطيعونها ،

(١) " في الترجسية " (فرويد ١٩١٤ ج) .

إنها ترجع إلى فكرنا الذى لم يصبح بعد فكراً شعورياً والذى منه تنشأ أفكارنا الشعورية أيضاً بعد تعديل خاص . ومهما ارتبط بها - أعنى بأفكار الحلم - من أسئلة جذيرة بالاهتمام ، معماة ، فهذه الأسئلة لا تحمل صلة خاصة بالحلم ولا تقتضى علاجها بين مسأله^(١) . فأما الجزء الثانى من العمل وهو هذا الذى يحول الأفكار اللاشعورية إلى محتوى الحلم فقصر على الحياة الحاملة وخاصة تميزها . هذا الجزء هو عمل الحلم بالمعنى الصحيح للكلمة ، وهو يبعد عن مثال الفكر المستيقظ بعدا يزيد على ما كان يظنه حتى أعند المنتقذين للنشاط النفسى فى تكوين الحلم : فهو - أعنى عمل الحلم - لا يختلف فقط من تفكير اليقظة فى كونه أكثر إهمالا وفساداً وأكثر نسياناً ونقصاً ، بل هو يختلف من هذا التفكير اختلافاً كبيراً مطلقاً ، ولهذا لم تجز المقارنة المباشرة بينهما . إنه لا يفكر على الإطلاق ولا يحسب أو يحكم ، بل يقصر نفسه على صب كل أولئك فى صورة جديدة ، ونحن نستغرق وصفه حتى نعدد الشروط التى يجب عليه إرضائها وهو يحدث نتاجه . هذا النتاج - وهو الحلم - يجب قبل كل شيء أن يفلت من الرقابة ، ومن أجل هذا الغرض يلجأ عمل الحلم إلى نقل الشدات النفسية حتى وليحدث تغييراً كاملاً فى جميع القيم النفسية . ثم إن الأفكار يجب أن تستحضر - على نحو مانع أو غالب - فى مادة من الآثار الذكورية البصرية والسمعية ، وهو اقتضاء يفرض على عمل الحلم اعتبارات تتعلق بقابلية التصوير يواجها عمل الحلم بأن يجرى نقلات جديدة . ولا بد (على الراجح) من إحداث شدات نفسية تفوق ما يكون لأفكار الحلم ليلاً ، وهو غرض يتم بواسطة التكثيف الواسع النطاق الذى يشمل مقومات الحلم . فأما العلاقات المنطقية بين الأفكار فلا تنال سوى القليل من الانتباه ، وهى فى نهاية الأمر تلتقى تصويراً

(١) لقد كنت فى وقت من الأوقات أجد صعوبة قصوى فى جعل القراء يألفون التفرقة بين المحتوى الظاهر للحلم وبين أفكاره الكامنة ، وكنت لا أفتأ أسمع اعتراضات وحججا مستخرجة من حلم لم يفسر ، أخذ كما أبتت عليه الذاكرة دون التفات إلى ضرورة تفسيره . وأما اليوم وقد رضى المحللون على الأقل بإحلال تفسير الحلم محل محتواه الظاهر ، فإن الكثيرين منهم يرتكبون نوعاً من الخطأ يصرون عليه لإصرار سابقينهم على خطئهم : ذلك أنهم يبحثون عن جوهر الحلم فى محتواه الكامن ، وبذا يفضون الطرف عن التفرقة بين أفكار الحلم وعمل الحلم . إن الحلم فى جوهره ليس سوى صورة خاصة من صور التفكير صارت ممكنة بفعل شروط حالة النوم . وعمل الحلم هو الذى يخلق هذه الصورة ، وفيه وحده تقوم ماهية الحلم ، إنه هو الذى يفسر طبيعة الحلم الخاصة . وإنى أقول ذلك لكى تقدر تقديراً صحيحاً ما يتحدث به الكثيرون من "ميل الحلم إلى الاهتمام بالمستقبل" ؛ فلأن يشغل الحلم بالأمس حلول للمشكلات التى تواجه حياتنا النفسية ليس بأعجب من اشتغال حياتنا المستيقظة الشعورية بهذه المشكلات ، ولا يدل بعد ذلك إلا على أن هذا العمل يمكن وقوعه فى ما قبل الشعور كذلك - وهو أمر نعرفه من قبل .

مقنعاً في بعض الخصائص الصورية للحلم . وأما الحالات الوجدانية المتصلة بأفكار الحلم فيصعبها تغيير يقل عن الذي يتناول المحتوى الذهني لهذه الأفكار، والقاعدة هي أن تقع أمثال هذه الحالات ، فإن أبقى عليها انتزعت مما ترتبط به من الأفكار وضم ما تجانس منها . جزء واحد من عمل الحلم – وأعني به ما يأتيه الفكر المستيقظ استيقاظاً جزئياً من مراجعة متفاوتة المدى – هو الذي يتفق بعض الاتفاق والنظرة التي أراد المؤلفون تطبيقها على فعل تكوين الحلم في مجموعه .